مذكرات مدام اسكويث

للسيدة مرغو

عقيلة المستر اسكويث رئيس الوزارة البريطانية سابقاً



تطلب من مكتبة العرب بالفجالة بمصر

ثمنه ١٤ وثمنه باللغة الانكليزية ١٥٠

ترجمة الشاعر الناثر أسعد خليل داغر

عني بنشرها يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب



السيدة مرغو

عقيلة المستر اسكويث



السيدة مرغو

عقيلة المستر اسكويث

مذكرات
مدام اسكويث

للسيدة مرغو (١)

عقيلة المستر اسكويث رئيس الوزارة البريطانية سابقاً

«القطة مانس (٢) قبيحة المنظر معشوقة العصر» للايك

قال المستر ونستن تشرشل في جريدة الديلي ميل : —
«يحق لهذه المذكرات ان تشغل محلاً في التاريخ في عهد الملكة فكتوريا»

ترجمة الشاعر الناثر

أسعد خليل داغر

كتابٌ حوى ما تشتهي من فكاهةٍ وتاريخ قوم في اجتماع وخلوة
تمرّ به مستقرياً متمتعاً بقطف ثمارٍ منه تا شهد حلوةِ

عني بنشره

يوسف توما البستاني
صاحب مكتبة العرب

---

(١) تصغير مرغريت (٢) كلمة عربية

المطبعة اليوسفية بباب الخلق بمصر سنة ١٩٢٢

المرمور التاسع والثلاثون

٥ انما نفخة كل انسان قد جعل .

٦ انما كخيال يتمشّى الانسان . انما باطلاً يضجون. يذخر ذخائر ولا يدري من يضمها

٧ والآن . ماذا انتظرت يارب ؟ رجائي فيك هو

اني

أهدي هذا الكتابَ

الى

زوجي

مرغو اسكوبث

« ماذا ؟ الم تنل قوة تمكنك من احتمال ما يصيبك من الكوارث ؟ ألم تعط عزّة نفس وسعة صدر ؟ ألم تؤت شجاعة ؟ ألم ترزق صبراً ؟ »

ابكتيتس

مقدمة المترجم

اقترح عليّ ترجمة هذا الكتاب صديقي الاديب يوسف افندي توما البستاني المعروف عند القراء بشدة تفانيه في السعي والانفاق على نشر وطبع الكتب المفيدة . فتوقفت متردداً وهممت ان أجيبه بالرفض والامتناع . لانني كنت قد سبقت واطلعت في احدى الصحف العربية على ترجمة فصل منه ملخصاً وقلت في نفسي ان كانت محتوياته كلها شبيهة بما في ذلك الفصل فاني لا أراه يستحق أقل شيء من عناء الترجمة ونفقات الطبع والنشر . لكنني استمهلت صديقي في الجواب ريثما اطالع الكتاب لعلي أستطيع ان ابدي فيه رأياً لا يخطىء محجة الصواب

والحق أقول اني لم اقرأ منه بضع صفحات الا تملكتني لذة سحرت لبي وأخذت بمجامع قلبي وانشأت فيّ أشد ما عرفته من الميل الى مواصلة المطالعة بلا توقف ولا انقطاع حتى استنفدت كل ماعندي من أوقات الفراغ وكادت تستفزني الى الاستئثار بجانب من دقائق الاكل المعدودة وسويعات النوم المحدودة

وكنت كلما فرغت من تلاوة فصل أجد من تغيير الموضوع وتحويل البحث في الفصل الذي يليه طلاوة شائقة وفكاهة رائقة تولدان فيّ ميلاً جديداً وارتياحاً شديداً الى المواظبة على المطالعة . ولم يزل ذلك دأبي حتى فرغت من قراءة الكتاب كله ،

فاذا بي قد وقفت على ماخطه يراع الكاتبة عن نفسها وعن كل واحد من أسرتها وغيرهم ممن اتصلت بهم بصلة القربى والنسب أو برباط الصداقة والوئام أو بعلاقة العشق والغرام . وما وقع لها من المباحثات الدينية والادبية والمطارحات السياسية والاجتماعية مع كبار رجال الدين والجاه والثروة وأقطاب السياسة والعلم والفلسفة واكثرهم معروفون حتى عند عامة القراء مثل الملك ادورد السابع وغلادستن وسلسبري وروزبري وبلفور واسكويث وغيرهم ممن لا يسعني ذكرهم في هذه المقدمة

وما ادرِ لا ادرِ ايّهما كان أشد تأثيراً فيّ . ألفوائد التاريخية والسياسية والاجتماعية والادبية والاماليح الفكاهية التي اجتنيتها من تصفح الكتاب ام اعجابي ببلاغة كاتبته وسعة اطلاعها وسرعة خاطرها وغزارة مادتها وطول باعها في فن الانشاء ومهارتها في تدوين المذكرات « اليوميات » وترتيب الحوادث وسرد الوقائع وتمحيص الحقائق . وامتلاكها لناصية التدقيق في البحث والوصف على صراحة في القول وشجاعة في الانتقاد وانصاف في الحكم حتى على نفسها غير محجمة عن ذكر ما فيها من العيب والنقص

وكانت فوق هذا كله حريصة على اتقان كل مازاولته في ايام صباها من الاعمال . فقد ضرب المثل ببراعتها في الفروسية أو ركوب الخيل والخروج للصيد والقنص في بطون الاودية ورؤوس

الجبال واجواف الادغال حيث تعرضت غير مرة لاخطار السقوط والاشراف على الموت. وضربت بسهم كبير في فنون الرقص والتمثيل والتصوير والموسيقى. وكانت جليسة الوزراء والعلماء.

عرفت هذا كله عنها من مطالعتي لكتابها. فاتضح لي ان ذلك الفصل الصغير الذي ترجم منه الى اللغة العربية لا يصح ان يتخذ عنواناً له ولا انموذجاً لمحتوياته. وحينئذ عزمت على ترجمته اجابة لطلب صديقي الناشر وخدمة لقراء اللغة العربية ليسهل عليهم مطالعة كتاب طبقت شهرته الخافقين وشغل كتّاب اللغة الانكليزية صفحات الصحف الاسبوعية واليومية والمجلات الشهرية في نقده وتقريظه دلالة على شدة اهميته

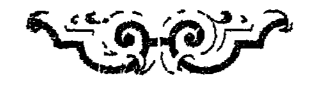
وبلغني ان الذين تولوا طبعه ونشره نقدوا مؤلفته عشرة آلاف جنيه وقيل اثني عشر الف جنيه. وقد ترجم الى اكثر اللغات الاوربية. وثمن النسخة منه في اللغة الانكليزية نحو ١٤٠ غرشاً صاغاً

بقي ان صديقي الناشر لم يوافقني على جعل عنوان الكتاب « مذكرات مرغو اسكويث » كما هو في الاصل وفي الترجمة الفرنسوية لانه استثقل كلمة « مرغو » . وقد عرضت عليه ان استبدل بها « عقيلة » أو « قرينة » فابى قبول هاتين أيضاً وحتم بوجوب استخدام كلمة « مدام » العامية بحجة انها اسلس وارق وأكثر دوراناً في الالسنة وأن « الخطأ المشهور خير من

الفصيح المهجور » . ولما أصر على رأيه وأقفل في وجهي باب الكلام جاريته فيه مرغماً وقلت « صبراً على مجامر الكرام » واكتفيت بهذا التنبيه لعله يشفع بي عند المحافظين من علماء اللغة الاعلام والسلام

أسعد خليل داغر

القاهرة في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢١



مقدمة المؤلفة

لما شرعت في وضع هـذا الكتاب كنت في ريب من جهة توقف قيمته على ما استطيعه من تدوين حكمي على الناس والحوادث باخلاص وامانة . ولما فرغت منه حل اليقين محل الريب . ولوكان كتابي هذا في موضوع آخر لكان لحكم اصدقائي فيه ومعارفي قيمة لا تثمن . ولـكنه انحصر في موضوع قضى بان يكون مرجع الحكم فيه اليّ انا وحدي . لان من يكتب كما يتكلم يجب عليه ان يتحمل المسئولية كلها، ومتى سألت غيرك قائلاً له : —

« ماذا تظن : أيصح لي ان اقول هذا أو اكتب ذاك؟ » كنت كمن يروم تحويل جانب من المسؤولية عن نفسه الى غيره . اما انا فلم يسعني قط ان اوجه سؤالاً كهذا الى أحـد أيا كان ولا سيما زوجي الذي لم يطلع على كتابي الا الآن . وعدتي الادبية الوحيدة انما هي صراحتي الطبيعية . فلو خامرني أقل شك في ان ما كتبته فيه يحرج موقف زوجي او يوقعه في ورطة لكان بلا ريب يوهن صراحتي أو يجعلها اثراً بعد عين . واني افضل ارتكاب مئات من الهفوات في الانشاء وغـيره على تصوري — فضلاً عن تصور الناس — اني عرضت زوجي لشيء مما اشرت اليه .

وسأخالف اكثر كتاب المذكرات في الاقتصار على عدد قليل من الذين يجب عليّ أن انوه بفضلهم واصرّح بشكرهم في هـذه

المقدمة . فمنهم اللورد كرو والمستر الكسندر متوس لانهما اطلعا على كتابي هذا قبلما اكملتُ تأليفه ومثّلته للطبع وابديا ماعنّ لهما من الانتقادات ولم يكن في ذلك ما يقيّدهما بالموافقة على كل ما كتبته . والمستر ادموند غوس والمستر دسموندما كرثي لانهما تفضّلا بذكر بعض ملاحظات مفيدة والمستر جون مري لانه اذن في نقل جانب من الفصل العاشر في كتابي من مجلة كورنهل وكاتبتي الآنسة لي التي أعدّت الكتاب للطبع بالمكتاب [الآلة الكاتبة] واتمت عملها بدقة وسرعة لامزيد عليهما

فقليلون جداً هم الذين يحق لي أن أقول لهم «لولا استصوابكم وتنشيطكم لم اكتب هذا الكتاب» أما أولئك الذين يحبونني حقيقة فسيصفحون عني عالمين أنّ فضلهم يقصر عن شكره لساني ولكن لا يعجز عن الشعور به جناني

مرغو اسكويث



مذكرات

مدام اسكويث

الفصل الاول

ُولدتُ سنة ١٨٦٤ في موطن هوغ وسكوت(١) بين نهري يارو وتويد(٢) وكنت واحدة من اثني عشر ولداً . ولكنني لم أعرف منهم سوى ثمانيــة لأنّ الباقين توفوا قبلما بلغت سن الرشد . أما شقيقتي الكبرى « بولين » فقد وُلِدَتْ سنة ١٨٥٥ وزُفت سنة ١٨٧٤ الى توماس غوردون دُف . وكان من صفوة الشبان ونخبة الفتيان . وقد توفيت شقيقتي هذه بداء السلّ الذي شنّ غارة شعواء على أسرتي كلها . وكان بيني وبينها ـ من حيث السنّ والاخلاق ـ اختلاف شديد حال دون توثيق عرى الالفة والصداقة بيننا . لكنها امتازت بالصلاح والصبر والشجاعة وكان لهذه الصفات تأثير شديد فيّ

(١) هوغ وسكوت شاعران سكوتلندياّن

(٢) يارو وتويد نهران في سكوتلند

أما شقيقتي الثانية شارلوت فقد ولدت سنة ١٨٤٨ واقترنت باللورد « ربلسدايل » سنة ١٨٧٧ . وامتازت هي وأخي ادورد عنا كلنا بطول القامة . وسمعت والدتي تقول ان امتياز شقيقتي هذه بطول القامة وجمال الطلعة مكتسب من مرضعتها جانت مرسر التي كانت مشهورة بقدّها الطويل الرشيق وشكلها الجميل الأنيق. وكانت شارلوت تفضلنا كلنا في بعض الامور ولكنها لم تؤت سرعة خاطري وعبقرية « لورا » وقريحة لوسي. وكانت مع شدة جمالها أقل الناس عجباً وزهواً. أما شجاعتها الأدبية فكانت من أكبر بواعث المسرات في الهيئة الاجتماعية . وقد سمعتها في احدى المآدب تقول للمرحوم روتشيلد :—

« أو لا تزال ياسيدي اللورد تتوقع مجيء مسياً ؟ »

وذهب مرةً زوجها الى احدى المقاطعات ليلقي فيها خطبة سياسية. فأرسلت اليه تلغرافاً تقول فيه :—

« احذر كل الحذر من أن تطعن خصومك فوق النطاق ! »

كانت كأس شبيبتها مملوءةً دهاقاً من أرواح النشاط وأنفاس العزم وخلوّ البال. وقد ضربت بسهمٍ من الفروسة أي ركوب الخيل . ولكنها لم تبلغ شأوي في هذا الفنّ

وقلما اتفق لزوجين غير شارلوت وربلسدايل ما اتفق لهما من شدة موافقة احدهما للآخر حتى صحّ فيهما القول:—

فلم تكُ تصلحُ الاّ له ولم يكُ يصلح الا لها

وكثيراً ماشاهدتُ المصوّرين يتسابقون الى تصويرهما ورأيتُ معارض الصور في لندن حافلةً بعرض رسومهما الجميلة

أما شقيقتي لوسي فكانت أذكانا قريحةً وأوفرنا نصيباً من حيث العلوم والمعارف . ولكن اتفق انها كانت في حداثتها بين طبقتين . لان تناسب السن سهَّل اصطحاب بولين وشارلوت كما سهّله لي ولشقيقتي لورا . فانفردت لوسي وفاتتها أطايب حياة الحداثة التي تمتعنا نحن بلذتها • ولم تتوثق عرى الصداقة بيننا الا بعد زواجها وكنت يومئذ ابنة اربع عشرة سنة • وكانت حبيبة أمّنا . ولم ينازعها أحدٌ منا هذا الامتياز . وقد أخذت عن أبي كرم الضيافة وشجاعة القلب وحاكت أمي في الوداعة ورقة الجانب ولين العريكة • وبلغ من شدة حرصها على مراعاة شعور الآخرين انها كانت تجتنب التصريح بأفكارها من جهتهم • فقد كانت صادقة ولكن أعوزتها الصراحة . وبراعتها في التصوير على اختلاف أنواعه فاقت جداً براعة لورا في البيانو وبراعتي في الرقص . ولو انها أجابت طلبنا وعرضت ما كان عندها من الصور البديعة للبيع لكانت من كبيرات النساء الغنيّات • ولكن كان زهدها في حطام الدنيا أشبه بزهد القديسين . اني مديونة لها بأشياء كثيرة توجب عليّ الكتابة عنها . ولما أصابها داء النقرس وجرّعها أمرّ الألم أظهرت صبراً وجلداً اكسباها محبة واعجاب جميع الذين عرفوها

اما عن اختي لورا فسأتكلم فيما بعد . والآن انتقل الى الكلام عن اخوتي . —

كان أخي جاك(١) ممتلئاً صحة وعافية . ولكنه نال في صغره نصيباً كبيراً من التفنيق والترفيه ولم يُعتن بتربيته العناية الكافية. وأصابه ضعف في أعصابه لانه أطلق له العنان في حداثته لمرافقة الصيادين فكان يقطع كل يوم من اثني عشر الى خمسة عشر ميلاً جرياً على قدميه وعلى رغم ما كان يلقاه من شدة العناء كان يذهب بعد العشاء ليلعب « باياردو » ويظل الى مابعد نصف الليل

وقد افسح له زوجي المجال لاغتنام فرصة التقدم في الشؤون السياسية فعيَّنه كاتم أسراره في «البرلمنت» فأفلح وقام بعمله أحسن قيام

وفي سني ١٩١٤و١٩١٥ و١٩١٦ العصيبة امتاز بما أبداه من الأهلية والكفاءة في منصبه الخطير اذ تعين وكيلاً لوزير الحربية المرحوم اللورد كتشنر . ثم تعين أخيراً وزيراً لسكوتلند وصار من أعضاء الوزارة . وكان كباقي أسرة تنَنْت ذا همة ونشاط واريحية . وقد حذق جميع أنواع الالعاب الرياضية واشتهر بشدة براعته في الصيد

---

(١) هـ.ج. تننتْ

اما أخي فرنسيس تنت فقد امتاز عن سائر اخوتي بشدة براعته في الفنون الجميلة . فقد كان ذا أذن مطبوعة على ادراك ادق النغمات الموسيقية وعين مخلوقة لتعرّف الالوان واستجلاء جمال المناظر وحسن المشاهد أيا كانت

وفي حداثته ابتلاه نكد الطالع باستاذ خشن العريكة فظ الطباع فعاق مسير تثقيفه وتهذيبه • رأيته يوما وقد ابتدرأخي بضربة شديدة كادت تصرعه فخمي غيظي عليه وصحت به : — يالك من وحش ! ثم لطمته على رأسه بكلتا يدي • فرد الي اللطمتين باشد منهما على اذني • وهاج ذلك سخط اختي لورا فاحتجت على قساوته هذه اشد احتجاج وتهددته بالشكوى الى ابي • اما هو فرمى بها الارض وغادر الغرفة

وكلما تذكرت اهمال المربيات وقساوة الاساتذة الذين ابتلينا بهم يأخذني العجب مما عرفناه وتعلمناه فانه كثير جداً علينا

اما اخي الا كبر « ادي » فقد كنت معه على احسن ما يرام على رغم ما كان بيننا من اختلاف الطباع والملامح . فقد كنا كلانا شديدي المحافظة على الوقت • شديدي الجزع • لكنه كان يكره الزيارات . وكنتُ انا شديدة الولع بها . وكان يمقت الاجتماعات وكنتُ انا ميالة كل الميل اليها . ولما كانت والدتي قد طعنت في السنّ واصبحت عاجزة عن الذهاب بي الى حفلات الانس والطرب كان « ادي » ينوب عنها في ذلك فيوصلني الى حيث اريد الذهاب

ولـكنه لم يعد قط ليرجع بي الى البيت واذ كان كل منا يحمل مفتاحاً لبوّابة البيت الخارجية كنتُ كل مرة اعود امّا وحـدي او مع رفيق

وكان ابي (١) مفعماً همة ونشاطا وممتازاً بشدة قوته الحيوية وسهولة غيظه وسرعة تأثره . ولما توفي في اليوم الثاني من شهر يونيه سنة ١٩٠٦ كتبتُ عنه في مذكراتي ما يأتي : —

« بينما كنتُ جالسة في غرفة ابنتي اليصابات اسمع لها درسها وكانت الساعة ٧ بعد الظهر جاءني تلغراف من زوجة ابي تقول فيه : — انطلق ابوكِ بسلام الساعة الخامسة بعدالظهر

« فغطيت وجهي بيديّ وخرجتاطلب زوجي . فقد كان ابي مريضاً منذ بضعة ايام . ولـكني كنتُ في صباح ذلك اليوم قد تناولت كتاباً منه . ولهذا فاجأني نعيهعلىغير توقعولاانتظار وانقض عليّ كالصاعقة

«أما ابنتي اليصابات فقد راعها جداً مصابي واثر فيّ اشد تأثير قولها لي والحزنيغشى محياهاوالدموع تنهلّ من اجفانها :— « لقد عاش يا اماه سعيداً جداً • ومضىوالسعادة تصحبه . فهو سعيد جدا وسيبقى هكذا على الدوام »

---

(١) السر تشارلس تننت . ولد سنة ١٨٢٣ وتوفي سـنة ١٩٠٦ فعاش ٨٣ سنة

« نعم . هذا حق لا ريب فيه . لقد كان سعيداً وسيبقى هكذا على الدوام . لقد أوتي من صحة الجسد واستنارة العقل وصلاح النفس قسطاً كبيرا ضمن له حياة طويلة تملى فيها ما شاء من السعادة والهناء . ولم اعرف قط احدا غيره مكنته قوته الحيوية من الاستقلال بنفسه والاستغناء عن الآخرين حتى الى آخر حياته . فكان يمشي وحده ويخرج لصيد الاطيار والاسماك وبعض الالعاب الرياضية وحده . نعم كان يعوّل على والدتي وعلى زوجته بعد وفاة والدتي ويأنس بصحبة شركائه البسطاء في اللعب

قضى حياته الطويلة يجدّ السير منذ صباه في مناهج الامانة والاستقامة ملتزماً خطة الصراحة والبساطة في جميع تصرفاته وكان شديد الرسوخ في عزمه وصحة مبادئه ودقة ملاحظاته وقوة ذاكرته وارادته ومواظبته على العمل . وكان يكره الهدايا لكنه كان يرتاح الى الاطراء فكان يسهل تملقه والتزلف اليه . لكن وقته لم يكن ليسمح له بالتفرغ لشيء كثير من هذا القبيل ومن كرم الاخلاق ان يصدق الانسان غيره في مدحه له

« وكان يأنس بمجالسة بعض الاصدقاء ومنهم ربلسدايل واللورد هالدن واللورد روزبري وارثر بلفور . وكان يشعر بروح الصداقة نحو كل انسان . ولما كنتُ انا وشقيقاتي بعدُ فتيات كان يقول لنا يجب ان يجري زواجنا على الطريقة المألوفة في هذه الايام . لكنه أخيرا اطلق لنا حرية الاختيار لتقترن كل

منا بمن احبت واعاننا على تحقيق ذلك بما قدّمه من المساعدة المادية على خلاف ما نراه من اكثر الآباء فانهم يضحون ببناتهم ويكرهونهنّ على قبول ازواج لا يحببنهم لانهم اغنياء لا يكلفونهم الانفاق على جهاز بناتهم ولا يتقاضونهم مالاً

«واظنني كنت أعرف اخواتي واخوتي به وادراهم جميعاً بما يرومه ويعنيه لاقل اشارة تبدو منه . وقد عشت معه تسع سنوات (بعد زواج أختي لورا) لم يكن فيها معنا من باقي اسرتي سوى أمي واخي ادّي . فاتسع لي مجال اختباره والتعرف به . فكان يعجب بما يراه فيّ من الاندفاع بلا تدبر ولا احتياط . وقد شاقه ما آنسه في ربلسدايل من رقة الجانب وحسن التناول فاحب احدهما الآخر محبة صادقة . وقد قال لي مرة عنه : — انه من الذين اودعوني منةً وحملوني على شدة الاعجاب بهم . وقليل ما هم ، »

ولا يسعني ان اتجاوز هذه الاشارة الى صهري ربلسدايل من غير ذكر الاثر الذي كان له فينا عند ما زارنا أول مرة

فقد كان أجمل رجل رأيته ما عدا اللورد ويمس (١) الكبير والمرحوم اللورد بمبروك (٢) والمستر ولفرد بلنت واللورد دي ابرنون . وقد تعرّفت به شقيقتي شارلوت في حفلة رقص في لندن

(١) ارل ويمس ابو ارل ويمس المعروف
(٢) جورج ارل بمبروك عمّ ارك بمبروك المعروف

لما كان ابن احدى وعشرين سنة وكانت هي ابنة ثماني عشرة . وكان معه في المرقص احد رفقائه من ضباط فرقته . فلما رآه يرقص مع اختي سأله هل هي اخته فاجابه : « لا والحمد لله ! »

ولما زارنا في « غلن » كنت في الثانية عشرة . فاذا به متحلّ بافضل السجايا واجمل الصفات . لذلك مال ابي اليه كل الميل . وقدر حسن خُلقه وخَلقه حق قدرهما

اكتب هذا الآن بعد مضي اربع عشرة سنة على تلك الزيارة . ولست اظن اني استطيع ان ازيد شيئاً كثيراً على ماقلته

ومع ان ابي كان من رجال الاعمال لم يعدم نصيباً كبيراً من سعة المعرفة والاطلاع وجانباً ليس بقليل من ليونة الطبع ومرونة الفكر

وعلى ذكر رجال الاعمال اقول ان الارقام التي في الكتاب الابيض الرسمي الصادر في شهر نوفمبر دلت على ما نتج عن ادماجهم في الوزارة دلالة لا يصح سكوتي عنها في مذكراتي

فقد كان ابي وجدي من رجال الاعمال ولي بذلك الفخر كل الفخر . ولكن من الحمق ان نظن ان ادارة شؤون مصلحة مهمة من مصالح الحكومة او انشاء خطة من الخطط السياسية الخطيرة كليهما مثل ادارة شؤون عمل من الاعمال لا فرق بين الامرين . هذا الظن في غير محله . لان الصفات التي تؤهل الانسان لان يكون رجل عمل غير الصفات التي تؤهله لان يكون سياسياً .

ومن يزعم خلاف ذلك فلن يجد بعد التجربة سوى الفشل الناتج عن وضع الشيء في غير محله

اكتب هـذا وانا ابنة رجل عمل وزوجة رجل سياسيّ. اذاً اكتب عن معرفة واختبار. فاذا اسعدني الحظ بان يطلع المستر بونارلو الشـديد الثقة برجال الاعمال على ما اقوله ويظل متمسكاً بزعمه من هـذا القبيل فاني أحيله على ارقام كتاب الحكومة الابيض المطبوع سنة ١٩١٩

أما والدتي (١) فكان بينها وبين ابي اختلاف شديد في الطباع والصفات. فقد كانت شديدة الخوف والحذر سهلة الانفعال والانقياد لينة العريكة رقيقة الشعور لطيفة المعشر

ومع ما كان بيني وبينها من شدة الارتباط والتعلق واطلاعها حتى على الامور المختصة بي من حيث الحب وما يتصل به لم يسعها ان تعرفني معرفة تامّة. فقد كان يزعجها ويقلق افكارها ماتراه فيّ من القوة الحيوية والنشاط الجسدي والاستقلال بما فيه بهجتي ومسرتي. ولم تتمتع قط بلذة سعة عيشنا لانها كانت شديدة الاهتمام والانهماك في الاقتصاد حالة كونه من شؤون الفقراء لا الاغنياء. وقد سمعت ابي مرة يقول ان المال اشدّ الامور التي

---

(١) اما ونسلو وهي ابنة رتشرل ونسلو الذي كان ابوه متزوجا بكاترينا ولطر ابنة مؤسس جريدة التيمس المشهورة

يغالي الناس في الاهتمام بها والاضطراب من اجلها . ولم اجد في اختباري الطويل ما دعاني الى تغيير شيء من هذه الحقيقة بل اراني الآن واثقة كلّ الثقة بصدقها وصحتها

وكنا كلما اجتمعنا بابي وامي ودار بيننا البحث في موضوع الزواج يقول لنا ابي : —

« ارجو انكنّ يا بناتي تأبين الاقتران برجال فقراء . ولا يجوز للرجال ان يتزوجوا وهم غير قادرين ان يعولوا نساءهم »

فتجيب أمي : —

« لا تصغين الى ما قاله ابوكنّ . لان المال لم يستطع قط ان يجعل احداً سعيداً »

على انه في جميع ما كانت تلاحظه وتنتقده لم تتعمد قط التعريض بأحد بل كانت تسوق كلامها بروح الوداعة والمحبة والاخلاص . وكنا كلنا نعلم هذا الامر حق العلم

وكانت والدتي كلما قبلتها مرة تربتني (١) على ظهري وتقول لي « انتصبي » اما والدي فكان كلما قبلته يقول لي « ابشي ولا تعبسي » ولن انسى هاتين الوصيتين ما حييت . وقد عملت بهما فحفظتا وجهي من الغضن والتجعد وقامتي من الحدب والانحناء

وكان الناس يظنون والدتي ساذجة القلب بسيطة النفس تأخذ

(١) تضربني بيدها قليلاً

بظواهر الامور ولاتستطيع ادراك ما يتطلب نظرا بعيدا وشعورا عميقا . وفاتهم ان يذكروا ان فجيعتها بفقد اولادها الاربعة الاولين قصمت ظهرها وسحقت قلبها وحملتها مالا يطاق من الحزن والاسى . فكانت كلما حاولت مطارحتها الحديث عن ايامها الماضية تهيج بها لواعج الغمّ والاكتئاب فتجنح الى النوح والانتحاب فاضطر ان اقطع معها صلة الكلام او اغير مجرى الحديث . وقد كان بيني وبينها علاقة محبة ومزاح شديدة الارتباط ولكن مجال الالفة القلبية كان محدودا الا فيما يتعلق بمطارحات غنجي ودلالي ففي هذه كان يشتدُّ ائتلافنا واتفاق افكارنا فيتسع لنا مجال الكلام ونسترسل فيه كل الاسترسال

ان والدتي نفسها كانت في عهد صباها من كبار ربات الغنج والدلال وكان لها مسرة واستمتاع بانباء الحب وحوادث العشق والغرام فتنصت لها غير نافرة ولا زاجرة . وتعقب عليها بكلمة انذار وتحذير او نصح ومشورة . . قالت لي ذات يوم : —

« ان الشبان يأنفون من ان يروا الفتيات يتعقبنهم ناشدات لهم كما تنشد الضالة المفقودة . ولك ان تفعلي ما شئت في حياتك بشرط ان تأخذي بعنان لسانك وتحذري جموحه . وقلما يشفق الناس على من يماط عنه الستار ويعرض للانظار »

ونصحت يوماً لابي ان يجتنب التعرُّض لامور حبي مخافة ان اقترن بجوذيّ . وحسناً فعلت . لاني وان كنتُ لم اخف ان يبلغ

بي التهوّر حدّ الاقدام على الاقتران بجوذي" فعلى الاقل كنتُ اقترنت بمن لا يصلحُ لي وكانت المداخلة على كل حال مضرة لي

وفي مايلي خلاصة ما كتبته في «يوميتي» عندما توفيت أمي : —

« ٢١ يناير سنة ١٨٩٥

«ماتت والدتي . توفيت هذا الصباح. ولم يبق بيتنا في «غلن» بيتي . بل صرتُ اذا ذهبت اليه استقبل فيه كغريبة عن أهله بعد ما كنت ارى ذراعي والدتي العزيزة الحنونة ممدودتين لتطويقي وضمي الى صدرها . اوّاه ! كم اتمنى لو استطيع القول بملء الصدق والاخلاص اني عرفتها حق المعرفة وكنتُ مؤاسية لها ولم اغتظ قط من كلامها واني احببتها كما احبتني . وا أسفاه ! ماتت من كانت انيستي في وحشتي ومرشدتي في حيرتي ومستودع اسراري .

«تعلمت من حياة أمي ووفاتها اشياء كثيرة مفيدة. فكم كان يشوقني منها اخلاصها وصراحتها وتنزّهها عن الزهو والغرور وسائر أباطيل العالم . فلقد وطنت نفسها على احتمال المكاره من غير ان تدع احدا يشعر بما تعانيه حتى بلغت في ذلك مبلغاً فاق الطاقة البشرية وتجاوز حد الفضيلة . ولطالما حاولنا ان نشاركها ولو قليلا في حمل جانب من اعبائها الثقيلة فلم تأذن لنا . وظلت على هذه الخطة الى آخر دقيقة من حياتها . فلم تحل قط عن مبدإ ارهاق نفسها لاجل اراحة غيرها . ذلك كان مثلها الاعلى . وكان لها علاوة عليه رفق يفوق الوصف بالفقراء البائسين وسعي متواصل

في سبيل تخفيف شقائهم وتحسين حالتهم

« كانت تحتقر كل من يخاف عدوى الامراض وتجهل المسائل الصحية . وكان لها المام قليل جداً بالطبّ والعلاج ولم تثق قط بالاطباء ما عدا السر جيمس سمبسون الذي كان صديقها . وقد حدثتني عنه انه قال : — يجب الحذر مما يقال عن الصحة والحمية فان جانباً كبيراً منه حديث خرافة • وقال : اذا قاربت النار الانطفاء فلا فرق في محاولة ايقادها بالمحضاٍ او بالملقط

« كانت شديدة المحبة لاولادها ولكنها قلما باهت باحد منهم على خلاف عادة الامهات . واذا نوّه أحد على مسامعها بنبوغ لورا او بجمال شارلوت أو بشيء آخر مما امتاز به بنوها وسائر بناتها عدّت ذلك منه تلطفاً وتفضلا فشكرت له واثنت عليه

« كانت أقل الناس كافة مبالاة بنفسها واكتراثاً لشؤونها الخصوصية . لم تحفل قط بحطام الدنيا ولذات العالم ولا انطلق لسانها بالشكوى من شيء على الاطلاق ، وبكلمة اقول عنها انها كانت المرأة الفاضلة التي قلّ من يجدها »



الفصل الثاني

كان قصرنا « غلن » يبعد ثلثين ميلا عن ادنبرج . وقد بني على الطرز المعروف بطرز « قصور سكوتلند » ومهما يكن من اسلوب بناء قصر « غلن » فلم يكن شيئاً مذ كوراً في جانب جمال موقعه . فقد كان بعيداً عن محطة سكة الحديد والطريق المؤدّية اليه محاطة على جانبيها بالمروج والغياض المكللة هام التلال والمنبسطة على جوانب الاودية

تأخرت قليلا في الزواج فقضيت كل صبوتي في «غلن» حتى صحّ ان يقال عني اني وليدة المروج والغياض . ولما توفيت شقيقتي لورا بقيت انا واخي « ادي »مع والديّ في «غلن» تسع سنوات

وعند ما كان ادي يخرج للصيد والقنص كنتُ اقضي معظم ايامي متنزهة خارج القصر وقلما رجعتُ يوماً لتناول الغداء فيه وكل يوم كان جوادي يسرج ويعدّ لركوبي منذ الساعة السابعة صباحاً . فامتطيه وامضي متزوّدة بما احتاج اليه من كتب واقلام وورق للمطالعة والكتابة والتصوير وطعام وسجاير . فتعرّفت بجميع الرعاة والصيادين . وكثيراً ماجالستهم وحادثتهم واطعمتهم جانباً من زادي . وكان مصابي بوفاة شقيقتي لورا أشدّ مما استطيع احتماله فضاقت نفسي وعدت لا اطيق الاقامة في البيت وشعرت بشدة احتياجي الى الخروج من الصباح الى المساء

وفي ذات يوم لقيت راعيا طاعنا في السن يدعى غوانلك . واذا به قد دنا مني واخذ بعنان الجواد منبهاً اياي باني قد ضللت الطريق . فشكرت له معروفه ولاحظته ينظر اليّ متفرساً وكأني به ادرك ما اعانيه من ألم النفس وحزن القلب على فراق شقيقتي ثم وضع يده على كتفي وقال لي وهو يهزّ رأسه : —

« لا فائدة من التبرم والتذمر . نعم . قضي الامر . لا فائدة من المقاومة والاعتراض »

وفي يوم مطر رأيتُ افاقاً رابضاً تحت السدّ رافعاً مظلته فوق رأسه وهو يتناول غداءه . فجلست بجانبه واخذت اجاذبه اطراف احاديث مختلفة . لكنه كان كثير السكوت قليل الكلام . فقد سألته من أين جاء والى أين يذهب وماذا يروم ان يعمل فأبى ان يجيبني عن هذا كله . فاعطيته سيجارة وجلسنا كلانا ندخن ساكتين لا نفوه ببنت شفة حتى اذ انقطع المطر التفتّ اليه وقلتُ له : —

« اراك جوّاب افاق تقضي نهارك ماشياً ولا تقصد مكاناً معيناً . فقل لي كيف تعين جهة مسيرك متى استيقظت صباحاً من نومك ؟ » فاجابني : —

« ادير ظهري الى مهب الهواء . وحيثما الريح تميلني امل ! »

لا أذكر شيئا ساءني في ايام حداثتي الجميلة التي قضيتها في بيتنا مع اخوتي واخواتي سوى احتدام الخصام بيننا بسبب اختلافنا

في الطباع والامزجة حتى كانت والدتي تضطر غير مرة ان تفصلنا بعضنا عن بعض ولا تأذن لنا ان ننام في غرفة واحدة فكنا نتمادى في الحجاج واللجاج والصخب واللغط الى الهزيع الاخير من الليل فنهزل ونضعف ونحرم الباقين في البيت لذة النوم والراحة

والحق يقال اننا كنا كلنا كثيري الحركة صعاب المراس . وكنت انا نفسي لا انفك عن ركوب المخاطر في تسلق الاشجار الباسقة وتسوّر الجدران العالية والصعود الى قمم الابراج الشاخصة فوق سطوح القصر . ولا يخفى ما كان في ذلك من شدة الخطر على حياتي . وقد راع هذا التهور والدي حتى انه استدعاني يوما الى مكتبه واسرف في زجري وانتهاري . ولم يأذن لي في الانصراف من امامه الاّ بعد ما اقسمت له امام الله على اني انقطع كل الانقطاع عن الصعود الى السطح والمشي على اطرافه فاقسمت على رغمي ولكنني بررت بقسمي

وقد قصرتُ تقصيرا كبيرا في تعلم الحساب أما في تعلم الرقص فقد برعت براعة لا توصف . حتى كنت قادرة في اثناء رقصي ان ارفع كلتا قدميّ حتى تحاذيا حاجبي بلا اقل انزعاج

واستخدمت والدتي كثيرات من الوصائف والمربيات لاجل تعليمنا والعناية بنا فكنّ يأتين الى بيتنا اثنتين في وقت واحد ومن كل جنس — فرنسويات والمانيات وسويسريات وايطاليات ويونانيات — ولكنه لسوء الحظ لم تفِ واحدة منهن بالغرض

الذي استخدمتها والدتي لاجله . ولم اتمكن قط من حمل واحدة منهن على محبتي . ولست ادري اهن كن الملومات في ذلك ام انا وربما يصح ان استثني منهن ماري موريس فانها المعلمة الوحيدة التي راقتني وراقت أختي لورا . وهي ذات ذكاء نادر واخلاق حسنة . ولا تزال حية الى الآن . وكان ميلها الى لورا أشد منه اليَّ . وهكذا كان ميل اكثر الناس

وهنا اروم ان اقول شيئاً عن شقيقتي لورا والفرد لتلتون الذي اقترنت به سنة ١٨٨٥ . واكثر ما كتب عنها وقيل فيها كان هـذرا وهذيانا . والصحيح في الحكايات المكتوبة عنها اثنتان احداهما كتبتها زوجة الفرد لتلتون الثانية بروح الاخلاص والانصاف في ترجمة حياة زوجها والاخرى دونها تشارلس لدل ولكن ما امتازت به شقيقة روحي لورا من الذكاء الباهر وسرعة الخاطر النادرة لم يوف حقه من الوصف حتى في هاتين الحكايتين وهاك ما كتبه عنها صديقي العزيز لدل

« عرفت الآنسة تننت معرفة أفضت أخيراً الى احكام عرى المودة بيني وبينها وبين اسرتها . ولما كان لهذه المعرفة شأن خطير في حياتي رأيت من الواجب علي ان احاول وصف هذه الآنسة وليس وصفها من الهنات الهينات . لاني لم اجد شخصاً آخر غيرها اصعب منها وصفاً وتمثيلا . ليس في ملامحها مايشوقك من أول نظرة وان لاحت جميلة لاكثر الذين عرفوها معرفة قصيرة . ووصف ملامحها لا يوضح نباهة شأنها ونشاط روحها ايضاحاً كافياً فقد كانت صغيرة الجسم ولكن أعضاءها كانت كلها حسنة

الوضع جميلة التركيب شديدة الالتئام والتناسب بعضها لبعض. وكان لبسها على الدوام عنوان سلامة الذوق وحسن التناول. واذا صعب عليك ان تصف ظاهر المرأة فكيف لو حاولت وصف سجاياها واخلاقها؟

« ومما عرفته عن هذه الآنسة أنها قلما لقيت أحداً لم يدن لها بعد بضعة ايام. والصعوبة في محاولة بيان اساليبها اشبه بصعوبة وصف رقص وصوت الموسيقي غير مسموع. ولعله يصح القول فيها ان اكبر مميز لها هو الطريقة التي كانت تجمع فيها بين الولد الطاهر القلب ولباقة المرأة المتناهية في البراعة »

وقد يقول أحد قارئي مذكراتي: « ترى ما مثل لورا ومرغو (١)؟ ماذا كان وجه الاختلاف ووجه الشبه بينهما

والذين استطاعوا ان يجيبوا اصح جواب عن هذا السؤال هم اللورد غلادستون والمستر ارثر بلفور واللورد مدلتون والسر رنل رود واللورد كرزن أوف كدلستون. اما انا فاقول ما يخطر ببالي عن وجوه الاختلاف والشبه التي كانت بيننا

فالحق يقال اني كنت قبلما هشمت أنفي اجمل من لورا. لكن عينيها كانت أجمل من عيني اما من جهة القوى العقلية فلا يسهل علي تعيين الفرق بيني وبينها لانها توفيت وهي في سن (٢) قل من يبلغ فيها كمال قواه العقلية. ولكنها على قصر حياتها

---

(١) اسم المؤلفة (٢) ٢٣ سنة

هذه كان لها في العالم تأثير لم يكن قط لاحدغيرها . ومما امتازت به امتيازا رائعاً ساطعاً صــدق روحانيتها (٣) وصحة شعورها بالعطف والحنان نحو الاخرين وبمحبة الله وحكمته ومقاصده . فقد كان عقلها مستنيراً بضياء الدين الحق وقلبها راسخ الاعتقاد بقواعده . ولـكن لم يكن هذا كله ليحول دون انصرافها الى الغنج والدلال . ولما زارنا أحد الرجال اول مرة في « غان » وآثرني عليها تعجبت جداً وكنت انا أشد تعجبا منها . ولولا ما كان بيننا من المحبة الفائقة الوصف والبالغة حد الـكلف والهيام لشبت بيننا نارغيرة شديدة الضرام ٠

وهــذا الرجل نفسه عرض غير مرة علينا كلتينا ان يخطبنا ولـكن كلا منا اطلعت الاخرى على مقاصدها من نحوه

كانت لورا الين مني عريكة وارق جانبا ولـكنني كنت افوقها في اختبار الناس ونقد اخلاقهم فكانت اكثر مني تعرضا للغش والانخداع وعد الخبيث طيبا والرديء جيداً . ولـكن هذا التقصير في سبر غور الاخلاق سهل عليها اصلاح شؤون كثيرين من معارفها فتيات وفتيانا ومكنها من تقويم اعوجاجهم وشحذ قرائحهم وادخال السرور الى قلوبهم

اما انا فلم افلح قط في محاولة تغيير أحد من حالة الى أخرى

---

(٣) شدة الميل الى الامور الروحية

بل كثيراً ما افضت محاولتي هذه الى خسارة عدد ليس بقليل من صديقاتي . وهذا كان الفرق الحقيقي بيني وبينها . لم اوفق قط الى تكييف أحد أو التأثير فيه الا ولدي اليصابات وانطوني . اما لورا فكان لها من هذا القبيل سلطة عجيبة مدهشة اثرت في كثيرين من النساء والرجال الذين اخبروني بعد موتها بعدة سنين انها كانت سبب تغيير عظيم في مجرى حياتهم وصفاتهم

وهناك فرق آخر بيني وبين لورا . فانها كانت تأسف على الذين عرضوا ان يتزوجوها ورفضتهم . اما انا فلم ارث قط لمن احبني اياً كان . وقلت لها يوما ان عشاقها وعشاقي سنحت لهم احسن الفرص لبلوغ ما ارادوا لانهم كانوا لا يبطئون ان يعلنوا ما ارادوه .

ولم نكن كلتانا سريعتي التأثر والاستمالة . وكان من عادة بيتنا ان يحبنا من يرومون التزوج بنا . والحق اقول اننا كنا نقابل ذلك بمثله فنعطي على قدر ما نأخذ

سألني يوما « رولان لي » صديق أخي « ادي » هل اريد ان امشي معه قليلا وكان من نخبة الشبان المتهذبين . فقلت له : —

« نعم بشرط ان لا تطلب الي ان اقترن بك »

فاجابني : « لم يخطر هذا قط ببالي ! »

فقلت : « حسن جداً » ثم وضعت ذراعي في ذراعه بملء

الثقة والشكر

زارنا احـد ابناء عمي الاباعد السر دافد تننت من مدينة الـكاب ومعه ابنه وهو شاب في سن العشرين . وبعد ماقاماعندنا اياما طلب اليّ ابنه ان اصحبه الى احـد الاصونة المعدة لوقاية النباتات من البرد وسألني ان اقترن به . فقلت له : «لقداسرفت في التسرع . لاني بالجهد عرفتك » . ثم رجعت لاخبر لورا بمـا حدث فوجدتها تبكي وتذرف دموعها . لان السر دافد تننت طلب اليها ان تقترن به واضطرت ان ترفض طلبه . فاخمدت لاعج حزنها بقولي لها اننا لو قبلنا كلتانا ماعرضه الاب والابن علينا لصارت هي حماتي ورابة زوجي

كنتُ كل ليلة انفرد بها في الغرفة المعدة للدرس والمطالعة الى ان تزوجت فكنا نقرأ ونطالع ونتباحث في مواضيع مختلفة وشؤون متنوعة . واذا اضطجعنا في مخدعنا واصلنا القراءة ونحن مضطجعتان الى ما بعد نصف الليل . وبعض الاحيان كنا نظل على هذه الحالة الى الساعة الثالثة صباحا . وكنا قبلما ننام نتلو صلواتنا بصوت عال

واول حفلة حضرناها معا كانت حفلة سياسية اقامها السر وليم هاركورت . وفيها تعرفت بسبنسر لتلتون ثم لقيت شقيقتي لورا اخاه الفرد

وفي ذات يوم بينما كنت خارجة مع لورامن كنيسة القديس

بولس وجهت التفاتي الى شاب وقالت لي : — « اذهبي وادعي الفرد لتلتون ليزورنا متى شاء في هذا الخريف » ففعلت

ووافق مجيئه الينا اليوم المعين عندنا لاستقبال الزائرين فحضر معه بضعة شبان آخرين منهم جورج كرزن وجورج وندهام ومارك نابيرودل لدل وغيرهم. وعلل ابي نفسه بامكان اقتران بعض هؤلاء الشبان بنا

وحدث قبل مجيء الفرد لتلتون الينا ببضعة اسابيع ان لورا بلغها اتهام بعض الناس لنا بالطيش والخفة وانهم يعيبون علينا استقبالنا لزائرينا في غرفة النوم . فاضطربت واشارت بوجوب العدول عن هذا الامر . اما انا فاوضحتُ لهـا شدة استخفافي بهذا الانتقادالسخيف . ووافقني على ذلك جودفري وب ناصحا لنا بعدم الاكتراث لما يقوله الناس . وحقا ان هذا الانتقادكان في غير محله . لان والدتي كانت معتادة ان تنام الساعة الحادية عشرة . فلا يعقل انزائراتناوزائرينا الذين كانوا يودون مجالستنا لا يؤذن لهم في الاجتماع في غرفة كانت معدة للنوم والجلوس معا . وكانت الاجتماعات فيها تقضى بالمسامرات والمطالعات والمباحثات في شؤون ادبية وسياسية ودينية وغيرها

ومما اقلق لورا واقض مضجعها انها كانت تود الاقتران بفتى ذي حزم وعزم حائز لصفات الرجولية . ولكن لمـا كانت على جانب عظيم من الغنج والدلال اجتذبتها صفات أخرى في بعض

الشبان اسطع والمع من صفات الحزم والعزم واوقعتها في حيرة شديدة فلم تستطع البتّ في امورها الغرامية . واثر ذلك كثيراً في اعصابها حتى انها لما زارنا الفرد لتلتون كانت مصابة بالم عصبي [نفرالجيا] حادّ اضطرها ان تلازم سريرها وحال دون مشاهدتها لالفرد

فاستقبله ابي مبالغاً في اكرامه والاحتفاء به . لانه علاوة على استحقاقه الشخصي للاكرام كان ابن اخت غلادستن وقد شبّ على مبادىء حزب الاحرار الذي كان ابي منه

وفي مساء يوم وصوله الينا خرجنا كلنا بعد العشاء للتمشي في حرجة وراء القصر . وكانت الليلة مقمرة . لكن ضياء القمر يكون في القصص والروايات اسطع جداً مما هو بالحقيقة . اذاً على رغم ضيائه كان الظلام مخيماً . فانفردت بالفرد متأبطة ذراعه وسرنا نتجاذب اطراف الحديث مسرورين مبتهجين . ولما اقتربنا من الحرجة بلغنا جدولاً عليه جسر دقيق اشبه بعصا طويلة فتقدمتُ رفيقي في اجتياز الجدول على الجسر وكان زلاّقة فزلت قدمي وسقطت في الماء . ولم يبطىء الفرد ان غاص في الجدول وانتشلني وجاء بي الى الضفة فوقفت على قدميّ لا اشكو من شيء سوى بلل جوربيّ [شراباتي] . وكان الباقون منا قد ابتعدوا عنا متفرقين في جوانب الحرجة وقد حجبهم الظلام عن عيوننا . وكان الوقت بعد نصف الليل فرجعنا الى البيت وحدنا . وكان

كل من فيه نياماً . فارتأى الفرد ان يحملني صاعداً بي الى مقصورتي واذ كنتُ خفيفة الجسم رفعني بيديه كما يرفع العوبة واضجعني على سريري ثم جثا وقبل يديّ وحياني وانصرف

وبعد يومين ذهبتُ مع أخي « ادي » الى شمال سكوتلند وكانت لورا قد تعافت وغادرت سريرها . وكان ذلك باعثاً لالفرد على اطالة مدة اقامته عندنا . وبعد عشرة أيام رجعت الى « غلن » فاخبرتني لورا بانها صممت على الاقتران بالفرد لتلتون

كان الفرد شاباً مملوءاً حياة ونشاطاً وحمية ومروءة . لم يكن مقامراً ولا ثملاً . كان يحترم النظام والترتيب لكنه كان يكره النسك والتقشف . ومما اعجبني فيه على الخصوص ليس عقله الذي كان ينقصه المرونة بل صحة تدينه وخضوعه المطلق لمشيئة الله وتنزهه عن المكر والخداع — ولما توفي نعاه زوجي الى مجلس النواب وأبّنه بقوله : —

« اظن واجب العدل والانصاف ومراعاة الشعور الذي يختلج الآن في صدور الكثيرين يقتضي — قبل النظر في المسائل المعروضة علينا اليوم — أن نشترك في الشعور العميق بالخسارة الكبيرة التي لحقت بنا بوفاة المأسوف عليه المستر الفرد لتلتون انها خسارة لا يسعني وصف مقدارها . لانه كان بيننا — علاوة على صلات القربى — روابط صداقة ومحبة تمكنت مدة ثلث وثلاثين سنة فلم تقو الاختلافات السياسية على احداث أقل

تراخ او تأثير فيها . وحسبي ان اقول عن فقيدنا العزيز انه كان في رأيي اقرب رجال هذا الجيل الى مثال الرجولية الاعلى الذي يود كل أب انكليزي ان يرى ابنه يطمح اليه ويحاول الحصول عليه . ان الاخلاق الحسنة التي فطر عليها وصقلها التهذيب وانماها الاحتفاظ بالنظام والترتيب مدة الحياة حبك فيه مواهب وفضائل كانت بنفسها نادرة وصارت بهذا الحبك الشائق اشدّ واندر . كان متحلياً بكل ما هو حسن وجميل وممدوح . ولم يمسك شيئاً مما زانه ومازه بل اعطاه عفوا وبكل سخاء . ولا ابالغ اذا قلت انه كان حيثما ذهب يشع قوة حياة ومظاهر صفات كلها مشتهيات. ذهب الى الحرب وكان فيها كما نعلم كلنا قرماً عنيدا وبطلا صنديدا وقد خلف بعده اجمل ذكرى للرجولية والبسالة الحقيقية — ذكرى رجل خدم جيله وبلاده بما لا مزيد عليه من الصدق والاخلاص . فماذا يمكننا ان نقوله بعد ؟ لا نقول سوى وجوب الانحناء بملء الخشوع والطاعة امام ارادة الله وحكمته . اما احباؤه واصدقاؤه — وكثير ماهم — فيقولون كلما ذكروه :—

هذا شجاع اذا هاجتك ذكراهُ ودِدتَ لو كنتَ في الهيجاء اياهُ »

تزوّج بشقيقتي لورا في اليوم العاشر من شهر مايو سنة ١٨٨٥ . وفي شهر ابريل سنة ١٨٨٦ كنا كل يوم نتوقع ورود خبر ولادتها . واهتمت امي اشدّ الاهتمام بان لا اكون عند اختي وقت ولادتها خوفاً من ان مشاهدتي لما تعانيه من الالم يؤثر

فيّ تأثيراً شديداً . ولما كان بيتنا في شارع قريب من الشارع الذي فيه بيت الفرد لتلتون ارسلتني والدتي الى شارع آخر بعيد حيث تسكن شقيقتي لوسي لكي أقيم معها واقضي وقتي بالصيد. وقبل انطلاقي ذهبت لوداع لورا فوجدتها في قلق واضطراب . وما لبثت ان قالت لي : —

« من المحقق عندي اني سأموت انا وطفلي »

فاجبتها : — « خلي عنك هذا الحذر . انظري الى والدتنا . فقد ولدت اثني عشر ولداً ولم تقاس عناءً يستحق الذكر »

« نعم هذا صحيح . اما انا فسأموت لا محالة »

« ان قتلي في اثناء الصيد اقرب امكاناً واكثر احتمالاً من موتكِ يا عزيزتي ! وحقا انه يسوءني جداً ويحزنني كثيرا ان اسمعك تتكلمين مثل هذا الكلام »

« اروم منكِ يا عزيزتي اذا متُّ ان تتلي وصيتي على الاقرباء والاصدقاء . انها موضوعة في ذلك الدرج . فعديني انك تفعلين ذلك »

« سأفعل يا عزيزتي لورا ولكن لنجثُ الآن ونصلِّ الى الله ونتعاهد امامه تعالى انّ أينا يشاء موتها قبل الاخرى تعود الى الارض بعد الوفاة وتخبر بحقيقة الواقع من جهة العالم الآتي »

فجثونا وصلينا ومع اني انتقلت بالفكر من هذا العالم محمولة على جناح شدة الشوق الى سماع ورؤية ما ليس بماديّ فقد حرمت

من ذلك اليوم التمتع بسماع شيء من لورا او عنها منذ فجعت بموتها — بعد عشرة ايام من تاريخ وداعي لها الى الآن

ففي يوم السبت الواقع في ١٧ ابريل سنة ١٨٨٦ ركبت مع جماعة من الصديقات والاصدقاء للصيد وعرض لي في الطريق حادث سقطت فيه عن ظهر الجواد وحملتُ الى كوخ مغمىً عليَّ لا افيق ولا اعي . وبعد ما افقت شعرت بالم شديد في رأسي ناشىء عن رجة دماغية وجرحين في انفي وشفتي العليا فحملتُ الى البيت حيث حضر الطبيب وخاط جرح انفي جاعلا فيه ثلث لفقات . ولما نظرته في المرآة أجهشت في البكاء لانه سوف يترك في وجهي اثر تشويه لا يمحى

وفي اليوم التالي جاءنا تلغراف يبشرنا بولادة لورا صبياً . فسررنا سرورا لا يوصف وعلى الفور طيرنا اليها تهنئتنا القلبية .

ثم اتانا كتاب من شارلوت تقول فيه ان لورا مريضة . وتلاه كتاب آخر تطلب فيه ان نذهب الى لندن . فراعني الخبر واخبرت الطبيب بعزمي على الذهاب الى لندن . فنهاني عنه منذراً اياي بالتعرُّض للاصابة بالحمرة والموت . ولما زارني في المرة التالية شددت الالحاح عليه بان ينزع اللفقات عن وجهي ويأذن لي في الانطلاق الى لندن فلم ير بدّاً من اجابة طلبي . والساعة السادسة بعد الظهر ركبت قطار لندن فعدا بي مسرعاً . ولكنّ افكاري سبقته فطارت بي وانا في القطار واجلستني بجانب سريرها وطفلها

على ذراعي وكلتانا آخذتان باطراف احاديث مختلفة المواضيع والشؤون ومعظمها مما يسر لورا سماعه والتفكه به

على ان هذه الافكار نفسها عادت بي الى حيث انا في القطار ووجهت اهتمامي الى احتمال كون لورا الآن في حالة النزع وهي تطلبني وتعجب من ابطائي في الحضور ولعلها تظنني باقية في الصيد. آه حتى متى أرى القطار يقف هنا وهنالك وهنالك ! لماذا لا يواصل المسير بلا انقطاع ؟ وهل يسكن أحد قرب هذه المحطات ؟ لا ارى أحداً يخرج منه او يدخل اليه · اذاً لماذا يقف ؟ أأقول لاصحاب الشأن فيه ان لورا مشرفة على الموت ؟ ···· طالما صلينا الى الله وطلبنا ان نموت كلتانا معا في يوم واحد ···· اذاً لا تموت لورا قبل وصولي اليها ···· هـذا لا يمكن ··· ان قوة الحياة فيها شـديدة وشبابها الغض يستطيع احتمال وطأة الداء مهما تثقل وتشتد ···· وحاشا لله ان يسمح بذلك ···· القطار يعدو ناهباً الارض نهباً والعجلات تـكرُّ وكأني من شدة لهفتي اسمعها تقول : — « أبطأتِ ! أبطأتِ ! »

أخيراً وصل القطار الى لندن في منتصف الليل . وفي المحطة رأيت ايفان تشارترس قادماً في مركبة اللادي «ويمس» لاستقبالي فسألته على الفور « هـل ماتت ؟ » فاجابني « كلاّ . لـكنها مريضة جدا ! »

ولما بلغت بي المركبة بيت صهري الفرد في شارع ابربروك رقم

٤ لقيت ابي وبعض الاصدقاء في الردهة « الدار » ثم شاهدت ارثر بلفور وسبنسر لتلتون عند باب غرفة الفرد فقالوا لي : « نراكِ مريضة . فماذا اصابكِ ؟ » . فقصصت عليهم الحادثة . ثم صعدت الى حيث كانت لورا فخرجتْ شارلوت اليّ فتعانقنا وتباكينا وذرفنا دموعاً غزيرة سخينة

حاولت الدخول الى غرفة لورا لاراها ولكن شارلوت حالت دون ذلك على رغم شدة الحاحي قائلة لي ان لورا غائبة عن الصواب . ولا يمكنها ان تعرفني ! وكانت الساعة الاولى بعد نصف الليل . فاضطررت ان أؤجل رؤيتها الى صباح اليوم التالي وكانت حالتها قد تحسنت قليلا وافاقت من غيبوبتها . فدخلت الى غرفتها ووقفت بجانب سريرها ونظرتُ الى ما ابقاه الضنى من لورا ! فرأيت محياها قد تقلص حتى اصبح في حجم وجه الولد واهداب جفونها ارخت ستارة سوداء على صحيفة خديها البيضاء . وقد تدلى شعرها الطويل منطوياً على وسادتها وفها محكم الانطباق . وبعد سكوت طويل تحركت وتمتمت وفتحت عينيها وحولتهما اليّ فمددت يديّ نحوها وقلت «لورا !» ولكنها لم تعرفني . وحينئذ انقطع املي من شفائها

وبعد الظهر افاقت من غيبوبتها ونظرت الى شارلوت وقالت انك « سماوية ! » ثم سكتت . ولم يكن معي في الغرفة سوى شارلوت والفرد . فاقتربنا من سريرها واذا بها تقول : —

« اظن الله نسيني » وظلت الى المساء تراوح بين الغيبوبة والافاقة .

وفي تلك الليلة ـ وهي الليلة الاخيرة من حياتها على الارض ـ اضطجعتُ بجانبها ووسدتُها ذراعي كما كنتُ افعل في ايام حداثتنا حين كانت كل منا بعد انقضاء اللجاج والخصام تدبّ الى فراش الاخرى لقضاء فرض المصالحة والمسامحة . واخذ الفرد باحدى يديها واسندها الى جبهته وجثت شارلوت بجانب سريرها . وكان الصباح قد آذن بالطلوع ونفذت اشعة الشمس من خلال الشباك وحينئذ اخذتها هزة كمن يرتعد من قرس الزمهرير واسلمت النفس الاخير

فنزلت الى الطبقة السفلى واخرجت وصيتها من الدرج الذي وضعتها فيه واخبرت الفرد بما أوصتني به . وكان البيت غاصاً بالحضور • وبعد ما فرغ القسيس من الصلاة تلوت وصيتها الآتية : —

« هذه وصيتي كتبتها بيدي انا لورا ماري اكتافيا لتلتون في شهر فبراير سنة ١٨٨٦ »

« ليس عندي شيء كثير اتركه بعدي اذا دعاني داعي الموت في الشهر القادم لان كنزي مذخور في أعماق قلبي حيث يتعذر الحصول عليه ولا يستطيع حتى الموت ان يصل اليه • ولكن هناك بعض الاشياء التي ظلت وقتاً طويلا موضوعة عند باب

مخدع مسرتي ولها شكل حياتي فيها وهي بحق المحبة تخص اولئك الذين دخلوا ذلك المخدع . فاروم ان الفرد يعطي هـذه الاشياء لصديقاتي واصـدقائي . وذلك ليس لانهم يهتمون كثيراً بها بل لان هذه الاشياء نفسها تود ان تكون حيث احببتُ انا ان اكون

« واروم اول كل شيء ان اقول لا لفرد ان كل ما ملكته في العالم وكل ما كنته وسأكونه الى الابد انما هو له — له وحده اكثر جداً مما هو لاحد آخر غيره . فان كنتُ قـد اخفيت عنه شيئاً ينيله سروراً مجهولاً عندي او كان عزيزاً عليه لسبب ما فهو له . واصدقائي الاعزاء يصفحون عنه وعني

« قليلات جداً هنّ النساء اللواتي نلن ما تمتعت به من السعادة في كل ساعة من حياتي الزوجية — نعم قليلات جداً هن اللواتي عشن مثلي في جوّ محبة صافي الاديم طيب النسيم كانه جنة النعيم ولاجل هذا يخفّ عندي ثقل هول الموت والم الفراق لانني شاعرة شعوراً حقيقياً بما بيني وبين الفرد من الاتحاد الوثيق الخالد الذي لا يعروه انفصام ولا انحلال . وما دام هو باقياً هنا في الجسد فاني أشعر بوجوب بقائي معه بقاءً سرياً اجلس فيه بجانبه كما اجلس الآن في كل مساء وان تكن نفسي حينئذ في العالم الآخر . وبعد ما يتوفاه الله نكون معاً كما كنا على الارض متمتعين بمحبة احدنا للآخر كما تمتعنا هـذه السنة وانما على منوال أوفى واتمّ واشمل واعمّ واطهر واحكم . ولكن في أثناء ذلك بينما يكون

جسدي محجوباً عنه ولا تستطيع عيني ان تراه ليكن كل ماعندي له حتى يأتي ذلك الصباح ويصبح كل شيء روحياً (١) »

وقد ورد الى زوجها كتب تعزية كثيرة افضلها الكتاب الآتي وهو من المستر غلادستن الوزير الانكليزي المشهور

« هواردن كاسل في ٢٧ ابريل سنة ١٨٨٦

« عزيزي الفرد

« من الجسارة والفضول ان يحاول المرء توجيه الكلام اليك حين يرى عقلك وقلبك مقدساً يخاطبك الله فيه بكلمات فائقة في شدة تأثيرها وخطارة شأنها. وحقاً ان قليلين من الناس يختارون لتلقي مثل هذه الدروس التي تتعلمها أنت الآن . واذا كانت البلايا التي اصابت الرسل والقديسين والشهداء قد نشأت عن محبة عجيبة فنصيبك الآن وأنت في ربيع حياتك مشابه لنصيبهم . وستبقى ما حييت حاملاً سمات تضحية عظيمة قضت بها عناية الله عليك وستنال عليها اجراً عظيماً ورفعة شأن اعظم. فانتما الاثنين اللذين لا يزالان واحداً لقد طالما اشار اليكما الذين عرفوكما وعدّوكما أشدّ جميع من في لندن دلالة على موعد وفائدة الحياة

---

(١) بقي من هذه الوصية بيان ماأوصت به لورا لطفلها وزوجها وانسبائها واصدقائها مما عندها من الحلي والجواهر والتحف والكتب وغيرها

الحاضرة والمستقبلة. ويخيل اليّ ان دعوتك لتقديم الشكر كانت اعظم من دعوة غيرك وما اظنك تحسبها صغرت الآن . ولله ما اعظم هذه الحقيقة وهي ان فقيدتك عاشت حياة قصيرة ولكنها شغلت فيها وقتاً طويلا وفراغاً كبيراً . واذا قيست الحياة بالنشاط الحيويّ كانت حياة لورا طويلة جداً . ومع ذلك كانت فيها بترقية قواها العقلية وطهارة نفسها ونقاوة سيرتها من أولئك الاولاد الذين لمثلهم ملكوت السموات . انها لسوف تبقى لك في حياتك كلها خير كنز ثمين وذخر كريم. وان الله سبحانه وتعالى باعطائها لك واخذها منك طبعك بخاتم غايته طبعاً خصوصياً . اذاً لنستودعها بملء الاخلاص نعم وبملء المسرة سلام الله ورحمته . وارجو ان تنوب عني بتقديم تعزيتي القلبية للسر تشارلس واللادي تنذت ودمت لشريكك في الحزن

و . ا . غلادستون»

الفصل الثالث

بعد وفاة لورا قضيت جانباً كبيرا من وقتي في شرق لندن. وفي ذات يوم جوّلتُ في أحد احياء الفقراء في هوتيشابل فرأيتُ معملاً كبيرا وبنات كثيرات يدخلن اليه ويخرجن منه. ولما قرأت اسم «كليفوردس» على بابه دخلت وسألت عاملاً عن مكتب صاحب المعمل فدلني عليه. فقرعت الباب ودخلت فوجدت المستر كليفوردس جالسا على كرسي خشن قاس في غرفة عارية امام مكتبة بسيطة وهو رجل كبير الوجه أحمره. فالتفت اليّ عند ما اغلقتُ الباب لكنه ظل يكتب. فسألته هل يأذن لي ان ازور معمله مرة او مرتين في الاسبوع واكلم العاملات فيه. فالقى القلم من يده وقال. —

«أيُّ خير ترتجين حصوله أيتها الآنسة من كلامك للعاملات؟»

فاجبته: «هب اني لم اتمكن من الافادة والنفع فهل تظن اني اضرّ»

«بلا ريب»

«وكيف؟»

«تحملينهن على تعوُّد الهذر وكثرة الكلام والتأخر عن

الحضور والتقصير في العمل . افتظنين ان بناتي شريرات وانت قادرة على اصلاح سيرتهن واسعاد نفوسهن ؟ »

« كلا ليس هذا مرادي • لاني انا تفسي شقية جداً »

« ذلك أمر آخر . وان كنت قد جئتِ تلتمسين مني اسداء معروف فسأنظر فيه »

« هذا ما جئت لاجله . واني اقسم لك اني لا اجتمع ببناتك الا في فترة الغداء . واذا اتفق اني حضرت قبل الوقت المعين فسأجتنب كل ما يفضي الى انقطاعهنّ عن العمل وقد يكون رفضهنّ للاستماع لي اكثر احتمالاً من انقطاعهن عن العمل ليصغين الى كلامي »

« ربما ! »

وعلى هذا اتفقنا . فصافحني ولم يسألني قطُّ عن اسمي وواظبت على زيارة معمله ثلاث مرات في الاسبوع مدة ثماني السنين التي قضيتها في لندن [حتى تزوجت سنة ١٨٩٤]

وكنت قد عرفت شرق لندن قبل الآن حين أنشأت فيه أنا ولورا ملجأ لاولاد الفقراء واضطررت ان اطوف في كثير من أحياء البائسين هناك . فافدت واستفدت بزيارة الفقراء اكثر جداً مما حصلت عليه بزيارة الاغنياء . ولم يكن عندي هذه المرة شيء جديد في هوتيشابل سوى صاحب المعمل

كان في معمله نحو خمسين عاملة مختلفات في السن . فمن ابنة

ستين الى ابنة ست عشرة وكلهنّ يقسن ويقطعن ويغرين الورق المقوّى والورق الاعتيادي معاً . ولما دخلتُ اليه أول مرة وجدتهن مكبات على هذه الاعمال ولم ترفع واحدة منهن رأسها لتنظر اليّ

فصعدت الى دكةٍ من خشب وعلقت صورة لورا . فنظرت اليها احدى العاملات وقالت لرفيقتها : — « انظري ما اجمل هذه الصورة ! »

ولاحظت ان بعض البنات انقطعن عن العمل فوقفت وقلت لهنّ اني بعدعشر دقائق اكلمهن حين ينصرفن الى الغداء . ولكن لا يصح ان ينقطعن عن العمل قبل ذلك . فاطعنني ولم يخالفن قولي . وبعد عشر دقائق دهشت اذ رأيت اكثرهن خرجن . فسألت عنهن فقيل لي ان بعضهن ذهبن الى حيث يقف العمال الذين يرزمون مصنوعات المعمل وبعضهن ذهبن الى خمارة وراءهُ

اما اللواتي بقين في المعمل في فترة الغداء — وكنّ قليلات جداً — فسررن من اجتماعي بهنّ وكلامي لهنّ وصرن فيما بعد صديقاتي ولاسيما واحدة منهن اسمها فيبي هويتمن وكانت على جانب من الجمال والملاحة . وفي ذات يوم طلبت اليها ان تأخذني معها الى الخمارة حيث تتغدى هي كل يوم لاني كنتُ آتي بطعامي معي ولا أظنّ ان أصحاب الخمارة يأبون عليّ ان اتناوله عندهم مع كأس بيرا . فقلقت صديقاتي لهذا الطلب لانهنّ خفن عليّ

عاقبة دخولي بين السكارى . لكنني قلت لهن انني جئتهن بكتاب لكي يطالعنه ويقرأن فيه بعضهن لبعض في أثناء غيابي عنهن

وكانت هذه الخمارة في أقذر بقعة من هويتشابل . فدخلتها مع فيبي وجلست في احدى زواياها اتناول طعامي وادخن سيجارتي لا يلاحظني أحد لان الزحام كان شديدا . وبابها غاص بالاولاد الداخلين والخارجين وهم يصيحون باعلى اصواتهم طالبين اشربة يحملونها في اباريق . فراعني ذلك وازعجني الى الغاية . وخرجت الى الشارع في اثر فتاة صغيرة تحمل ابريقاً ورأيتها تناوله لحوذي مسرورة بالحلوان [البخشيش] . وفي رجوعي الى الخمارة سمعت صخباً شديدا واصوات خصام ونزاع . فان واحدا من الذين لعبت سورة السكر برؤوسهم حاول ان ينزع زهرة برنيطة فيبي فانبرى له فتى وثناه عن عزمه ونشب بينهما النزاع وهب الباقون يدفعون بعضهم بعضاً . ولم يجدِ انتهار صاحب الخمارة نفعاً في تسكين هياجهم بل قابلوه بالشتائم واللعنات وقالوا انهم يدافعون عن فيبي . واذ خفت انها تصاب بمكروه او تعاق عن الرجوع الى المعمل في الوقت المعين فاخلف وعدي للمستر كليفوردس استعنت باحد عمال الحزم في المعمل الذي اتفق انه كان واقفا هناك واخترقنا صفوف المتخاصمين واخرجنا فيبي من بينهم . ثم رجعت بها الى المعمل وطلبت اليها ان تعتذر الى مديره عن تأخرها ورجعتُ الى بيتي في غرووفنر سكوير والتعب آخذ مني كل مأخذ

وفي صيف كل سنة كنت استأجر مركبات واذهب فيها بالبنات الى خارج لندن فيقضين معي يوماً كاملاً في التنزُّه والاستراحة من عناء الاشغال الشاقة التي كنَّ يقمن بها في المعمل وفي هذه المدة الطويلة التي قضيتها معهن لم ادع قط واحدة منهن تعرف ما هو اسمي ولا أين أسكن حتى قرأن عني بعد ثماني سنين في الصحف المصورة في وقت زواجي

وكنت كلما غادرت طرف لندن الشرقي اذهب الى طرفها الغربي واجول في الاسواق متفرجة على ما يعرض هنالك في المخازن • ففي ذات يوم كنتُ واقفة امام مخزن مكميشال انظر بعين الاعجاب الى صورة شقيقتي شارلوت المعروضة هناك . واذا بخادم أحد البيوتات قد رفع يده الى قبعته والتمس ان اكلم سيدته في المركبة فالتفتُّ فرأيت دوقة منشستر (١) ولما كنتُ لم اكلمها قط في حياتي لم أدر ماذا أرادت مني . وبعد ما صافحتها قالت : —

« تعالي يا عزيزتي لا يسعني ان أراك هكذا حزينة . تعالي رافقيني فنتنزه معاً . ثم ترجعين لتناول الشاي معي »

فذهبت معها وسارت بنا المركبة حول « هيدبارك » ثم صحبتها الى غرفة الاستراحة الملاصقة لغرفة نومها في شارع « جريت ستانهوب » حيث تناولنا الشاي — وفي اثناء ذلك

---

(٢) المعروفة فيما بعد بالمرحومة دوقة ديفونشير

جاءت الملكة الكسندرا — وكانت حينئذ البرنسس أوف ويلس — لتزور الدوقة . فدخلت غير معلنة قدومها وقبّلت مضيفتها .

فلما وقعت عيناي عليها خفق قلبي من شدة اعجابي بمنظرها فقد وجدت جمال تقاطيعها وحسن ملامحها ونباهة شأنها تفوق جداً ما شاهدته في غيرها من السيدات اللواتي رأيتهن في حياتي وكان ذلك أول اجتماعي بها وسوف ابقى متذكرة له ما حييت

ولما دخلت البرنسس أوف ويلس نهضتُ عازمة على الذهاب لكنّ الدوقة أبت ذلك عليّ وقدمتني الى البرنسس وكلتاهما الحتا عليّ بالبقاء لتناول الشاي معهما . فبقيت والسرور مالىء قلبي وجلستُ اتأمّل البرنسس وفنجان الشاي في يدي والدهشة آخذة مني كل مأخذ

وفي الملكة الكسندرا من الدعة ورقة الشعور والاخلاص وانشراح الصدر وحسن التناول ما قلما يتفق وجوده في غيرها من أعضاء الاسرة المالكة . ومن ذلك اليوم أشرب قلبي حبها ولم اتحوّل عنه قط

وكان الملك ادورد ممتازاً بملامحه الجذّابة وشخصيته الشائقة ونفوذه الرائع . فكان أسرع من الملك جورج تأثراً وأشد منه ميلاً الى اغتنام فرص المسرات . وكان بيده وبيد الملكة الكسندرا — قبلما ارتقيا الى العرش — زمام قيادة الهيئة الاجتماعية في لندن فكانا يمليان على اعضائها ما يجب ان يفعلوه

وما ينبغي ان يجتنبوه

يختلف الناس في آرائهم من جهة الوظيفة التي يؤديها الملك ولكن مما لا ريب فيه انها من أنفس وأهم مايشتمل عليه دستورنا فكما ان محافظ المدينة يمثل التجارة ورئيس الوزارة يمثل الحكومة ومجلس النواب يمثل الامة هكذا الملك يمثل الهيئة الاجتماعية . قال فولتير اننا نحن معاشر الانكليز قد أصبنا كل الاصابة اذ منعنا الملك بقوة الشريعة عن فعل غير ما هو صالح ونافع وهو قول حسن في ظاهره ولكننا كلنا نعلم ان الشرائع لا تمنع الناس عن ارتكاب الاذى وفعل الشر

كان الملكان اللذان عرفتهما على جانب عظيم من الشجاعة الجسدية والادبية وكلاهما أظهرا من الشعور الحقيقي بالواجب مالم يظهره أحد غيرهما من أصحاب العروش والتيجان . وهذا ما وطد عرشهما وصان مكانتهما . ومما لا يصحّ السكوت عنه انهما اكتسبا بصدقهما وبساطة قلبيهما محبة لونها لا يحول وظلها لا يزول

وكنتُ قدسبقت وتعرفت بالبرنس أوف ويلس قبلما تعرفت بالبرنسس . واصبحت من ذلك الحين أدعى لحضور مراقص الكبراء والعظماء فاذهب بلا تحفظ ولا احتراز . على انني علمت فيما بعد انني كنت عرضة للوم والانتقاد من كثيرين

وحدث ذات يوم اني كنتُ اتناول الطعام مع صديقي القديم جودفري وب في بيته بشارع فكتوريا . فارسل ابي يسألني هل

اصحبه للعشاءعند اللوردواللادي روندولف تشرشل حيث دعينا لمقابلة البرنس أوف ويلس . فاجبته بالقبول وذهبنا

وكنتُ قد سبقتُ وتعرفتُ باللورد روندولف قبل الآن ببضعة أيام اذ اتفق لي ان جلست بجانبه على مأدبة فخمة فاخرة ولكنه لما رأى انه جالس تلو آنسة أسند كوع يده اليسرى الى المائدة بملء العزم والرسوخ وادار ظهره اليّ . فلم يسعني الا الاعجاب باسلوب تناوله الاطعمة بيد واحدة . أخيرا التفت اليّ وسألني هل أعرف أحدا من رجال السياسة . فأجبته ان لي معرفة تامة بهم كلهم ما عداه . فادهشه ذلك . وبعدما تحدثنا عن اللورد روزبري الذي كان يجله ويعجب به سألني : — « هل تعرفين اللورد سلسبري ؟ » فقلتُ لا ولكني أودّ ان اتعرف به . فقال انه من كل قلبه يسمح لي بنصيبه من معرفته ثم استطرد سائلاً : — « ولماذا ترومين التعرف به ؟ » قلت : — « لانه كاتب كبير ومحدّث لا يُملّ حديثه » فقال « ليتني لم اعرفه قط ! » قلت : « اخاف ان تكون محمولا على هذا القول من قبل حدة المزاج لا من قبل اقتناع العقل » . فتحوّل كله نحوي ورمقني بعين الغيظ وقال : —

« من أنبأكِ عني واطلعكِ على اقتناعي العقلي ؟ اني اكره سلسبري كرهاً شديدا لانه لما استقلتُ وثب الى منصبي وثوب لكلب الى العظمة : والمحافظون معروفون بالكنود وانكار

الجميل وقصر النظر . أرجو ان تكوني من حزب الاحرار ؟ »

فاجبتهُ اني لكذلك وواصلتُ الحديث معه الى نهاية وقت المأدبة وحينئذ سألني عن اسمي . فأوضحتُ له انني بعد ما لقيته من سوء تصرفه معي في مبتدإِ الاجتماع افضل ان نفترق غريبين لا يعرف أحدنا الآخر . ولكننا ما ابطأنا ان تعارفنا وتصادقنا ووعدني ان يزورني في غروفنر سكوير

اما في حفلة العشاء التي دُعيتْ اليها انا وأبي فكنت لابسة قسطاناً من حرير ابيض ذا كمين شفافين وعلى كتفي وشاح مزدان بطاقة ورد وثلاثة احجار الماس أهداها اليّ صديقي اللورد كرميكل صديقنا وجارنا في بيلشير

فلما وصلتْ وجدتُ جميع السيدات لابسات ملابس الرقص الرسمية فوددت لو اني سبقتُ وجاريتهنّ في ذلك . وكان البرنس أوف ويلس لم يأت بعد . واذ كانت اللادي تشرشل مشغولة بملاحظة فرقة الموسيقى دخلتْ مع أبي ولاحظت ان بعض السيدات ينظرن الى لباسي . ولما كنت حادة السمع طرق أذني قول إحداهنّ — « انظري الى الآنسة تننت ! انها قادمة بلباس السهرة الاعتيادي ! كان ينقصها ان ترخى شعرها تكملة لزيها الغريب ! » وقالت سيدة أخرى ولكن بلهجة العطف والرفق : «أظنها لم تعلم ان ولي العهد قادم . مسكينة . ياللعيب ! »

واذ ذاك اقبلت المضيفة ترحب بنا هاشة باشة . فخفف عني

حسن استقبالها ثقل وطأة الحيرة والارتباك . وفيما هي تحادثنا جاء ولي العهد فخفّت كل سيدة للقيام بواجب التعظيم والاكرام وانقطعن عن الكلام . اما هو فتقدم نحوي وطلب ان اجلس بجانبه على مائدة العشاء فقلت له حانية رأسي بما يليق من الاحترام ومتكلمة بصوت يسمعه جميع الحاضرين والحاضرات : —

« ان لباسي يا صاحب السمو لا يليق بحفلة فخمة كهذه . وخير لي ان انصرف منها . ولم أعلم من قبل انها ستكون من الحفلات الرسمية . . . . . واخاف ان بعض السيدات هنا يزعمن اني استهنت بهن بمجيئي في لباس سهرة اعتيادية . »

وقد لاحظت ان كلاً من الحاضرين نشر اذنيه ليسمع جواب البرنس ولكن اتفق ان اللورد هرتنتن (١) تقدم ودناني للجلوس بجانبه على المائدة فازداد اسفي على عدم مجيئي بلباس الرقص الرسمي لاني أصبحت الآن مرمى انظار الغيرة والاستغراب

وفي اثناء جلوسي على المائدة مكنتني الاحاديث التي احسنت انتقاءها وأحكمتُ سردها على مسمعي الملك ادورد ودوق اوف ديفونشير من توثيق عرى الصداقة معهما . ومما قاله لي وليّ العهد ان أيام حداثته كانت خالية من مظاهر المسرة والابتهاج لان وفاة والده البرنس كونسرت أثرت جداً في والدته الملكة فكتوريا

(١) المرحوم الدوق اوف ديفونشير

فطالت عليه مدة الحداد والانبعاث في الحزن والاسى . وكان يرجو اني اذا لقيتُ أمه الملكة لا أخافها — كما خافها كل واحد ما عدا جون برون — قال هذا مبتسما ابتسامة شائقة . فاجبته بصراحة وحسن نية اني لا أخاف أحداً

وبعد الفراغ من تناول الطعام اعتذرت لسموه عن عدم امكاني ان ابقى للاشتراك في الرقص خوفاً من ان يتضايق أبي من طول مكثي ولاني لست بلابسة لباس الرقص . وبعد ما قدمت ابي اليه حييناهُ وانصرفنا

ولما انتهى فصل الاقامة في لندن رجعنا كلنا الى « غلن »



الفصل الرابع

أخذتُ عن المعلمات اللواتي استخدمتهنّ أمي لتعليمنا في البيت مبادىء العلوم وتدبير المنزل والتاريخ القديم والحديث والالمام باللغتين الفرنساوية والالمانية . ونلتُ قسطاً كبيراً من معرفة فنون اللغة الانكليزية وآدابها . ولكنّ الاختبار أرانا ان استخدام أولئك المعلمات أو المربيات لم يأت بالنتيجة المطلوبة . ولذلك عزمت والدتي بعد زواج شقيقتي لوسي ان ترسلني انا ولورا الى المدرسة

وكانت « منسي » — وهي سيدة فرنسوية سيئة الخلق حادة الذهن — قد أنشأت مدرسة عالية في غلوستر كرسنت لاكمال دروس اثنتي عشرة فتاة . وكان أبي شديد الكره والنفور من مدارس البنات . ولو أمكنه الاطلاع على عيوب هذه المدارس ومساوئها في الوقت الحاضر لرأى ان كرهه لها كان في محله . ولكن لما كنتُ أنا ولورا مزمعتين على الاقامة في مدرسة السيدة منسي وقتاً قصيراً لا يتعدى بضعة أشهر لم يعارض في ذهابنا اليها

وكان بناء هذه المدرسة — رقم ٧ غلوستر كرسنت قائماً على جانب خط سكة حديد الغرب . فكان خوار الثيران وثغاء الغنم وصفير البخار — هذه الاصوات المتواصلة كانت تكدّر

ضفاء راحتي ليلاً وتحرمني التمتع بلذة النرم . فكان سريري شبيهاً بارجوحة يروح ويجيء مهتزاً بقوة الارتجاج الناشئة عن سرعة مسير القطارات الضخام الثقال بين ساعة وأخرى من ساعات الليل . هذه المكاره كلها مع سخافة الطعام الذي كنا نتناوله كان اعظم مما تستطيع لورا احتماله . فأطاعت أبي عليها وانذرته بأن بقاءها في هذه المدرسة اكثر من اسبوع واحد يعرّض صحتها لخطر الاعتلال . وقد ساءني فراقها ولكنني تسليت بان أذن لي في التنزه ثلاث مرات في الاسبوع اخرج فيها لركوب الزوارق

وكان من عادة السيدة مدني ان تأبى علينا محاجّتها في شيء ولما ابلغتني ذلك قلتُ لها معترضة : —

« ولكن كيف يمكننا ان نستفيد شيئاً ؟ . لا أعلم مبلغ ما تعرفه رفيقاتي . أما أنا نفسي فلا أعرف شيئاً سوى ما اقرأه . فكيف أستطيع ان اتعلم عن غير طريق الاسئلة ؟ »

فاجابتني : « أظنكِ أخطأت مرادي . فاني لا امنعكِ ان تسأليني . ولكني لا اسمح لكِ ان تحاجيني وتجادليني »

فقلتُ لها بجد واهتمام : « ولكن المحاجة والمجادلة هما منشأ اللذة والرغبة في الدروس »

فاجابتني بحدة وشدّة : « سدّي فاك ! »

ولا يخفى انه من الخرق والطيش ان تنتهر معلمةٌ تلميذةً مثلي

سنها ١٧ سنة . ولذلك رأيتُ انه لا فائدة من محاولة الاهتمام باستمالة قلبها نحوي او اقناع نفسي بالميل اليها

كنا اثنتي عشرة فتاة . ولم يكن بيننا من امتازت بشدة حذقها وذكائها ولكننا احببنا بعضنا بعضاً وكن كلهن يعترفن لي بالشجاعة والاقدام وينظرن اليَّ كزعيمة لهن . وكانت السيدة منسي شديدة الاعتداد بنفسها والتصلب في رأيها والتسرع في حكمها. فاذا انقلبت زجاجة حبر مثلاً واصاب رشاش منها جلد كتاب مَّا لم تتأن حتى تتحقق مَن فعلت ذلك بل عمدت على الفور الى الاخذ بخناق أول فتاة يسبق ظنها الى اتهامها وامطرتها وابلا مدراراً من التبكيت اللاذع والتوبيخ القارص . وهذا ما كان يغيظني بل يضرم فيَّ نار السخط والحنق

فحدث ذات يوم ان الحبر اندفق من زجاجة فاتهمت السيدة منسي فتاة لم تكن بالحقيقة هي الفاعلة وبالغت في زجرها وانتهارها. وحينئذ فرغ معين صبري ولم يبق لي طاقة على احتمال هـذا الافتئات . فاجتمعت بالفتاة المتهمة زوراً وكان اسمها سارة وقلت لها والغيظ ملء جوانحي : —

« أالى هذا الحد يبلغ منك الجبن أيتها الحمقاء حتى تخافي ان تعلني براءتكِ وتقولي لها انك لست أنت المذنبة ؟ » . فاجابتني ويدها على صدرها كأنها تحاول ان تُسكن تنهدات قلبها : — « لا فائدة من محاولة التنصل والدفاع ! لانها لا تسمع ولا تصدق . »

فقلتُ: « اذاً سأذهب اليها مملنة احتجاجي واعتراضي على هذا الامر . أما أنت فاذهبي الى البنات وألحي عليهن ان يعضدنني ويشددن أزري . حقاً انها فاقدة الشعور والاحساس . ولا ادري لماذا تخافها البنات هذا الخوف الشديد »

فاجابتني سارة : — « نخافها لانها صخابة شتامة . وهي فوق ذلك مغتابة نمامة . واذا رأيتها تحاسنكِ وتصانعكِ فذلك لانها تخاف ان تغضبي وتتركيها وهي حريصة أشدّ الحرص على بقائكِ في مدرستها . وقد قالت لنا ان اباكِ سيرقى الى رتبة لورد ويقترن السر تشارلس ذلك باختكِ لورا »

وكان مجرّد الافتكار في اقتران هـذا الدعيّ المغرور باختي لورا كافياً لازعاجي فقلتُ لها : — « أهكذا قالت لـكنّ ؟ حقاً انها لا تحتمل ؟ ولسوف اذهب اليها واوقفها عند حدها . بشرط ان تقفي أنت وبقية البنات في جانبي »

ثم دخلتُ غرفتي وبحثتُ في خزانة ثيابي فوجدت مئزراً [مريولا] ملطخاً بالوان الصباغ فلبسته وذهبت الى السيدة منسي وقلتُ لها : —

« أخاف انكِ تغتاظين جـداً . فاني أنا التي أراقت الحبر فتلطخ به جلد قاموسكِ . وكان يجب عليّ ان اخبركِ بذلك في وقته ولم يخطر قط ببالي ان واحدة منا تجرأ على تحمل توبيخك الشديد من غير ان تلتجأ الى الانكار . ومع هذا كله فاذا وجدت

ان في تصرّفي ما ينافي قوانين المدرسة أو يُعدُّ قدوة رديئة لغيري فانا مستعدة لترك المدرسة »

قلتُ هذا ورفعتُ نظري اليها فرأيتُ أجفانها ترفّ مضطربة فاستطردتْ قائلة :—

« أظنُّ انه كان من الصواب ان تسمعي كلام سارة قبلما تمعنين في تثريبها وتأنيبها »

فاجابتني ان كلامك هذا أزعجني ازعاجاً لا يطاق . ولم يخطر قط ببالي انك تبلغين هذا الحد من القحة والدناءة »

فقلت باشدّ لهجة من لهجات الغيظ والاحتجاج : « ليس في كلامي شيء مما قلت ! فمنذ بضع دقائق علمتُ بتحاملك المدهش وعلى الفور جئتك محتجة معترضة . واني كما سبقت وقلت لك مستعدة ان أترك المدرسة »

فاجابتني وقد شعرت بحرج موقفها معي : « ان سارة تصرّفت بشجاعة نادرة المثال . وهذا ما حملني الآن على المساهلة وترك التشديد . واني معجبة بصراحتك . فلك ان تذهبي الى رفيقاتك اذ قد انتهى الاشكال »

وهكذا اسلمها الرب الى يدي

وفي عصر أحد الايام ذهبت معلمتنا لتحضر افتتاح البرنسس كرستشن لسوق خيرية . فوقفت على شرفة غرفة الدرس التي تطل على خط سكة الحديد واخذتُ ادخن سيجارتي ومعي ايثل بريدسن

اجل تلميذة بيننا . فقالت لي بعد ما طال وقوفنا : —

« حان الوقت . فلندخل ونستعدّ لدروسنا . ذلك خير من التعرض لمشاهدة احد لك والسيجارة في فمك »

فانحنيت على الشرفة ونفختُ الدخان من فمي في الهواء محاولة عقده حلقات تتصاعد فيه متصلة بعضها ببعض . ولما أعياني ذلك وخبت في ما حاولته اشرتُ الى الجوّ مقبلة له يدي على سبيل المزاح ولعنتُ المدرسة وتمنيت لو امكنني ان أعود الى بيتنا في غان واغادر غاوسستر كرسنت الى الابد

واذا برفيقتي ايثل تجذبني بذيل ثوبي صارخة : « مرغو مرغو . كفي عن تقبيل يدك . اولاً تنظرين ذلك الرجل ؟ »

فنظرت الى اسفل واذا بسائق قطار رافع نظره اليّ وهو يقبل يده لي . فتمطلتُ على الشرفة وقبلتُ كلتا يديّ له ودخلت غرفة الدرس

وكان بيانو المدرسة موضوعاً بجانب باب الشرفة التي وقفنا فيها . وفي صباح اليوم التالي جلست ايثل الى البيانو تعدّ درسها في الموسيقى . ويظهر ان صاحبنا سائق القطار أخذ يقبل يده لها على مرأى السيدة مذي التي اتفق انها كانت وقتئذ واقفة في باب الشرفة

وكنتُ حينئذ جالسة في غرفة أخرى ادرس الموضوع المعين لي استعداداً للمسابقة الاخيرة في الالقاء . وقد سددت اذنيّ

عن سماع شيء آخر وانا أُعيد موضوع الانتقاء واقول بصوت جهير : « أيها الاصدقاء والرومان والمواطنون . أميلوا آذانكم اليّ . فقد جئت لدفن قيصر لا لتأبينه

وكانت البنات يجئن ويذهبن داخلات خارجات وانا غير ملاحظة شيئاً ولا منتبهة الى شيء . ولما قرع جرس الفطور القيتُ الكتاب من يدي ونزلت الى غرفة الطعام لاتناول فطوري . فوجدت مكان ايثل خالياً . ولم ترفع احدى البنات نظرها اليّ وكن كلهن يتناولن الطعام ساكتات كأن على رؤوسهن الطير . وكانت السيدة منسي مشغولة بابداء بعض ملاحظات تافهة جافة ثم تلت صلاة الشكر وانصرفت

فقلتُ لرفيقاتي : « ماذا حدث ؟ » فبقين صامتات ولم يجبن بكلمة . وبعد ما كررت السؤال والححت في الاستفهام والاستيضاح متهمة اياهن بالاتفاق على تجنبي ومقاطعتي قالت واحدة منهن : — « آه يا مرغو . ليس الامر كما توهمت . بل لان ايثل أبت ان تفشي السر وتعلن حقيقة الامر فنحن كلنا محكوم علينا اليوم بالعقاب . »

فصحت « ماذا ؟ عقاب عامّ ؟ وانا في منجاة منه : ما اسعد طالعي . ان هذا اول حكم دل على مبلغ عدالة السيدة منسي . كثيراً ما عوقبتُ عنكن كلكن فلا بأس اذا تحملتن العقاب عني هذه المرة . اين ايثل ؟ اجبن . ما بالكن ساكتات ؟ أجبن والا

غادرت المدرسة على الفور . »

ولما علمتُ ان السيدة منسي طردت ايثل في الحال عند ما رأت سائق القطار يقبل يده لها لم ابطىء ان ذهبتُ اليها واخبرتها بكل ما حدث فاجابتنى قائلة انني كذابة ولا يسعها ان تصدق كلمة واحدة مما قلته لها .

فقلتُ لها اني مطبوعة على الصدق ولكن اسرافها في معاقبة البنات ظلماً أنشأ فيهن خوفاً وحملهن على تعود الكذب . وقد شاركتهن فيه كما قاسمتهن العقابات الجائرة ثم خرجت من لدنها وغادرت المدرسة

ولما بلغت « غروفنسرسكوير » حيث نقيم في لندن قصصت على والديّ ما حدث وطلبت بالحاح ان اعود الى بيتنا في غان موضحاً لهما اني مللت الاقامة في لندن . ومن يولد في سكوتلند يشق عليه اتخاذ لندن موطناً له

ولكن لسوء الحظ عرض لابي شغل في ذلك الوقت اضطره الى البقاء في لندن . فانه كان اذ ذاك يفاوض اللورد جرارد في شراء بيته في «غرفنر سكوير » وانتهت المفاوضة بوقوع البيع على رغمي . على ان الشيء الوحيد الذي اعجبني فيه على الخصوص هو بوابة سوره الحديدية فاني كنت كلما اردت اطالة المكث مع اصدقائي بعد الخروج من حفلة رقص واعياني الحصول على مفتاح البوابة اتسلقها واثبة الى الداخل وأنا لابسة ثوب الرقص

ولا يخفى ما في الاقدام على عمل كهذا من الخطر على فتاة مثلي . لانها ان قصرت في الوثوب عاق ثوبها برأس أحد قضبان الحديد وكان في ذلك هلاكها . وان غفلت عن ملاحظة الوقت فقد يتفق ان احدى الخادمات تبكر في المجيء فتراها وفي ذلك ما فيه من العبث بصيتها . هذا وقلما تصلح فتاة لان تكون حكما على نفسها من جهة صيتها . اما انا فاقول ان البوابة كانت اعدل شاهد صامت على ما كان ينقصني حينئذ من الرصانة والرزانة

وقد طابت لابي السكنى في غيروفنر سكوير ولاسيما لانه احبّ ان يسهل عليّ الاجتماع بلورا والخروج معاً فابتاع البيت سنة ١٨٨١

وقلما اتفق لولد شاطر ان يلقى ما لقيته انا من الحفاوة والترحيب يوم غادرت ناحية سكة حديد الغرب . لكن بقيت مسألة اكمال تعليمي . وكنت قد عزمت ان أُرجيء ظهوري في الهيئة الاجتماعية الى ما بعد بلوغي السنة الثامنة عشرة

لم اتعرّف باحدى الفتيات ولم يكن لي صديقات سوى شقيقاتي فلم امل الى مطارحتهن الحديث عن شؤوني واجتنبت الافاضة في منقاشات تتحول الى هذر وهذيان . ولم اتعود الاقدام على كتابة رسائل ذات شأن عن نفسي . وكنتُ حينئذ كما أنا الآن اترفع بمزيد الاباء عن افشاء اسرار الحياة وشؤونها المثيرة للعواطف . يجب ان يظل الكتمان حارساً اميناً للنفوس فلا يأذن لغير ذوي

الرفق والعطف في الدخول الى حرمها . وهـذه صفات قلّ من وجدته متحلياً بها من صديقاتي واصدقائي . لا اذكر بينهم الآن من ازدانوا بهذه الاخلاق السامية سوى ابن عمي نان تننت وعقيلة ارثر ساسون وعقيلة جيمس روتشلد وانطون بيبسكو وابني وزوجي

وكان جون مورلي قـد نقش على افريز (١) موقده قول باكون البديع : « أشرف النفوس ارأفها »

ولما قرأت هذه الكلمات قلتُ أين ياترى استطيع ان أجـد تلك النفوس ؟ ولم أزل أردّد هـذا السؤال الى الآن . فلكي تـكون حنوناً أو رؤوفاً يجب ان تـكون شجاعاً . نعم تحتاج اشد الاحتياج الى بسالة كافية تمكنك من الاقدام على ان تناضـل وتـكافح دفاعاً عمن هم موضوع رحمتك وشفقتك . وعليك ان تشعر بالرفق وتبديه نحو جميع الناس . فلن تظفر بذي عاطفة يبديها عفواً مجرداً عن كل غرض ولوقضيت حياتك كلها في البحث عنه . ومهما يعظم مقدار الشفقة فهو اقل جدا من تفجعات الحياة

ان زوجي رجل ذو عاطفة خالية من الغرض . ففي ذات يوم حين كنتُ معه في باريس حيث ذهبنا لقضاء بضعة أيام رأيته جالساً ورأسه بين يديه واحدى الصحف على ركبته . فطوقته بذراعي وسألته هل من نبإٍ محزن فاشار الى ما كان يطالعه في

---

(١) افريز الموقد ما يحيط به من اعمدة ورفرف

الصحيفة عن النار التي شبت في « ايتن » ووصف ما عاناه الفتيان في تحطيم قضبان شبابيكهم للنجاة منها وموت بعضهم احتراقاً فقد افعمت هذه الفاجعة فؤاده حزناً واسفاً مع انه لم يعرف احدا في ايتن في ذلك الوقت. وكان يطالع النبأ والدموع تنهل من اجفانه والغم مالىء قلبه وحابس لسانه عن الكلام

وهذا الحنو نفسه شاهدته منه يوم غرق الباخرة « تيتنك » فاننا لما قرأنا انباء تلك الفاجعة العظيمة بلغ منا الحزن مبلغا افقدنا شهوة الطعام

ففي ايام صباي لم اتعرف باحد له مثل هذا الشعور وهذه المؤاساة . ولم يسع ابي وامي ان يتفرغا لسماع ما كنتُ اروم ان احدثهما به عن نفسي . فملتُ الى العزلة والانفراد ورغبت في اكمال ما بدأت به من تحصيل العلوم والمعارف. وبعد بحث طويل في هذا الموضوع قرّ الرأي على ن اذهب الى المانيا واقضي فيها اربعة او خمسة اشهر لتحقيق هذه الغاية . وهكذا سافرت الى درسدن وحدي لا يصحبني سوى وصيفة غبية مع اني كنت حينئذ معدودة — ان لم يكن في انكلترة فعلى الاقل في المانيا — اني على جانب من الحسن والجمال



الفصل الخامس

نزلتُ في درسدن عند سيدة اسمها فراو فون ماخ . كانت امها انكليزية . وقد جُنّ زوجها في حرب فرنسا وبروسيا وترك لها ثلاثة اولاد لا معين لهم سواها. فاضطرت ان تعولهم بما تحصله من دخل منزل اعدته في شارع لوتيخستراس لنزول الغرباء وتلقية الفنون الجميلة وغيرها من العلوم العالية التي كان لها فيها القدح المعلى والنصيب الاوفر . وكانت هي نفسها تعنى بشؤون الطبخ والكنس وتواصل العمل بلا ملال من الصباح الى المساء

وكان في المنزل ثلاثة عشر بيانو واثنان او ثلاثة من النازلين فيه مثلي نزولاً مستديما . واما الباقون ممن كانوا يأتون ويذهبون فكانوا رجالاً ونساءً وفتيانا من كل امة وجنس بعضهم من المولعين بالفنون [غواة] وبعضهم من الذين اتخذوها حرفة لهم. وكان شغلي يحول دون تفرغي لملاحظة القادمين والذاهبين

هذا واني اعدّ سماح والدتي لي الذهاب وحدي الى درسدن شجاعة مقرونة بالحزم وسعة الادراك . وهو امر حمدتها عليه ولكنني لم استطع مجاراتها فيه . لاني لما عزمت على ارسال ربيبتي(١) وابنتي لتكملة علومهما في المانيا بعثت معهما مربيتي

(١) ابنة زوجي

ومعلمتي الالمانية التي رجعت اليّ حين كانت اليصابات ابنة اربع سنوات وكانت على جانب عظيم من الذكاء وحسن السيرة

وعلى ذكر هذه المربية اقول ان صحفنا انتهزت فرصة القلق والرعب اللذين كانا مستوليين على الافكار في ايام الحرب الاولى العصبية الرهيبة واستخدمت تلك الفرصة للكسب والانتفاع بما آنسته في خواطر جمهور القراء من شدة الهياج [اعراض الهستيريا] فطفقت تنشر في اعمدتها انباء مكذوبة مصنوعة تلفقها تلفيقاً. فتحوز عند القراء قبولا وتصديقا ! وكان من تلك الاقاصيص المزورة والانباء الملفقة اتهام مربيتي الامينة بانها جاسوسة . ولم يبق من سمع بهذه التهمة السخيفة الا ضحك منها وهزىء بمخترعيها ومشيعيها . ولكن مع هذا كله نالوا بها ما ارادوه . وبعد ما صدّق الانكليز اشاعة مجيء الروس الى بلادهم واصبح كل واحد في انكلترة يدعي انه شاهدهم فيها ونثار الثلج يتساقط من ثيابهم رأى الصحافيون ان كل شيء يسهل تصديقه اذا تكرر نشره والتكلم عنه . وقد اصابوا . فان الاراجيف السافلة التي اذاعها اللاحون الكاشحون عن مربيتي صدّقها السذّج الاغبياء وانقضت انقضاض الصواعق على كل هلوع جبان. — « اذا رأى غير شيء ظنه رجلا »

كانت درسدن في أيامي تختلف جداً عما صارت اليه بعد عشرين سنة . فلم أر قط فيها رجلا انكليزياً . وبعد ما اقمت في

منزل السيدة فراو فون ماخ وضعت لنفسي خطة جريت عليها ولم انكب عنها . فكنت كل يوم استيقظ الساعة السادسة صباحاً واذهب الى المطبخ واتناول القهوة مع الخادمة . ثم اكب على درس الكمنجه اوالبيانو الى منتصف الساعة التاسعة . فاتناول الفطور واقضي سحابة يومي في التصوير وتحصيل علوم الادب وكنت اذهب وحدي كل ليلة الى حفلات الموسيقى أو الى الاوبرى

وفي احد الايام جاءتني فراو فون ماخ وعلى وجهها علامات القلق والاضطراب وفي يدها كتاب من والدتي تطلب اليها فيه ان ترفض قبول رجال في منزلها . لان اصدقاءها في انكلترة حذّروها من خطر فراري مع احد الغرباء . والى الآن لا اعلم أمازحة كانت أمي بقولها هذا ام جادة ؟ فكتبت اليها واخبرتها انه ليس في منزل السيدة فراو فون ماخ سوى نزيل واحد وهو اميركي طاعن في السن اسمه لورنج . ولم يكلمني قط . هذا فضلاً عن اني مشغولة جداً وغير متفرغة للافتكار في الفرار . وقد بُذِلت مساع عديدة لحملي على الرجوع الى انكلترة . لكنها كلها خابت ولم تجد فتيلا . وفي كتاباتي المتواصلة الى اهلي لم أشر قط اليها لاني عددتها مما لا يستحق ان يعنى به ويلتفت اليه

وفي ذات ليلة ذهبت الى الاوبرى فوصلتها قبل الوقت المعين للشروع في التمثيل . وكنت مرتدية ثوباً حريريا « كريب دي شين » قرمزي اللون ومزدانة بما عندي من اللآلىء . وفوق ثوبي الحريري

معطف اسود من جوخ متصل من اعلاه بقنعة كنت استخدمها في رجوعي الى المنزل لوقاية رأسي من المطر . فجلست في لوجي أجيل طرفي في الحضور من جهة الى جهة حتى وقع نظري في لوج مقابلي على ضابط لابس بذلة بيضاء . فلم اعلم الى اي جيش ينتمي لان بذلات الضباط السكسونيين زرقاء

وكان هذا الضابط شابا حسن الصورة جميل الطلعة . ولما التفت نحو المسرح استعنت على التحديق اليه بنظارتي فوجدته اجمل مما لاح لي من قبل . وكان معه في اللوج سيدة نزع عنها رداءها الخارجي وهي واقفة تنظر الى الجالسين على الكراسي وتنزع قفازيها الاسودين الطويلين . وهي بادية في حلة سوداء « دي كولتيه » فوقها وشاح مثقل بالحلى والجواهر يتدلى الى تحت خصرها . ورأيت معظم الحضور يصوبون نظاراتهم نحوها . وكان شعرها الاشقر معقوصاً على صدغيها بامشاط اسبانية مرصعة بالحلى. والحق يقال انها كانت اجمل امرأة شاهدتها في المانيا . وقد راعني حسنها حتى لم استطع تحويل نظري عنها . ثم اخذ الضابط يجيل نظره في الاوبرى الى ان استماله ثوبي الاحمر . فصوّب نظارته نحوي وعلى الفور رفعت نظارتي عن عينيّ . وعلى رغم خفض الانوار استعداداً للشروع في التمثيل رأيته يطيل التفرّس فيّ .

ولما انتهى تمثيل الفصل الاول غادرت اللوج لاقضي الفترة

في ردهة الاوبرى . فلقيت الضابط واقفاً في الممر مستنداً الى الحائط وهو يدخن سيجارة ويكلم صديقا له وقدماه في منتصف الممر . فلما رآني مقبلة اجتذب قدميه واستوى في موقفه ليوسع لي مجال المرور . فنظرت اليه والتقت عيناي عينيه فصبغت وجهي حمرة الخجل . وقلما سبقت لي عادة في ذلك . ثم غضضت طرفي وسرت في سبيلي

وكان الاوبرى في تلك الليلة غاصة بالحضور . ولما انتهى التمثيل خرجت، فاذا بالمطر يهطل غزيراً . فوقفت احاول الحصول على مركبة . ورأيت الضابط والسيدة التي معه لكنه لم يرني • وسمعته يوعز للحوذي الذي استقل مركبته ان يقف به امام احد الاندية

ولما اعياني الحصول على مركبة وضعت مقنعة ردائي على رأسي وسرت الى المنزل ماشية . واني لمنطلقة في الشارع الذي يؤدي الى لوختراس شعرت بخطوات تجري على اثري . وكانت الريح العاصفة قد ازاحت المقنعة عن رأسي فوقفت تحت مصباح لاردها وامكسها . ولما وقفت وقف الشخص الذي كان يسير ورائي فاستأنفت السير وهكذا فعل الساري خلفي . ولما كان الشارع مقفرا لم يبق لي من طاقة على احتمال هذا القلق • فالتفت الى الوراء واذا بالساري هو الضابط نفسه • فرأيت من تحت ردائه الاسود المرخى على كتفيه حلته البيضاء ومنطقته الفضية •

فحياني وسألني بفرنساوية بلجيكية غريبةهل آذنله ان يصحبني الى بيتي • فقلت له : — « لا مانع ! لكنني لست القى اقل انزعاج من مسيري وحدي » • ثم وقف تحت مصباح واشعل سيجارة وقال : — « الست متعبة ؟ اما انا فالى الغاية . » فاجبته:—«لا اشعر بأقل تعب على الاطلاق»•قال :— « هل تودين ان تصحبيني لتناول شيئاً من الطعام في احدى غرف الفندق ؟ » فاجبته : — « شكرا لك • لا اسعر باقل جوع • والوقت قد مضى وسنفترق هنا » قال : « لكنكِ اذنت لي ان اصحبكِ الى بيتكِ » فاجبته : — « نعم اذنت لك في ذلك • وهذا باب بيتي »

فلاحت عليه امارة التعجب والخيبة • لكنه تناول يدي وقبلها ثم حياني وقال ما ترجمته : « عفوا ايتها الآنسة »



الفصل السادس

عند ما ظهرتُ في لندن لم تكن لي معرفة بأناس كثيرين وقلما دعيتُ الى حفلات الرقص وكنتْ ميالة على الخصوص الى الركوب لحضور نوع من السباق فابتعت حصاناً اشهب ارقط متوسط الحجم سهل الانقياد وسميته «ططس». وكان في جراءته كالاسد وفي شدة زهوه كالطاووس . وفي ذات يوم ركبته قاصدة الذهاب الى السباق. وطال وقوفي امام بوّابة رقم ٤٠ جروفنر سكوير . فحدثتني نفسي ان ادخل بططس الى الردهة وادعوابي فعلوت به درجة واحدة من الرصيف الى مدخل الرواق ثم درجة أُخرى الى داخل الباب المفتوح على مصراعيه . وبعد ماتجاوزتُ به الدرجة الاخيرة وبلغت ردهة المرمر رأى ططس صورته في مرآة . فاجفل وعلى الفور انتصب واقفاً على رجليه . فاصابت برنيطتي الطويلة منارة بلورية معلقة فوق رأسي . وكانت الارض تحت قوائمه مصقولة صقالاً محكماً فزلقت رجلاه عليها وسقط بي عليها سقوطاً ارتج البيت من صوته كأنه هزيم الرعد وانطرح المهر فوقي وسقطت المنارة فوقه. ووقف ابي والخدّام ينظرون مدهوشين متحيرين . ولكنني على الفور نهضت واخذت بعنان ططس بعد ما كان قد رفس صندوقاً قديماً وغادره محطماً تحطيماً . وهذه

المجازفة هاجت غيظ ابي وآذت مهري وحبستني عن الرقص اياماً

اما ورطتي الثانية فكانت اخطر شأناً من هـذه . وذلك عند ما خطبت

وهنا اقول لكل فتاة يتفق لها ان تقرأ مذكراتي هذه وتود الوقوف على نصيحتي بعد اختباري الطويل : اذا عرض عليكِ شاب ان يقترن بكِ . وبعد ما رفضت طلبه تهدّدكِ بالانتحار فاعلمي يقيناً بانه على اكبر جانب من البله والحقارة والغرور . واذا كنت قبل تهديده بالانتحار في ريب من جهة عزمك على رفضه فلا يبقينّ عندك بعد تهديده اقل ريب على الاطلاق . ومن الحماقة التي لا حماقة بعدها ان تقترني بفتى لمجرد الرفق به والعطف عليه . واذا حدثتكِ نفسك بامكان اصلاح فتى من هذا النوع لانه « مسكين ولم تسنح له فرصة يصلح فيها شأنه ويقوم اعوجاجه » فانت غير مصيبة في ما تزعمين . نعم يمكن الاصلاح ولكن لذي الاخلاق . وربّ الحزم والعزم لا للضعيف المتردد . اما خطيبي فلم يكن من ذوي البله والغرور ولكنه كان كثير المجون والمزاح . ولم يحبني قط أحد قبله كما احبني هو . وكان بارعاً جداً في ركوب الخيل

ولما اخبرت امي بخطبته لي اخذ منها الغم كل مأخـذ وقالت لي وهي تمسح دموعها بمنديلها : — لا أعد خطبته لكِ اشرف من خطبة احد الخدم ! »

وقد بذلت غاية جهدي لاقنعها بخطاءها في حكمها عليه . فذهب اجتهادي باطلاً ولم يفد شيئاً . وبعد بضعة ايام اجتمعت به فعلمت منه انه كان في الاسبوع الماضي يجيء كل يوم لزيارتي فيقابله الخادم ويقول له اني لست في البيت . ولما رجعت الى البيت وانتهرت الخادم قال لي : « ان خطيبك يا سيدتي ممنوع من دخول البيت »

ممنوع من دخول البيت ! وعلى الفور اسرعت الى غرفة اختي شارلوت فوجدتها في غم يفوق غم والدتي . وقالت لي ان ما ابدته اختي لرمي من العناد والاصرار على الاقتران بمن اختارته لنفسها نغص عيشها وكدر صفاء حياتها . ثم الحت عليّ بملء المحبة والاخلاص ان اعدل عن عزمي هذا لان خطيبي لا يصلح لي بوجه من الوجوه

فطفقت اقوم واقعد من شدة غيظي واضطرابي . وقلت لها ان منعه من دخول البيت امر معيب وهو غاضّ من كرامتي في عيون الخدم . واذا اخلفت وعدي له فلا ريب في انه يقدم على الانتحار . فاجابتني : —

« كنت اظنك انت وخطيبك ارصن واعقل من الاخذ بمثل هذه السخافة » فقلت لها : — « ولكني اخاف ان اكون قد خدعته من جهة شعوري من نحوه . ومع شدة محبتي له لم اكن قط لاعده ان اقترن به لولا تهديده لي بانه سينتحر ان لم

اعده. فاذا اخلفت وعدي وانتحر قضيت حياتي كلها في البؤس والشقاء وحكمت على نفسي بجريمة قتلي له.

فنظرت اليّ شارلوت وعلى فمها ابتسامة الرفق والحنان وقالت لي: — «لو كنت انا في موقفك هذا لم اتأخر قط عن العمل بما اشرتُ عليك يا عزيزتي»

وبعد ما اطلت تفكري في هذا الامر رأيت من الصواب ان أعدل عن عزمي فاطلعت ذاك الشاب على الواقع واوضحت له بملء الاسف اني لا استطيع الاقتران به. فاعطاني فرسه الجميلة «مولي بون» وباع كل مقتنياته وسائر ما عنده من خيول الصيد وسافر الى استراليا. وبعد سنتين عاد الى انكلترا. فاذا بشعر رأسه كله مشتعل شيباً. وكنت قد سمعت بحوادث كثيرة يشيب هولها شعور الرؤوس ولكنني لم اعرف منها في حياتي سوى حادثتين. احداهما هذه والاخرى حادثة انفجار مرجل الدارعة ،،ثندرر،، [الرعادة] في سفرتها الاولى. وكانت عدتها اول شيء اوصت الحكومة بصنعه في مصنع ابي ،،همفريز وتننت،، فكان لها اسوأ وقع واشد تأثير. وقال لي ابي ان عدة رجال قتلوا وان شعر همفريز الفتى ابيضّ على الفور. وهذه الحادثة اتذكرها جيداً لاني لما اعطيت ابي التلغراف الوارد عنها وكان في غرفة ،،البلياردو،، في غلن غطى وجهه بيده وانطرح على متكإٍ والدموع تنهلُّ من عينيه

وحدث في نحو هذا الوقت ان السر وليم ملر صديق اسرتنا اقترح على والدي ان اقترن بابنه الاكبر وكان من خير الفتيان فقلت انه بالجهد رآني . وعلى رغم اعتراضي هذا دعانا السر وليم للاقامة عنده اياماً في مندرستن . فقبل ابي الدعوة بمزيد الارتياح

وفي مساء يوم وصولنا قال لي مضيفنا بلهجة سكوتلندية جزلة :—

"قولي لي يا مرغي [يريد مرغو اسمي] هل تقترنين بابني جم ؟" فاجبته :—

" ان ابنك جم ياعزيزي السر وليم لم يكلمني قط في حياته"

. فقال السر وليم : " انه خجول " . فاوضحت له ان الامر ليس كذلك . ومن الصواب ان يترك لابنه حرية الاختيار بنفسه الى ان قلت :—

« اراك ايها السر وليم مثل ابي تظن كل فتى يروم الزواج »

السر وليم ، « نعم كلهم يرومون اليس كذلك ؟ » [بمكر]

، من المحقق عندي انهم كلهم يرومون الاقتران بكِ »

مرغو [بدهاء] : « اصحيح ذلك ياترى ؟ »

السر ولم : « ان لم تقترني به يا مرغي كسرت ساقكِ ! »

مرغو ، اكسر ساقيّ كلتيهما »

ثم تعرفت بابنه فلم يعن بي ولا اعارني اقل التفات

وكان للسر ولي ابنتان ارادت احداهما واسمها « امي » ان

تقترن بضابط برتبة اميرالاي في ادنبرغ ولكن اباها عارض في ذلك اشد معارضة مسفهاً رأيها ومكدراً صفاء عيشها. وقد خلت بي في احدى غرف البيت المعدة للدرس وكان الوقت الاصيل والباب مفتوحاً الى نصفه والنور ساطعاً في المدخل. فاخذت أمي نقص عليّ قصتها وتستشيرني في امرها. ثم نظرت واذا بالسروليم واقف وراء الباب يوصوص الينا ويسترق سمع حديثنا. وكان على ضخامة جسمه قد ضغط نفسه ضغطاً عنيفاً حتى تمكن من التقاص والحلول في ذلك الموقف الضيق. وكانت «أمي» قد افتتحت الكلام ولخصت لي علاقتها بالضابط فتجاذبنا الحديث على النمط الآتي

أمي: «فما ذكرته لك ترين ان العقبة الوحيدة في سبيله هي كونه ليس غنياً»

مرغو: «لا بأس. ستصبحين انت غنية يوماً ما. ولااعلم لماذا لا يجوز ان تقترن الغنيات الا بالاغنياء! اما انا فان اقترن الا بمن اريد. وابي ينظر في تدبير المال»

امي. «انه يحبني محبة لا توصف! ويقول انه سيقتل نفسه ان تركته»

مرغو [بشدة]: «اذا كان الامر كما ذكرت وكان صاحبك هكذا شجاعاً فليس امامكما سوى امر واحد!»

امي [منحنية نحوي ويداها متعارضتان على صدرها] «قولي

لي ما هو . بعيشك قولي لي ! ! »

مرغو : « اواثقة انتِ كل الثقة بانه رجــل عزم واقدام ؟ ولا يبالي بكلام الناس ؟ »

امي : « لا . لا ! نعم . نعم ! انه مستعد ان يموت لاجلي ولا يرهب جانب احد ! »

مرغو : [مبالغة في اغرائها] « اظنه يخاف اباكِ جداً

امي (بتردد) : « ان ابي يعامله بخشونة لا مزيد عليها »

مرغو (باحتقار) : « اذا كان صاحبك يخاف اباك فهو غير جدير بان تعني به وتلتفتي اليه ! »

امي (بهياج وحدة) : « انه لا يخاف احداً . ولـكن ابي لا يكلمه »

مرغو (بتأمل شديد) : « اذاً سبيلـكما الوحيد الفرار . »

(حركة هياج وراء الباب)

امي (بعزم وثبات) : « اذا اقدم على ذلك وافقته عليه . ولـكن آه ياعزيزتي . . . ماذا يقول الناس ؟ »

مرغو (بلين) : « اذا اكترثتِ لـكلام الناس عشتِ منغصة في حياتك كلها . »

امي : « ولكن اخاف ان ينفجر بركان غيظ ابي ويقذف حمم الشتائم واللعنات . »

مرغو : « اني اعرف اباك جيداً فما اظنه يعير هـذا الامر

اقل اهتمام . »

ثم نهضتُ متجهة نحو الباب وكان قد ارتفع صوت ضجيج في الدهليز . فنهضت امي مذعورة وقالت : « ما هذا الصوت ؟ هل تظنين ان بعضهم سمع حديثنا ؟ لنغلق الباب »

مرغو : « لا . ليبق كما كان . فان الحر شديد »

امي (وقد زال روعها واستأنفت الجلوس) « : انك نعم الفتاة .... يجب عليّ ان اتدبر ما قلته لي » .

مرغو: «قولي لصاحبك اني اعرف أباك جيداً وهو مولع بي »

امي : « نعم . انه لكذلك . وقد سمعته يعرض على ابيكِ ان تقترني باخي واقترن انا او اختي بواحد من اخوتك على سبيل المقايضة »

مرغو : « انما قال ذلك مازحاً . فهو يحبكِ . ويعجبه مني عزمي واقدامي . لانه يتعشق الشجاعة ويعجب اشد الاعجاب بكل باسل مقدام . فاذا كان لصاحبكِ بسالة كافية للاقدام على الذهاب بكِ الى ادنبرغ وامضاء عقد زواجكما في مكتب التسجيل والرجوع الى ابيكِ في اليوم نفسه ليخبره بما حدث فانه بلا اقل ريب يصفح عن كل شيء ويجود عليكما بهبة وافية تمكنكما من ان تعيشا ناعمي البال .... والآن يا عزيزتي امي ينبغي ان اذهب فتشجعي وتغلبي على اليأس بالامل . »

ولما فتحت الباب لم اجد احداً في الدهليز . فنزلت الى الطبقة

السفلى ووجدت السر وليم يكتب في الردهة . فلما رآني القى القلم من يده ونهض لاستقبالي وقال : —

„ هل تصحبيني يا مرغي فنتمشى في الحديقة ؟„

مرغي : „ نعم بشرط ان نجلس و نتحدث قليلاً „

السر وليم (مسروراً) : « اتودّين الجلوس في المصيف ؟ »

مرغي : „ نعم فانتظرني حتى اصعد وآتي ببرنيطتي „

ولمـا بلغنا المصيف قال لي . „ يا مرغي ان ابنتي امي تحب شابا فقيراً »

مرغي : « وهل في ذلك من بأس ؟ »

السر وليم : « وهو — علاوة على شدة فقره — ليس على شيء من الحذق والذكاء »

مرغي : „ وكيف عرفت ؟ „

السر وليم : « ماذا تعنين ؟ »

مرغي : « اعني ان المرء لا يصلح ان يكون حكماً على من يكرهه »

السر وليم : « اروم نصيحتك في هذا الامر . وارجو ان أن تكلمي أمي وتطلعيها على رأيك فيه »

مرغي : « كلمتها »

السر وليم : « وماذا قالت لك »

مرغي : « أيصحّ ان ابوح لك بسر غيري ؟ »

السر وليم : « اطلعيني على الاقل على ما قلتهِ أنتِ لها »
مرغي : « ماذا كنت أنت تقول لو جاءتك فتاة حسنة التربية والتهذيب واخبرتك بانها تحب فتى يكرهه ابواها وهو بائس معدم لا يقدر ان يعولها •••• »
السر وليم (معترضاً تتمة كلامي) : « دعي السؤال عما كنت اقوله . ماذا قلتِ انتِ ؟ »
مرغي (بمراوغة : « اني فتاة كابنتك امي لن تفعل شيئاً ينافي مشيئة والديها . والرجال الذين لا يقدرون ان يعولوا نساءهم لا يحق لهم ان يتزوجوا •••• »
السر وليم (ممسكاً يدي بعنف) : ماذا قلت انتِ ؟
مرغي (بابتسامة شائقة) : « اخاف ان تكون قد غيرت فكرك من جهتي . وبعد ما كنتَ تروم العمل بنصيحتي اخذت ترتاب فيَّ »
السر وليم (بصوت عالٍ وهياج شديد) « ماذا قلت أنت؟ »
مرغي (واضعة يدها على يده بلطف وتؤدة) : « لا ادري لماذا انت مضطرب هذا الاضطراب الشديد . فلو قلتُ لك اني اشرت عليها بان تنثني عن عزمها ولا تغضب اباها الشيخ فماذا تقول ؟ »
السر وليم : (ناهضا ودافعا يدي عن يده) ! « انك لكاذبة ! »
مرغي : « لا . لست بكاذبة . ولكنني عند ما ارى الناس يسترقون السمع من وراء الابواب احتقرهم وغناهم ! »

ولم يكن هذا الزواج الوحيد الذي عُرِضَ عليّ بالوكالة بل عُرض عليّ بعده زواجٌ آخر مثله . وتفصيل ذلك اني ذهبت مرة لاتناول العشاء مع آل بيشوفهيم (١) فتعرفت بالبارون هرش وهو نمسوي ولكنه مقيم في باريس . فدعاني للعشاء وجلس الى جانبي وجلس الى جانبي الآخر شاب كنتُ قد تعرّفتُ به في الصيد

وبينما أنا منصتة الى حديث الشاب وفي يدي كاس شمبانيا مثلّجة اذا بأحد الندُل(٢) قد دفع الكأس الى صدري وكنتُ لابسةً ثوب رقص فاندفق كل ما فيها من الشمبانيا وبلّت ثيابي. وشعرت بقرسة برد حادة الى الغاية . ولما كانت ثيابي رقيقة اوحستُ خوفاً لامزيد عليه من شفوفها عن مشدّي (كورسيه) القرنفلي اللون. ومع كل ماشعرت به من شدة قرس البرد وخوف شفوف ملابسي ظللت في مجلسي بلا أقلّ ازعاج والكأس الفارغة في يدي كأنه لم يحدث شيءٌ على الاطلاق آملة أن أكون قد أمنت عين مراقب لي ومتكلفة شدة الارتياح الى حديث الشاب عن الاخطار التي تعرّض لها في الصيد .

وبعد بضع دقائق التفت اليّ البارون هرش وقال : « ألا تشعرين ببرد شديد » . فأجبت : « بلى . ولكنني لا أباليه. وانما

---

(١) من كبار اغنياء النمسويين وشرفائهم

(٢) أحد خدمة مائدة الطعام

اخاف أن أكون قد جنيتُ على ثوبي فساداً يتعذَّر اصلاحهُ .
ثم أخذنا نتحدث عن امور مختلفة . ومما قاله لي انه لما اقترعوا ضدّه في نادي الألعاب الرياضية في باريس انتقم لنفسه بان ابتاع النادي والارض التي بني فيها . فقلت له :—

" اذاً ينبغي أن تكون غنياً جداً "

فسألني أين اسكن وأبدى دهشة عظيمة لاني لم اسمع به قط قبل الآن .

ثم التقينا بعد ذلك في باريس . فتناولت الغداء معه ومع قرينته ودعاني غير مرة للتنزه وحضور التمثيل في الاوبرى

وفي ذات يوم دعاني للعشاء معه على انفراد في القهوة الانكليزية . فقبلت دعوته متعجّبة منها وغير عالمة بأسبابها . ولاسيما لانه في دعوته فوَّض اليّ ان اختار أيَّ وقت آخر اشاء اذا كان الوقت الذي عينه لي لايوافقني . ولما وصلت الى القهوة الانكليزية وجدته في انتظاري فاستقبلني ودخل بي الى غرفة مخصوصة . وبعد ماجلسنا ذكّرني اجتماعنا الأول وقال لي انه أُعجب اعجاباً شديداً بما اظهرته يومئذ من ضبط النفس في حادثة الشمبانيا المثلجة . ثم سألني هل أعلم لماذا دعاني لاتعشى معه . فقلت :—

« هذا ما اجهلهُ واروم الوقوف على سببه »

البارون هرش : « اروم ان تقترني بابني لوسيان . اظنه أهلا

لك لانه يكره المال ويحب الكتب وله ولع بجميع المخطوطات من الطرائف القديمة . وهو فوق ذلك نائل أوفر قسط من التعليم والتهذيب » .

مرغو : « أليس ابنك ذا اللحية والنظارة وهو شديد الشغف بجمع النقود القديمة ؟ »

البارون هرش (غير مسرور من وصفي لابنه) : « هو بنفسه وقد كلمته يوماً في بيتنا . وهو لطيف المزاج وحسن التصرف . ومن المحقق عندي انك اذا عنيت به ولو قليلا تجدينه من نخبة الازواج . وهو لا يميل الى الاجتماعات ولا الى السباق ولا الى غيرها مما اميل أنا اليه »

مرغو : « واهاً له ! ما اظنه يبالي كثيراً حتى بي أنا . انه شديد الكلف بجمع النقود القديمة . وهذه اكرهها جداً »

البارون هرش : « ولكنك قادرة على صقل طباعه من هذا القبيل . انه شديد الاستحياء . واتمنى له زواجا سعيداً . هذا فضلا عن وجوب اقترانه بفتاة انكليزية »

مرغو : « هل احبّ من قبل »

البارون هرش : « لا . لم يحب قط . لكن كثيرات تعرضن له . ولست ارضى ان تقترن به فتاة ـ اية كانت ـ مدفوعة بعامل غناه »

مرغو : « هذا يحتمل وقوعه هنا . اما في انكلترة فلا »

البارون هرش : «أمثلي تقولين هـذا وانا عالم عن اختبار كلفني كثيراً ان الهيأة الاجتماعية في لندن أشدّ الهيئات لاجتماعية في العالم اهتماما بالمال • ان فتى كلوسيان في الغنى لقادر ان يتزوج أية فتاة انكليزية أراد »

مرغو : «هـذا ما اشك فيه لان الفتيات الانكليزيات لا يستهوبهنّ المال »

البارون هرش : « خلي عنك الهذر ياعزيزتي ليس للفتيات الانكليزيات أقل ميزة على غيرهن من هـذا الوجه ولا يحتقر المال الا الفتيات الصغيرات السن»

مرغو : « اذاً ارجو ان اظل صغيرة وقتاً طويلا جداً »

البارون هرش (مبتسما) : « لا اظن ان رجاءك يخيب من هذا القبيل • ومهما يكن من الامر فما احسبك تودّين ان تكوني زوجة رجل فقير وتسكنين في الضواحي . تأمّلي كيف تكون حالتك لو حُرمت التمتع بالصيد والركوب ولبس الحلل الفاخرة وحضور الحفلات الباهرة وقضي عليك ان تعيشي عيشة القرويات الوضيعات القدر والخاملات الذكر »

مرغو (بشدة) : « لايمكن ان يقضى عليّ بذلك»

البارون هرش : « ولماذا »

مرغو : « لان لي أصدقاء كثيرين »

البارون هرش : « وأعداء ؟»

مرغو (بتأمل وافتكار): «لربما... هذا شيء لا أعلمه. ولا أعنى به . وها انت قد حفلت بي يوم لقيتني أول مرة. فلماذا لا يحفل بي الآخرون هكذا ؟ أو لا يجيء اختيارهم في النهاية مصدقاً لما رأوه مني في البداءة ؟»

البارون هرش : «اترتابين في ذلك وقد حملني اختباري لك على طلب اقترانك بابني ؟»

مرغو : «مثل من تود زوجة لابنك ؟»

البارون هرش: «مثل اللادي كيتي لمتون(١) شقيقة درهام»

مرغو : «لا اعرفها . هل تشبهني ؟»

البارون هرش : « ليس بينكما اقل شبه على الاطلاق . لكنكما — انت وهي — الفتاتان اللتان لقيتهما ووددت لو اقترن ابني باحداهما »

وقد جدّ بي الشوق لمعرفة شيء عن منافستي. وغاية ما امكنه ان يقوله لي عنها انها ذات نحافة ورشاقة وعلى جانب كبير من الجمال والذكاء . فقلتُ له : —

« اذاً هي تشبهني جداً » فضحك وقال : —

« ما اظنك تعرفين من تشبهين »

مرغو : « اتعني اني عاجزة عن ادراك ما انا عليه من البساطة؛

(١) هي الآن دوقة أوف ليدس

واذا عجزتُ عن معرفة من اشبه فانك مني لاقصر واعجز ! وما ادراك اني لست من المخاطرات اللواتي تخافهنّ اشد الخوف فقد اقترن بابنك وبدلاً من محاولةصقل طباعه وتنويع مواضيع لذته ومسرته كما اشرت اتركه يعنى بجمع النقود القديمة واذهب حيث شئت منفقة ماله على ماأروم واشتهي . وقد يتفق ان رجلا يهواني ويقضي على سعادة لوسيان قضاءً مبرماً »

البارون هرش :« لا اصدق انك تخونين زوجك »

مرغو : « ان الحتم في امور كهذه فوق استطاعتك » وهل تظنّ ان اللادي كيتي لمتون تودّ انْ تقترن برجل حباً بثروته ؟»

البارون هرش : « الحق اقول اني لااظن انها تفعل ذلك »

مرغو : « ارأيت اذاً صدق كلامي . اني اعرف كثيرات من الفتيات اللواتي يأبين زواجاً كهذا . وعلى كلّ انا ارفض رفضاً باتاً ! »

وقد طال بيننا الحديث في هذا الموضوع . وبذل البارون هرش جهده في حملي على قبول ابنه لكنني قلتُ له صريحاً اني اقلّ بنات العالم موافقة وصلاحية لابنه

وانصافاً لذكر لوسيان هرش اقول انه لم يعنَ قطّ بي وقد توفي بعد ذلك بوقت قصير فقال بعضهم لابيه البارون : —

« ما اشد غباوة وحماقة مرغو تننت فلو رضيت' ان تقترن بابنك لكانت الآن من الارامل الغنيات »

فاجابه : —

« لو اقترن ابني بها لم يمت! »



الفصل السابع

افتتح هذا الفصل باثبات وصف مجمل لاخلاقي وملامحي كُتِب في غلن في احدى العابنا القلمية في شهر يناير سنة ١٨٨٨ ولما عُرض يومئذ على الذين كانوا في الغرفة حزروا كلهم تقريباً اني انا موضوع الوصف لكنهم اختلفوا رأياً من جهة كاتبه . وزعم بعضهم انه صديقنا العزيز الحاذق غودفري وب وقد وضعه من باب المزاح . وهذه خلاصة ذلك الوصف : —

« هي في ظاهرها صغيرة الجسم عصبية المزاج سريعة الحركات شديدة النشاط . وهي دائماً على وجه الاجمال ذات ظرف وكياسة لكنها كثيرة الحركة ميّالة الى الهياج . ليس في وجهها دليل كاف على ما عندها من الحصافة والذكاء لان عينيها مع فرط صفائهما وحسن تكوينهما شديدتا الالتصاق احداهما بالاخرى . وانفها الاقنى ينحني الى شفتها العليا القصيرة فوق فم خال من الدلالة على شيء . اما ذقنها فهي أدلُّ من سائر ملامحها على اخلاقها لانها كبيرة وبارزة . ولها شعر جعد جميل يتدلّى على جبين انيق وهي في مجموع اعضائها قوية البنية صحيحة الجسم سهلة التحرك . وفي اخلاقها دمثة لينة بعيدة عن الغرور حازمة حادّة الذهن . ولها في حديثها دقة في الوصف ومبالغة في الاسترسال وعناية باتقان

سياق الكلام . وموهبة حسن التعبير . ومن مزاياها الممتازة بها الامانة والعزم والهوادة . لها في الملاحظة ما لعين الفلكي الذي يرقب النجوم من شدة التقصي والتدقيق . وهي خير حكم في شؤون بني البشر • وقلما تزعجها رياح الحوادث اذا هبّت على غير مشتهاها • فتراها كلما طمت عليها لجج المكاره والخطوب سمت بها نفسها فارتفعت فوق تيار الامواج غير حافلة بالعجيج والهياج • وقد اعانها على ذلك عرفانها قدر نفسها ونجاتها من الوقوع في فخ الغرور وحصولها على اوفر نصيب من القوة الحيوية وشدة الثقة بنفسها والاعتماد عليها • وهي من حيث المياسرة والمساهلة في ما يتعلق بنفسها لازمة حدّ الاعتدال فلا افراط عندها تتهم فيه بمحبة نفسها ولا تفريط يضطرها لانكارها • والفضل في خروجها من مأزق المشقات والمصاعب انما هو لعزمها وبسالتها لا لبعد نظرها • لا تثق بمصالح جافة عقيمة يبديها قوم يؤثرون اذاعة الشر على نشر الخير • لا تحابي احدا وقد ينقصها شيء من واجب الاحترام للغير • تحبّ الطاعنين في السن لانها لا تشعر بانهم شاخوا • ولشدة حرارة قلبها وصحة ولائها لا تصدق ان الضيق مهما يشتد يستطيع ان يحول بينك وبين من احببت. وتصوب رأي الدكتور جونسن في ان الصداقة يجب ان تتعهد دائماً بالترميم والاصلاح . مولعة بالناس والحيوانات والكتب والموسيقى والالعاب الرياضية على اختلاف انواعها

كركوب الخيل والصيدو التجذيف وغيرها • شديدة الكلف بالطبيعة اما من حيث الدين فينقصها العمل بالرسوم والفرائض. وهي في ماخلا ذلك ذات شعور ديني حيّ صحيح . وهي في حبها غيور وتوّاقة وامينة . اما في عملها فينقصها شيء كثير من المواظبة لانها تباشر اشياء كثيرة على وجه حسن ولكنها لا تجيد اكمالها. لها اذن موسيقية ولكنها غير متقنة لهذا الفن . ولها عين المصور ولكن ليس لها ريشته . وهي بارعة كل البراعة في ركوب الخيل. اما من حيث القوى العقلية فهي بنت نفسها وهي ذات طموح واستقلال وارادة . حريصة على اعجاب النساء والرجال بها ومحبتهم لها ولا تقصر في اعجابها بهم ومحبتها لهم »

وقد بعثت بهذا الوصف مع وصف آخر مجمل لصفات المستر غلادستون الى الاستاذ بنيامين جويت . وبعد ما اطلع عليهما كتب اليّ الكتاب التالي :

« ٢٣ اكتوبر ١٨٩٠

« عزيزتي مرغو

« لقد شاقني وصف غلادستون . فزيديني منه كلما سمح لك الوقت . فان تلاوتي له زادتني معرفة بصاحبه

« اما وصف الفتاة فحقيقي لا مبالغة فيه ولا تملق ، وقد بدا لي منه ان صاحبته شديدة الاخلاص والذكاء . وقد يبلغ ذكاؤها مبلغ النبوغ . ولو شاءت لكانت من المشهورات في فن

الكتابة والتأليف . لكنها تضيع وقتها ومواهبها بالتجوال في العالم والانتقال من بلد الى أخرى على وجه لا يسر تذكره فيما بعد ولاسيما بعد عشرين سنة حينما يكون الشباب قد فرّ راكباً جناحَي نعامة

« فان كنتِ تعرفينها فقولي لها بكل لطف ومحبة اني لااروم ان ازيد شيئاً من النصح لكنني اتمنى ان تكون هي مشيرة نفسها. فقد بلغت منزلة رفيعة وان تكن زلقة خطرة أفلا تزين هذه المنزلة بعيشة شريفة بسيطة ؟ لانه بعيشة كهذه يكون للحياة قيمة حقيقية! وكلما ارتفعنا اشتداحتياجنا الى الترتيب والاقتصاد وضبط النفس . ومن اصعب الامور ان نعيش في العالم ولا نكون منه . نعم يصعب علينا ان نكون في الظاهر مثل بقية الناس ونحن نروم الاحتفاظ بالمثل الاعلى الذي يسمو فوق الحياة كلها ويبلغ الى ما وراء حدودها . وان ندخر في قلوبنا محبة طبيعية لكل انسان ولاسيما الفقراء البائسين وان ننزه انفسنا عن الطيش والسخافة والهياج ونعيش لغير انفسنا حسب مشيئة الله لا بمقتضى ازياء الناس وآرائهم »

فبهذا التنشيط وبتشجيع صديق جديد — هو ليونل تنسن — حدثتني نفسي ان أنشيء صحيفة . ولما اعلنتُ عزمي على ذلك وافقني عليه كثيرون من صديقاتي واصدقائي وكلهم من نخبة الكتاب ووعدوا ان يضافروني عليه ويشدوا ازري فيه . وبعد

مباحثة طويلة في اختتار اسم الصحيفة اجمعنا على الاسم الذي اقترحته انا وهو « الغد » وتألفت لجنة الكتابة « التحرير » مني انامرغو تننت صاحبة الجريدة ومن لورانس اولفنت و . ج . ك ستيفن والمستر ولفرد بلنت وجورج كرزن وجورج وندهام وغود فري وب ودل لدل وهري كست والمستر نولس [صاحب مجلة القرن التاسع عشر] والاونورابل لتلتون والمستر ا . ج بلفور واوسكار ويلدواللورد واللادي ربلسدايل واللادي هورنر والسرالدجرتون وست واللادي فرنسيس بلفور واللورد واللادي بمبروك والآنسة بتي بنسونبي (وهي الآن عقيلة مونغمري) وجون ادنتن سيموندس والدكتور جويت (استاذ باليول) والمسيو كوكلاين والسر هنري ايرفن والآنسة الن ترّي والسر ادورد برن جونس والمستر جورج رسل وعقيلة سنغلتون (والآن اللادي كري) واللادي دي غراي واللادي كونستانس لسلي والاونورابل ليونل تنسون

وبعد ما اخذنا اهبتنا للعمل واعددنا مقالات العدد الاول وقفنا عند هذا الحد ولم يخرج المشروع الى حيزالفعل . فصدق جويت بقوله اني اضعت وقتي « بالتطواف في العالم » ولكنني اكتسبتُ اصدقاء كثيرين لم يكن يتيسر لي الحصول عليهم بغير هذه الطريقة .

واذا صحّ انهُ لم يكن لغيري من الاصدقاء قدر ما كان لي

فبكل اسف اقول انه لم يذق أحد ما ذقته من مرارة خيبة الامل
بني البشر والوقوف على تقلبهم وعدم ثباتهم وشدة ضعف قوة
المحبة فيهم

غادرنا دونن ستريت حيث قضينا اكثر من تسع سنوات
وليس لنا سقف يظلنا. وبعد عشرة ايام اقبل اصدقاء جدد
لمعونتنا والاهتمام بنا. على انه ينبغي لي ان اقول ان كثيرين من
اصدقائنا القدماء لم يكن عندهم محل لنا وبعضهم كانوا مقيمين في
الريف. فاللادي كرو (١) وهي توشك ان تكون في سن ابنتي
وهي نادرة المثال في نزاهة مقاصدها وصراحة افكارها ادخلت
ابننا سيريل في كروهوس واللادي غرانرد (٢) انزلت زوجي عندها
وعقيلة كفندش — بنتنك وهي عمة اللادي غرانرد ومن
شعب الله الخاص صادقت ابنتي اليصابات. وعقيلة جورج كبل
الكبيرة القلب والنفس اعدّت لي مسكناً في بيتها في غروفنر
ستريت. وعقيلة مكنّا (٣) قبلت عندها ابني انطوني

اما الصديقان اللذان اسعدني الحظ في ذلك الوقت باكتساب
صداقتهما وكان لهما اكبر تأثير فيّ فهما جويت (استاذ باليول
سنة ١٨٨٨ و١٨٨٩ واللادي ويمس ام الارل ويمس في الوقت الحاضر.

---

(١) مركيزة اوف كرو. (٢) الكونتس اوف غرانرد
(٣) قرينة الريت اونورابل رجينلد مكنّا

كانت اللادي ويمس ممتازة بشدة محبتهاوفرط تواضعها. وهي ذات مزاج حاد شديدةالغيرة سريعةالتأثر ومقياس رائع للصواب والخطأ . تلقى زائرها او من يروم مقابلتها بوجه عابس جاف وتخاطبه بصوت منخفض وكلام بطيء وصراحة واخلاص مخيفين وبعد ما عرفتها واختبرتها وجدتها الشخص الذي طالماتصورته في الحلم وكنت اظن ان الله لم يخلقه بعد • وقد قالت لي مرة اني خير صديق يتمنى الانسان الحصول عليه • وكان هذا الاطراء الرائع مقدمة صداقة احكمنا كلتانا عقدها ووثقنا عراها ودامت بيني وبينها الى يوم وفاتها • وقد حفظت عندي كل كتاب كتبته الي وهذه الكتب أعدها انفس ذخر وأثمن ذكر لاكرم صديقة

وكانت اللادي ويمس المحبوبة واسطة تعرفي باستاذ باليول وكنتُ حينئذ في مصيف الارل ويمس في غسفورد بين ايدنبرغ ونورث بروك. ففي مساء يوم من سنة ١٨٨٨ بعد ما عاد الرجال من الصيد جلسنا في رحبة المرمر الفسيحة لتناول الشاي وكنت لابسة تنورة مثناة لأرقص بها اجابة لطلب الارل ويمس

فاخذ بعضهم يوقع نغمات الرقص على البيانو وشرعتُ اخطر في رقصي جيئة وذهاباً • واخيراً عند ما وقفتُ وانحنيت امام الحضور مبدية علامة شكري لتصفيقهم واظهار اعجابهم علقت رجلي بذيل ثوبي وسقطت عند قدمي قسيس طاعن في السن • وعند ما نهضتُ رنّ صوت لعنة عال في الرحبة كلها ! فاسترجعت

رشدي وقلت له ملتفتة اليه : —

« انك قسيس واخاف ان اكون قد ازعجتك فاجابني : —

« لم تزعجيني قط • وارجو ان تواصلي رقصك لانه اعجبني الى الغاية »

وكنتُ الى ذلك الوقت اجهل من هو • وقد ظننته في اول الامر قسيس الابرشية ولكنني علمتُ بعدئذ انه بنيامين جويت الشهير استاذ كلية باليول في جامعة اوكسفورد

وقبلما اصف كيف تعرفت بالاستاذ وتوفقت الى احكام علاقات المودة والصداقة بيني وبينه يحسن بي ان اشير ولو بالاختصار الى تلك الحوادث القديمة التي وقعت في اكسفورد ومكّنت الاستاذ من معرفة دخائل الناس وما لقيه في اثناء ذلك من العنت والانزعاج

ففي سنة ١٨٥٢ توفي الدكتور جنكنز استاذ باليول . فخلا منصبه هذا وكثر المرشحون له والمتسابقون اليه . وكان لجويت في ذلك الحين شهرة مستطيرة من حيث كونه استاذاً او مدرساً كبيراً . ولكنه كان متهما بانه من أهل المذهب العقلي (١) وهذه التهمة شاعت وذاعت كشهرة براعته في العلم والتعليم. فاشتد بها

---

(١) « Ratioualism » أي مذهب تحكيم العقل وحده في التوراة والدين المسيحي ورفض مايخالفه فيها



بنيامين جويت الشهير

أستاذ كلية باليول في جامعة اكسفورد

ساعد اضداده على انصاره. ولما حان وقت الانتخاب نقصه صوت واحد وافضى ذلك الى رفضه . واشتد وقع هذه الخيبة عليه . لكنه تجلد لها واكب على عمله بما لامزيد عليه من الجد والمواظبة وقد قال لي مرة انه وجد حينئذٍ اكبر تعزية وتنشيط بقول مرقس اوريليوس :— « اجتهد دائماً في عمل شيء تخدم به بني البشر . ولتكن هذه المروءة المتواصلة والاريحية المستمرة مدعاة مسرتك وابتهاجك ولا تنس في الوقت نفسه ما يجب عليك من الاحترام لله » .

وكانت خطبه عن افلاطون والقديس بولس أهمّ ما عني تلاميذه بسماعه منه . وكان لشدة تضلعه من قواعد التعليم واصول البحث تأثير كبير في تشويق طلبة اكسفورد الى درس تعاليم افلاطون ومقابلتها بتعليم ارسطوطاليس . وكان يقول :— « ان ارسطوطاليس ميت . اما افلاطون فحيّ »

وفي سنة ١٨٦٠ طُبعت مقالاته في تفسير الكتاب المقدس بعنوان « مقالات وانتقادات » فاشتدّ الهياج عليه لما جاء فيها من التعاليم المخالفة لاعتقاد الجمهور وانبرى كبار رجال الدين لمناهضته ومعارضته وتسفيه آرائه . وظلت هذه الحملة الشديدة موجهة نحوه الى سنة ١٨٦٤ بعد ما منعوه من الوقوف على منبر الجامعة . لكنه ظل مواظباً على عمله ومواصلا الجدّ في ترجمة تعاليم افلاطون حتى اكملها كلها في سنة ١٨٧٨ حين تقلد منصب

استاذ باليول

وشرُّ ما نشأ عن ردود اخصامه على كتابه « مقالات وانتقادات » طعنهم ظلماً وعدواناً في شهرته واساءتهم الى صيته فانه ظلَّ عدة سنين معدوداً عند عامة الشعب من أهل البدع والاضاليل وانه رئيس مدرسة كلية ليس فيها الا الكفرة الملحدون . على ان مقالاته في تفسير الكتاب المقدس — وهي التي لقي فيها حينئذ ما لقي من المقاومة والاضطهاد — لا يأبى الآن أي قسيس كان ان يقدم على طبعها ونشرها . وكان ذنبه عندهم قوله ان الكتاب المقدس يصحُّ انتقاده كما تنتقد الكتب الاخرى

ولما تعين استاذ كلية باليول التف حوله جميع تلاميذه ومريديه ولم يكترثوا لطعن رجال الدين فيه . والحق ان جامعة اكسفرد لم تر قط استاذاً يضاهيه في شدة المواظبة على العمل وتحمل اتعاب التعليم والتهذيب بلا سأم ولا ملل وفي ايامه زهت كلية باليول وازهرت وكثر عدد طلاَّبها وامتازت من جميع كليات جامعة اكسفرد بخرّيجين نبغوا في العلم والسياسة وصاروا فيما بعد من مشاهير الرجال في كل فن ومطلب

بقي السؤال : — « هل كان جويت عظيما؟ » وذلك موضوع طال فيه الجدال وكثر الاخذ والرد . فليس من ينكر نفوذه وشدة تأثيره . وقد سمعت كثيرين من كبار الرجال مثل هكسلي

وسيموندس واللورد لانسدون واللورد بوين واللورد ملنر والسر روبرت مورير وغيرهم يذكرونه امامي بملء التجلة والارتياح وينوهون بفضله عليهم ونفوذه فيهم . وليس من ينكر انه كان رقيق القلب كريم النفس حريص على مراعاة شعور الاخرين وقليل الحرص على جمع المال . وقد يقال انه لم يكن من طبقة المجلين في مضمار العلم والفلسفة مع الاعتراف بخدمته الجليلة في سبيلهما. ولكن هل كان عظيما ؟ ففي العالم كثيرون من كبار الرجال رجال الحذق والذكاء من ذوي العبقرية والنبوغ واصحاب الجد والعمل. ولكن الرجل العظيم يصعب وجوده . لان الحصافة او قوة التمييز وحدها تقصر عن الدلالة على هذه الضالة المنشودة فلا بدّ من الاستعانة على وجودها بنوع من العظمة ايّا كان . والله سبحانه وتعالى يعدل في ما يمنح ويهب حتى لا يكون لاحد منا ميزة على الآخر في شيء . فلم ألق قط امرأة ذات جمال فائق ولها ذكاء يتجاوز حد الوسط . ربما اتفق لبعضهن ان يكن فائقات في الجمال والذكاء معاً ولكنني انما أُدوّن ما عرض لي في حياتي . ومثل هؤلاء النساء لم اشاهد

فقد عرفت رجلاً كان نابغة في سرعة خاطره وتوقد ذهنه وشدة ذكائه وما كان يلوح عليه من صفاء القلب وسلامة النية . ولكنه كان مثلاً مضروباً في الخسة وانكار الجميل وسرعة التقلب. واكتشاف التقلب والكنود لا يتم الا بعد سنين تقضى في التجربة

والاختبار . ويخيل اليّ ان قليلين منا هم الذين يبدو لهم ان يتهموا غيرهم بلؤم يسوءهم اكتشافه ويكون اشبه باكتشاف دودة في قلب وردة . وقد ترى رجلا حسن الاخلاق ولكنه بليد خامل. وآخر ذكيا المعيا وكريما متلافا لكنه خليع منغمس في لذاته وقاسي القلب . وآية في النفاق والكذب . وهذه المتناقضات على شدتها وكثرة شيوعها قلما فاتني العثور على واحد منها . ومن نوادر الاتفاق ان يجتمع التواضع الخالص والتنزه عن الغرور والتجرد لمحبة الآخرين بعزم وبسالة لامزيد عليهما . فاذا اظفرك الاتفاق بلقاء هذه الصفات مجتمعة معا فثق حينئذ انك في حضرة العظمة

فالعظمة مؤلفة من اربعة عناصر الاول التواضع الحقيقي [وهذا يجب ان يتميز من الصغار والمصانعة] . والثاني التنزه عن الغرور والثالث البسالة التي اذا اتخذت باوسع معانيها تضمنت الصدق او دلت عليه . والرابع قوة المحبة . وهذا العنصر الاخير اندر العناصر كلها . واذا كانت العظمة تتألف منها فجويت كان عظيما لانه كان حاصلا عليها كلها

ومهما يكن من نتيجة انتقاده للكتاب المقدس — مما اجتنب البحث فيه فاني اراهُ مستوفيا شروط العظمة واعترف بانه كان له افضل تأثير مفيد في حياتي . وكان شديد الخوف على صيتي في الهيئة الاجتماعية . وكان في جميع المكاتبات التي دارت

بيننا بعد ما افترقنا في غوسفرد لا ينقطع عن نصحي وارشادي وكان متناهيا في بساطه الفكر وذا اعتقاد راسخ في حسن اخلاق جماعة الاشراف البريطانيين وسعة معارفهم وسموّ نفوسهم . ولم يسرّه اني كنتُ مخالفةً له في ذلك . ومع شدة احترامي لنصائحه وانذاراته لم ابال بها اكثر مما تبالي بطة سابحة بنقيق دجاجة على ضفة بركة . وفي احدى كتبه طلب اليّ العدول عن الذهاب مع ولي العهد لصيد الدببة في روسيا . ولم اسمع به الا منه ! وختم كلامه في كتاب آخر بقوله : —

« لا يحسن بي ان اُزعجك بتكرار النصائح . ولكن لماذا لا تحسنين استخدام مواهبك الشريفة؟ نعم انك لا تسيئين استعمالها ولا تفعلين الا مايفعله غيرك . ولكنك تفوقينهم اتقاناً ونجاحاً وانت فوق ذلك امينة جداً لاصدقائك فالرب يباركك ويرضى عليكِ »

ولما بلغه اني اُدخن ساءه ذلك جداً فكتب اليّ يقول : —

« ماذا تفعلين ؟ تكسرين قلب شاب ؟ ليست هذه المرة الاولى ولا الثانية ولا الثالثة . مساكين الشبان ! انهم يختصونكِ باعظم اطراء يستطيع رجل ان يسوقه الى سيدة وهم جديرون بكل محبة . ان قبلت نصيحتي قلتُ خيرٌ لكِ . وواجب عليهم ان تبقى خيبة آمالهم مكتومة عن كل انسان لانه لا يخفى عليكِ ان كلمة « مؤتمن على سر الغرام » يصحّ اطلاقها على كل واحد . والعالم

الحسن الخلق والشديد الغيرة منك يتهمك بالقساوة وسحق القلوب . وقد بلغني انك تدخنين ! ! ! فاستأتُ من ذلك أشد الاستياء . لانه ليس من شيمة السيدات في انكلترة . ومنذ ما سمعتُ بهذا الخبر امثلك لعيني جالسة والدخان يتصاعد متكاثفاً من فمكِ . فاتركيه ياعزيزتي مرغريت اتركيه . لانه يضر بصيتك »

وسألني يوماً هل اخبرتُ أحداً بانه كتب اليّ فاجبته : « اظنني اخبرت حتى كل حمال (شيال) في سكة الحديد ! »

فازعجه ذلك . فقلت له اني اراهُ يستحي بمحبتي له . اما انا فافتخر بها

وبعد سكوت طويل قال لي : — « اتودين يا مرغو ان تُكتَب ترجمتك ؟ »

مرغو : — « لا . الا اذا تضمنت كل شيء حقيقي عني - ومن ذا الذي تختاره أنت أيها الاستاذ ليكتب ترجمتك ؟ »

جويت : « لايستطيع أحد ان يكتب ترجمتي يامرغريت ؟ »

(وظل وقتاً غير قصير يدعوني مرغريت حاسباً انه اكثر مراعاة لمقتضيات الادب من مرغو)

مرغو : « خلِّ عنك هذا ! فانه في استطاعتي ان اكتبها »

جويت : « لو علمتُ هذا من قبل لما احرقتُ كل رسائلي »

وما اظنّ ان فتاة كسولاً مثلك تصبر على عمل ممل كهذا ! »

مرغو (بغيظ) : « اتعني بهذا انك احرقت كل رسائل

جورج اليوت ومثيو ارنولد وسونبرن وتمبل وتنسون ؟ »

جويت : « ابقيت واحـدة او اثنتين من رسائل جورج اليوت وفلورنس نيتنغايل . لـكن الرجال العظام لا يحسنون كتابة الرسائل »

مرغو : « هل تعرف فلورنس نيتنغايل؟أودُّ لوكنتُ اعرفها»

جويت (متعجباً من عـدم سماعي بالاشاعة المتعلقة به وبفلورنس نيتنغايل) : « لماذا تودين ان تعرفيها ؟ »

مرغو : « لانها احبت ابا صديقي جورج بمبروك »

جويت (بحذر): « سأذهب بكِ اليها لـكي يمكنكِ الاطلاع على كل شيء »

مرغو : « اتمنى ذلك » ولـكن اظن انها لا تعني بي »

جويت : « لعلها لا تبالي بك . ولـكن هل يهمك ذلك ؟ »

مرغو : « كلا البتة ! لاني لست كبقية بنات جنسي من هذا القبيل . وعند ما يغادر الناس الغرفة لا اقول في نفسي ، ترى هل احبوني بل « ترى هل احبتهم ، »

وقـد اثر كلامي في الاستاذ والاّ لم اشر اليه هنا • وبعد بضعة اسابيع ذهب بي الى فلورنس نيتنغال في سوث ستريت • وكان خارج دارها عـدد كبير من مرضات المستشفى ينتظرن ان يقابلنها • ولما دخلنا كانت جالسة على متكإ وبعد التعارف والتحية جلستُ انا والاستاذ • ورفعتُ نظري اليهافراعني جمال

وجهها البديع • ثم التفتت اليّ وقالت :

« يسرني ان اراك لاني علمت ان بمبروك ابن صديقي العزيز القديم شديد الميل اليك • فهل تصفينه لي ؟ »

فوصفت اللورد بمبروك لها والاستاذ جالس في كرسيه صامتاً لا يفوه بكلمة وظل كذلك حتى خرجنا من عندها . وبعد بضعة اشهر كنتْ راكبة معه في جوار اكسفورد • فقلت له : —

« لم تحدثني قط عن علاقتك بي ولا قلت لي شيئا عن حبك في صباك • مع اني اخبرتك بشيء كثير عني »

جويت : « هل بلغك قط اني احببت احداً ؟ »

فلم اشأ ان اخبره باني بعد ما زرنا فلورانس نيتنغايل سمعت انه اراد ان يتزوجها فاكتفيتُ بقولي له : — « نعم بلغني انك احببت مرة »

جويت : « مرة فقط ؟ »

مرغو : « نعم »

ثم ساد سكوت تام اخترقتُ حجابه بهذ السؤال : —

« كيف كانت السيدة التي احببتها أيها الاستاذ العزيز ؟ »

جويت : — « صعبة المراس ••••• صعبة المراس جداً »

ثم رجعنا الى باليول

وسأثبت في ما يلي جميع الرسائل التي كتبها اليّ لاني لا لا استصوب نشرها متفرقة في مذكراتي :

« في ١١ مارس ٩ ١٨

« عزيزتي مرغريت

« لقد اصبت بقولك ان واجبات الصداقة تقضي بأن يكتب الصديقان احدهما الى الآخر . وقد كدتُ أظنُّ انكِ استأتِ من انتقادي الشديد لحياة شبيبتك وسعادتها

« وهل يمكن ان يبقى الشباب شباباً اذا تحوّلت الحياة فيه الى حياة جدٍ واهتمام ؟ اما انا فاقول نعم يمكن . وهل في الحياة افضل من ايثار العناية بسعادة الآخرين على العناية بسعادة انفسنا وكانت أختي المأسوف عليها [التي سأحدّثك عنها يوماً ما] تقول : —

«يسعدني ان أرى الآخرين سعداء» وكانت حريصة على العمل بمبدإ سدني سميث : لا تدع يوماً يمرّ بك من غير ان تصنع فيه معروفاً مع بعض الناس ، ولا بدّ ان تكوني انت كذلك والا لم تكوني هكذا معروفة ومحبوبة

« تسألين عن الاشخاص الذين لقيتهم مؤخراً . ولا أعلم هل يهمك ذكرهم . فمنهم المستر ولدن رئيس اساتذة هارو وهو رجل امين قدير وامامه مستقبل باهر . ولولا شدة تناهيه في الامانة والصراحة لترجح ان يكون في المستقبل رئيس اساقفة كنتربري والمستر ج . م . ولسن كبير اساتذة كلية كلفتن وهو رجل لين العريكة كبير الهمة كثير المواهب . ثم اني اجتمعت باللورد روزبري

وهو كما تسمعين عنه من حيث المقدرة والاقدام وغير بعيد عنه ان يكون كبير الوزراء في المستقبل . ويعجبني في اللادي روزبري انها رقيقة الشعور شديدة الادراك شريفة المبادىء وهي تأبى ان تضحي بيهوديتها في سبيل احراز رضى الناس . وعندهما كليهما ثروة كبيرة وبيوت جميلة وهما على جانب عظيم من اللطف ودماثة الاخلاق . ثم اني عدت تنسن في دائه الذي اناخ عليه منذ ستة اشهر واخاف انه لا يشفى منه لانه ابن ثمانين سنة. وقد سرّني ان وجدته يتحمله بالصبر وبلا اقل خوف من الموت على خلاف المعهود به من قبل : وقد أعدّ جزءاً جديداً من ديوانه للطبع وفيه جانب كبير من القصائد البليغة الرائعة . فهل سمعت قبلا بشاعر بلغ الثمانين وظلّ قادراً على نظم قلائد القصائد ؟

« كان الدكتور جونسن يقول انه لم يأكل قط في حياته من الثمار قدر ما اراد . ويخيل اليّ اني لم اكلمك قط على قدر رغبتي .

المخلص ب. جويت »

« كلية باليلول

« في ٢٢ مايو ١١٩١

« عزيزتي مرغريت

اشكر لك تفضلك بالكتابة الي وارجو ان تكوني الآن قد تعافيت . وعندي ان الناس قادرون على شفاء انفسهم من الامراض التي تعتريهم اذا تذرعوا الى ذلك بالفطنة والصبر والشجاعة

« وقد سررتُ بزيارة صديقَيك لي يوم الاحد الماضي . ولي امل ان يكونا صديقيَّ . ان اسكويث رجلٌ ناهيك من رجل وهو مستوف للشروط التي تمكنه من بلوغ ارفع مناصب القضاء والسياسة علاوة على كونه انيس المحضر حلو المعشر . واعجبني من صديقتك حصافة عقلها ورقة عواطفها وتنزهها عن الكبرياء والتحامل

« بدأتُ استلين مضجعي واستلذ المكث في فراشي وذلك ليس من تراخ وكسل بل لانه يسهل عليّ التفرغ للعمل

فرغتُ الآن من تلاوة ترجمة نيومان الغريب الاطوار . وعندي انه أشد رجال هذا الجيل تصنعاً ورياءً . وعند التأمل في حقيقة ما كان عليه يأخذني العجب من الفراغ الذي شغله في عيون الناس . وقلما كان صادقاً في قوله وعمله . ان الصدق في الغالب حمل ثقيل على البشر ولكنهم لا يستطيعون السير بدونه

« هو ذا ساعي البريد على الباب والساعة ١٢ . وقدومه اثقل على الطبع من قدوم جابي الضرائب

« اتمنى لك نوماً هادئاً واحلاماً سارة واتوقع ان اراك مع اللادي ويمس . ودمت لصديقك المخلص

ب . جويت »

« كلية باليول

« في ٨ سبتمبر ١٨٩٢

« عزيزتي مرغريت

« طالعتُ كتابك الرقيق اللطيف فكان اجمل عزاء لقلبي الاسوان ونفسي الحزينة على فقد نتاشب المأسوف عليه كل الاسف وحقاً ان فقده خسارة كبيرة على اكسفرد لا تعوض . لانه كان من خيرة الرجال النوابغ . وقد مات موت الابطال والشجعان حاضاً الادلاء ان ينبذوا عنهم الجبن جانباً ويخلصوا انفسهم . وكان محبوبا جداً من تلاميذه لانهم علموا يقينا انه كان يعنى بهم عناية لا توصف

« وقد اطلعت على بعض آثاره القلمية . وله علاوة على ماقرأته بحث مطول في افلاطون في كتاب سماه (اليونانية) وهو غاية في الجودة . والباقي مما كتبه قليل جداً . ولو فسح الله في اجله لزاد واجاد . وكان فوق ذلك خطيباً بليغاً حسن الالقاء . والمستر اسكويث يخبرك بما يعرفه عنه

« وقد جاءني كتب تعزية كثيرة عن وفاته . ولكن كتابك كان ابلغها كلها في الاشتمال على التعزية القلبية الحقيقية . وذلك ما اشكره لك من صميم فؤادي

وقد علمتُ الآن انك وطنت نفسك على الكتابة والتأليف فحسناً تفعلين . انه عمل شاق يتطلبُ شيئاً كثيراً من التفرغ له والاهتمام به . ولكنه من اسر الاعمال وابهجها . فامضي فيه موفقة واتحفيني بما يخطه يراعك لاطالعه بملء السرور

« كلية باليول

« في ٢٧ ديسمبر ١٩٢ ١

« عزيزتي مرغريت

« اطلعت على مقالتي اللادي جان وسرّني جداً انك لم تكتبيها ولا كتبت شيئاً من هذا النوع . لان انتقادات كهذه للهيئة الاجتماعية التي بعضنا فيها ، يحيا ويتحرك ويوجد ، ليست من الصواب في شيء . وذلك لان بناء الهيئة الاجتماعية او نسيجها من الاسرار التي لا يحق لنا المداخلة فيها والتعرّض لها. ولا يصحّ الكلام عنها في محادثاتنا الانفرادية ان يتجاوز حدّ المسارة والهمس. واني لمقتنع كل الاقتناع بان هذا أمر لا يجوز الكلام عليه . ومهما يكن السعي في اصلاح فساده وتقويم اعوجاجه — سواء كان مني انا رئيس احدى كليات اكسفرد أو منكِ أنتِ احدى سيدات الطبقة العالية [ولا أجهل انك لا ترومين ان تلقبي هكذا— فهذا السعي يجب ان يُبذل بما لا مزيد عليه من الهدوء والسكوت

« تزعم اللادي جان ان العالم يسهل اصلاح شأنه اوعلى الاقل تحسين حالته لولا حديثو النعمة او جديدو الثروة فيه . وبهذا المعنى كلمني بعض اساتذة ايتن . اما انا فيعجبني قول صديقتنا العزيزة اللادي ويمس « ان الذين ساءت احوالهم من قدماء الاغنياء يحسدون حديثي العهد في الثروة والغنى » فعلينا ان نبذل جهدنا في التأليف والاتحاد بين طبقات الهيئة الاجتماعية ولا يجوز ان

نظاهر طبقة منها على طبقة أخرى

« لقيتُ الليلة البارحة صديقك المستر اسكويث . وهو باق على عهدي به من حيث التواضع ولين الجانب . فلم أر عليه أقل أثر للانتفاخ او الافتخار بمنصبه الجديد [١] السامي . أما مستقبل هذه الوزارة فمحفوف بالريب والشكوك

« وأرجو ان كل شيء يجري على مشتهاك . أطلعيني على افكارك . شرعتُ في مطالعة كتاب اللورد ملنر . واني معجب به كل الاعجاب . لانه من أهم ما تلذ مطالعته وتجل فائدته .

صديقك المخلص ب . جويت »

« كلية باليول

« في ١٣ فبراير ١٨٩٣

« عزيزتي مرغريت

« أودُّ ان أحدثك عن أمور كثيرة . وارجو ان لا تقولي لي كما قال جونسن لبوسول « ليس عندك ياسيدي سوى موضوعين وهما أنت وأنا . وقد مللتهما كليهما »

لقد سرني نجاح المستر اسكويث . واني أرى فيه ثقة الرجل العظيم بنفسه — قوة وبساطة واستقلالاً وتفوقاً . ولقد اسعدك الحظ جداً بان مكنك من مصادقة ثلاثة رجال مثل المستر اسكويث

---

(١) وزير الداخلية

واللورد ملنر والمستر بلفور . وان لم يكونوا اعظم رجال عصرهم فهم بلا شك من اعظمهم

« وارى المستر بلفور غير صالح لقيادة حزبه خارج الحكومة أو في المعارضة كما يصلح لها عند ما يكون زمام الحكم في يده فهو في أثناء توليه زعامة حزب المعارضين يسرف في التطاول والافتئات وينقصه شيء من جلالة القدر ورفعة الشأن . واخاف عليه من اختلال التوازن وتغيير مركز الثقل . ويرجح عندي انه سيضطر مثل السر ر. بيل الى العدول عن كثير من آرائه في أثناء الثلاثين سنة المقبلة والا فالتمادي في خطته الحاضرة يكرهه أخيراً على ترك مباحثه السياسية [في نقود المعاملة والكنيسة والاشتراكية]

« ترى هل يكون هذا آخر يوم من حياة غلادستون في مجلس النواب ؟ ومن اكبر المحزنات ان نراه يحاول آخر مرة عرض ما يكاد يكون مخالفاً لما كان يعتقده في حياته كلها . . واني لارجو انه يتصرف تصرُّفاً حسناً شريفاً . وسيان حينئذ ان عاش مدة طويلة أو مات كاللورد شاتام بعد بضعة أيام . ويظهر لي ان وزارته لم تسيء التصرف في الاسبوعين الاخيرين . فان رجالها سعوا في ازالة ما علق بالاذهان من جهة كونهم انصار الخلل والعبث بالنظام . ولعله يهمكِ ان تعلمي اني اشعر في داخلي بميل الى حزب الاحرار يرجح على ميلي الى حزب المحافظين . وعلى كل

أرى سعي كلا الحزبين في ان يبغت الحزب الآخر باظهار تفوقه عليه في الهوادة والتساهل والتنزه عن التعصب قد افاد انكلترة فائدة عظيمة . »

« هدنتن هل

« قرب اكسفورد

« في ٣٠ يوليو ١٨٩

« عزيزتي مرغريت

« حدثتني الآنسة نيتنغايل عن الشعور المعبر عنه غالباً بالحب لكنها كانت بطلة او الاهة

« ان المغازلة أو مطارحة الحب أمر ذو شأن وان سخرت به الهيئة الاجتماعية . ولعلها تفعل ذلك لتسبر غور العشاق وتقف على صحة دعوى أهل الشوق والغرام

« وليس بخاف عليكِ يا عزيزتي اني بلغتُ سن الشيخوخة ولستُ من المعروفين بشدة رقة الشعور ولا من المولعين بالتصورات الغريبة في مثل هذه الامور . ولكني مستعد ان ابذل ما استطيعه من الجهد لارشاد من يعنى بنصحي ووقايته من التعرض لارتكاب الخطاء من هذا القبيل

«فأهم ما اراه في مسألتك جديراً بالاهتمام انما هو مشكلة الاولاد. افلا تعممين نظرك في هذا الامر وتستعينين برأي والدتك فيه ؟ . فبالامس كنت في مرقص حافل بالمقنعين والمقنعات كما

قلت لي وبعد بضعة أشهر تكونين منصرفة للعناية بخمسة أولاد ومعرضة لتحمل ثقل الاهتمام بما يطرأ عليهم من الامراض والمكاره. ومع انهم ليسوا باولادكِ فانت مضطرة ان تكوني أماً لهم. وهذه الحالة ستبقى على هذا المنوال مستغرقة اكبر جانب من حياتكِ. وهذا الفرق العظيم الذي سوف تقضي الضرورة بوقوعه اعني بين حالتك الماضية وبين حالتك المستقبلة هو أعظم مما يقوى الطبع البشري على احتماله. نعم انه اشرف منوال للحياة ولكن هل انت قادرة عليه؟ فان آنست من نفسك المقدرة الكافية فاني مذ الآن اقول لك « بركة الله عليك أيتها الفتاة الباسلة!» ولكني لا أودّ ان تخفي عن نفسك شدة خطارة هذا الامر. لانه لن يبقى في استطاعتك ان تكوني زعيمة سيدات الطبقة العليا ومربية خمسة أولاد في وقت واحد

« هـذا من وجه. اما من الوجه الآخر فان لديكِ رجلاً حسبكِ من رجل. بالغاً ما شئت من الحذق والذكاء، ومتحلياً باحسن الصفات. وقد ترقى الى منصب يحسده عليه كثيرون من كبار الرجال. وقد كنت اكبر معينة له على ذلك بما لك من المعرفة الواسعة والخبرة الطويلة في شؤون العالم. وستعترف لك الهيئة الاجتماعية بالفضل وتوفيكِ حقك من الثناء والشكر وتتمنى لك اكبر نجاح وأعظم أجر. وان استطعت القيام بما وطنت نفسك عليه بلغت اسمى مقام في الحياة واحرزت ابقى فخر

« قرأت اليوم ترجمة هيوم التي كتبها بنفسه . وهي شائقة ومؤثرة الى الغاية . وانك تجدينها في مقدمة كتابه تاريخ انكلترة فبين المعدودين كفرة ملحدين كثيرون من القديسين مثل هيوم وسبينوزا وغيرهما من الذين أسلمتهم الكنيسة الى النار الدائمة الاستعار

صديقك المحب المخلص

« باليول ب . جويت »

« يوم الاحد سنة ١٨٩٣

« عزيزتي مرغريت

« لقد اصبت بقولكِ ان الراحة والسلام أهم ما نحتاج اليه في هذه الحياة . فيكفينا ان نعمل بما أُوتينا من المعرفة . ولا حاجة بنا لان نحمِّل انفسنا مالا يطاق من العناء في محاولة فهم العقائد الدينية التي يعسر ادراكها · ولا أن نقلق ونضطرب من جهة الحقائق التاريخية كالمعجزات وغيرها مما تغير رأي العالم فيه على كرور العصور . ويدخل في هذا الباب بعض المسائل مثل قولنا هل قام ربنا من الاموات بالمعنى الحقيقي الذي تدل عليه هذه الكلمات . فهذا السؤال يختلف كل الاخلاف عن السؤال هل نقتدي به في حياته

» ويسرني انك تهتمين بهذه المسائل · وبملء الابتهاج ارتاح الى محادثتك عنها . وكل ما عندي لاقوله عن الدين ينحصر في كلمتين لاغيروهما **الحق والصلاح** . ولا ارضى ان يكون

أحدهما بدون الآخر . ولكن لو خيرت فيهما لاخترت الحق ومن رأيي انك تستطيعين ان تعرّفي الدين بانه التسليم المطلق لمشيئة الله ونظام الطبيعة . وقد يكون له تعاريف أخرى كلها صحيحة ولكن ليس فيها ما يلائم اخلاق البشر مثل الاقتداء بالمسيح او الحق الذي في جميع الاديان فانه وصف شامل له ومنطبق عليه . . واني أرى الدين المسيحي يتناول في اتساعه كل اطوار الحياة واحوالها ثم يعود الى قلوبنا وضمائرنا وعندي ان الطريقة المثلى للتأمل فيه هي النظر اليه عن طريق سيرة أهل الصلاح في كل زمان ومكان سواء كانوا مسيحيين او غير مسيحيين كسقراط وافلاطون ومرقس اوريليوس والقديس اوغسطينس او سيرة المسيح او يوحنا بنيان او سبينوزا . فان درس تراجم هؤلاء وامثالهم خير معوان على احياء الشعور المسيحي

«وعندي ان من ينتمي الى كنيسة يجب عليه دائماً ان يجدّ ويسعى لكي يعيش عيشة تسمو به فوق كنيسته — فوق الوعظ وفوق جانب كبير من الصلاة وفوق قانون الايمان وصيغة الرسامة والتنظيم والاميال الحزبية والاجتماعية الجمهورية. فالافراد الافاضل كانوا دائماً خيراً من الكنائس . هذا وان كنتُ لا أوافق أحد أساتذة الالمان على رأيه في ان الناس لن يصيروا متدينين حتى ينقطعوا عن الذهاب الى الكنيسة فاني أرى ان السامعين في كل كنيسة يجب عليهم ان يرفعوا نفوسهم فوق صوت الواعظ.

ومستوى فرائض العبادة

« وسأتوقع مجيئك اليّ لكي تعوديني اذا اشتدت وطأة الداء عليّ . ولكني لا أظن ان المرض الذي أعانيه الآن بالغ من الشدة مبلغاً يشغل بال أحد أصدقائي عليّ

ب . جويت »

وقد توفي هذ الصديق المحبوب سنة ١٨٩٣

وقبل وفاته بسنة اعتراه داء شديد الخطر . واليه أشار في رسالته الاخيرة . وجميع اصدقائه توقعوا وفاته به. وكان قد املى على كاتبته الآنسة نيت رسائل وداع بعث بها الى اصدقائه . فلما وصلتني هذه الرسالة وكنتُ يومئذ في غلن قلقت أشدّ القلق وعلى الفور أسلت اليه التلغراف الآتي : —

« جويت: كلية باليول في اوكسفرد

« ارفض قبولها كرسالة وداع

المحبة مرغو »

وكان لهذا التلغراف تأثير سحري فيه . فانه ما أبطأ ان نصل من دائه وبعث اليّ بكتاب طويل تمليت تلاوته بلذة لا مزيد عليها

وكان الاستاذ يهتم أشدّ اهتمام بزياراتي له في باليول . وفي احدى هذه الزيارات سألني بجانب أي مدعو آخر افضل الجلوس على مائدة العشاء. فقلت له اني أفضل الجلوس بجانب المستر

هكسلي أو اللورد بوين . قال : —

« أروم ان يكون الى جانبك الآخر — الليلة أو غداً — صديقي اللورد سلبورن(١) »

مرغو [متعجبة] : « ومتى كان صديقك ؟ كنت أظن انك تكرهه وتعاف الاجتماع به »

جويت : « نعم ولكنه الآن صديقي . وارجو ان لا اكون قد عبته بشيء »

مرغو : « لم تقل عنه سوى انه مغرم بالترانيم الدينية وغير ميّال الى المزاح »

جويت : « اذاً قد تسرعت في اقتراحي . وسيكون مجلسك على المائدة بين اللورد بوين والسر الفردلَيل . ومن الغريب انكِ قلت لهكسلي عن ليَل انه يذكركِ احد رجال الحرب الصليبية وانه يخفي درعاً تحت ثيابه لان هذا القول نفسه سمعته عنه من أختكِ اللادي ربلسدايل »

وقد عجبت لهذا لان ذكر السر الفرد ليل لم يرد قط في حديثي مع شقيقتي شارلوت ولم نكن نعرفه من قبل

وفي تلك الليلة جلست لتناول العشاء بين السر الفرد ليل

---

(١) المرحوم ارل أوف سلبورن

واللورد بوين . ولما فرغنامن تناول الطعام جاءني هكسلي فجلسنا نتحدث وافتتحنا الكلام عن الدين

وتعدّى هكسلي حد الاعتدال في كلامه وقال ان الله انما وجد لان الناس اعتقدوا وجوده وان قوله تعالى عن نفسه « اهيه الذي اهيه » انما كان على سبيل المزاح الخ . الخ . وختم كلامه بقوله انه لا يصدق ان واحداً من رجال الجد والعمل كان مسوقاً بالهام ديني . وحينئذ استغثت باللورد بوين فاسرع الى معونتي على خصمي الغيد في هذه المناقشة الخطيرة . ولما جلس بجانبي قلت له : —

ان المستر هكسلي يطلب من باب التعجيز ان اذكر له رجل جد وعمل كان مدفوعاً اليهما بمجرد الهام ديني

بوين [مبتسما] : « نعم يجب ان نكون قادرين على اجابة طلبه . فأي رجل تذكرين ؟ »

ولاح لي ان ذاكرتي خانتني . لكنني ما ابطأت ان ذكرت على الفور وبلا تروّ : « غوردن »

واتفق لحسن الحظ ان هكسلي كان من أشد الناس اعجاباً بالجنرال غوردن واحتراماً له . فقال لي : —

« حقاً لقد افحمتني ! »

ثم تحول نحو بوين وقال له : —

« اعلم يا عزيزي بوين ان غوردن كان اشهر رجل لقيته في حياتي . وقد عرفته جيداً . وقد كان شديدالاخلاص ومنزها عن كل غرض ولم يقل شيئاً لم يعتقد صحته »

وفي زيارتي الاخيرة للاستاذ الححت عليه قبل مفارقتي له ان يحدثني قليلا عما اختبره في مرضه الاخير.فامسك يدي ورفع نظره اليّ وقال : —

« يجب عليك ياعزيزتي ان تؤمني بالله »



الفصل الثامن

في ٦ مايو ١٨٨٢ وقع حادث سياسي خطير نشأ عنه هياج في ذلك الحين . الا وهو مقتل المستر برك واللورد فردرك كفندش . ولكنا وقتئذ في لندن . وذاع خبر هذه الفاجعة في يوم أحد . واخبرني الفرد لتلتن ان اللادي فردرك كفندش سمعت الخبر من رئيس سقاتها اذ دخل الى غرفتها وقال : —

« طعنوا اللورد بسكين ! »

وما لبث الخبر ان انتشر في اطراف المدينة واصبح الحديث عنه مدار الالسنة وملء الشفاه والافواه ولم يبق أحد لم يستفظع الجناية . والكل اجمعوا على توقع نتائج تجاوز عقاب الجناة

وهذه الجناية في فنكس پارك زادت غلادستن رسوخاً في اعتقاده من جهة كون الارلنديين شعباً لم نعرفه كما يجب وانه ينبغي تنشيطه وتشجيعه على تولي حكم نفسه بيده . وكان يرجو ان يتمكن من اقناع زملائه بهذا الامر لكنه اختلف عليه هو والمستر تشمبرلن

وكما اني اسائل نفسي اية نتيجة كنا نشاهد لمؤتمر باريس لو ان بريطانيا العظمى جعلت موضوع عصبة الامم في أول برنامجها بدل وضعه حاشية او ملحقاً له هكذا اسائلها ماذا كان يحدث لو

ان تشمبرلن انحاز الى غلادستن في ذلك الحين . فقد كان غلادستن يومئذ قابضاً على ناصية الحال — كما كان ولسن في مؤتمر باريس — ولم يكن يرجح انه يتراخى . ولو ظلّ الاتفاق سائداً بينه وبين تشمبرلن لما اضطر هذا اخيراً ان يلقي نفسه في احضان المحافظين وكان مصير منصب رآسة الوزارة اليه

ولما اعلن المستر غلادستن ميله الى منح ارلنده الاستقلال الاداري هاجت الهيئة الاجتماعية هياجاً شديداً وحمي وطيس الجدال في هذا الموضوع حتى بين اصدقائه المخلصين . ووقع في بيتنا انشقاق بخصوصه وكنتُ انا في جانب المنشقين عنه والساخطين عليه . ولكن الحوادث في ما بعد ارتني اني كنتُ على جانب كبير من الخطإ فيما يتعلق باستقلال ارلند الاداري . . والآن وقد رأينا بعيوننا ولمسنا بايدينا نتائج انكارنا على ارلند الاستقلال الاداري الذي ظلت مدة طويلة مواصلة للمطالبة به فهل يبقى عندنا أقل ريب في انه كان يجب علينا ان نشدّ أزر غلادستن شداً محكماً ونظاهره على سعيه في حل هذه المشكلة ؟ اما وقد قصرنا كل التقصير في هذا السبيل فان مسألة ارلند لعنة على حياة هذه البلاد السياسية من سنين طويلة

وفي اشهر مايو ويونيو ويوليو من سنة ١٩١٤ اي قبل شبوب الحرب الكبرى بثلاثة أشهر اتحد الجميع على مقاطعتنا واجتناب الاختلاط بنا لمجرد رغبتنا في حل المسألة الارلندية. وكان حضوري

مع اليصابات — وكانت ابنة سبع عشرة سنة — في أحد المراقص يعدُّ غيظاً لغيري وخطراً عليّ. وكان جميع ارباب الاملاك في ارلند ونصف ارباب الاملاك في انكلترا قدتألبوا واجمعوا على تأييد السر ادورد كرصن وجيشه وعهده. ولما ذهب فون كهلمان كاتم اسرار السفارة الالمانية الى ارلند — ولم يزرها قبل هذه المرة — كان الارلنديون قد حوّلوا حقولهم معسكرات وبيوتهم مستشفيات وأسرعت نساء الطبقة العليا في اعداد اللفافات والعصابات للجرحى. وبعد رجوعه قال لي انه مقتنع كل الاقتناع مما رآه وسمعه بان الحرب الاهلية قاب قوسين أو أدنى فاجبته : —

« قد يزعج انكاتره وقوعها ولكنه لا يفت في عضدها »

هذا وان الخرق العظيم الذي ارتكبناه في مسألة ارلند لم يكن لعنة على حياة هذه البلاد السياسية فقط بل على حياتها الاجتماعية أيضاً

ولم اكن قط مدركة مبلغ القوة الاجتماعية التي كانت لي ولاصدقائي في اواخر القرن الماضي حتى تجدد ظهور المسألة الارلندية سنة ١٩١٤

قال لي المستر بلفور مرة انه قبلما انتظم عقد اصدقائنا الخصوصي المعروف غالباً باسم « مجمع الارواح » لم يتفق قط لمشاهير رجال السياسة المختلفين في النزعات والاميال ان يجتمعوا بعضهم مع

بعض الا نادراً . الى ان قال : —

« لن يعدّ تاريخ وقتنا هذا كاملاً الا اذا دوّن فيه ما كان لمجمع الارواح من التأثير في الهيئة الاجتماعية »

والمسألة الارلندية التي اضطربت لها الخواطر في لندن سنة ١٩١٤ كانت نارها في سنتي ١٨٨٦ و١٨٨٧ بالغة أعلى درجات الاحتدام والاضطرام . ولكن كان بيتنا في غروفنر ستريت ومجمع الارواح فيما بعد نادياً يؤمه من شاء من كبار رجال السياسة على اختلاف الاحزاب كرندولف تشرشل وغلادستن واسكويث ومورلي وتشمبرلن وبلفور وروزبري وسلسبري وهردنتن وهركورت وولي العهد وكل سفير في لندن . فلم نقاطع قط احداً ولا خطر لنا ان نلهو بازعاج أحدٍ . وكان شعارنا ان نحرص على الصداقة الخصوصية ولا نضحي بها في سبيل الاحزاب السياسية . هذا الشعار كان مرموقاً في جميع عواصم أوربا بعين الغيرة والحسد . وبه اصبحت لندن مركز أهم هيئة اجتماعية في العالم وتمهد السبيل امام اناس مختلفي الطباع والاعتقادات ان يجتمعوا ويتباحثوا بروح الرضى والهوادة . وليس في وقتنا الحاضر في امكان شخص أو جماعة ان ينشئوا مجتمعاً على هذا النمط

ففي غروفنر سكوير رقم ٤٠ اجتمع غلادستن واللورد رندولف تشرشل . وقد اشتهر ثانيهما بحملاته الشديدة المنكرة على اولهما الشيخ الخطير الجليل حتى زعم الناس كلهم انه يتعذر

اجتماعهما على مصافاة ومسالمة . ولـكن هذا الزعم لم يثنني عما عزمت عليه.فدعوتهما لتناول الغداء وكلاهما قبلا الدعوة . ولما التقيا طاب لهما تجاذب الحديث في شؤون مختلفة على ما يرام من المياسرة والمساهلة . وانتشر خبر تناولهما الغداء عندنا في لندن كلها وتواردت علي الاسئلة من كل جهة وأخذ التعجب والاستغراب كل مأخذ من جميع السيدات المشتغلات بالسياسة وفي طليعتهن دوقة أوف منشستر . وكلهن اردن ان يعرفن هل في عزم رندولف ان ينضم الى حزب الاحرار . وكنتُ أجيبهنّ عن هذا السؤال جواباً غامضاً يؤخذ منه ان حزبنا خسر المستر تشمبرلن ولـكنه سيتعوض رندولف تشرشل

وكانت ادوقـة منشستر [وهي التي صارت فيما بعد دوقة ديفونشير (١)] آخر من عرفتُ من زعيمات سيدات السياسة في هيئة لندن الاجتماعية . ولم يكن سرّ قوتها ونفوذها منحصراً في سموّ منزلتها ورفعة مقامها — لان كثيرات غيرها غنيات وعظيمات وذكيات ولهنّ افخم القصور — بل في مرونة طبعها ودقة انتقادها ورقة شعورها وقوة تمييزها وشدة حرصها على العدل والانصاف . وكانت مستودعاً أميناً لاسرار غيرها كما

(١) لانها اقترنت بالمركيز هرنتن الذي صار فيما بعد دوق أوف ديفونشير

لاسرارها الخصوصية . وقد اضافت الى جسارتها الفائقة وبسالتها المتناهية كرم النفس وحنو القلب . وقد سمعتها باذني توبخ ضيوفها وتسخر بهم من ولي العهد الى رئيس الوزارة

سألتها يوماً عن رأيها في سيدة شهيرة ازعجتنا كلنا بشدة غطرستها وغرورها وغلاظتها فاجابتني « ان شدة كرهي لها تحول دون صلاحيتي للحكم عليها »

وحدث بعد هذا الوقت بعدة سنين انها تناولت العشاء عندنا ثم خلت بي للمحادثة . وفي أثناء الكلام التفتت اليّ وقالت : —

« اني ارى بيننا يا مرغو مشابهة شديدة »

وكنتُ ارى انه يتعذر وجود شخصين يختلفان احدهما عن الآخر اختلافاً أشدّ مما كان بيني وبين دوقة ديفونشير — ادبياً وطبيعياً وعقلياً — ولذلك سألتها عن وجه الشبه بيننا فاجابت : —

« كلتانا مقترنة بعلاك . فعند ما يتوفى الله هرنتن يذهب رأساً الى السماء » — [رافعة ابهامها الى ما فوق رأسها] — « وهكذا المستر اسكويث · اما اللوردسلسبري فليس كذلك » [خافضة أصبعها الى ارض الغرفة]

وفي أحد أيام سنة ١٩٠١ كنتُ أنا وزوجي نازلين عندها. وكان هناك عدد كبير من الزائرين وبينهم ارثر بلفور وتشمبرلن وقبل نزولنا الى غرفة الطعام لتناول العشاء دخل زوجي هنري الى غرفة النوم المعدة لي وقال انه جاءه تلغراف ينبئه ان الملكة

فكتوريا مريضة جداً . وطلب الي ان اكتم هذا الخبر ولا ابوح بسره لاحد . وبعد الفراغ من تناول العشاء طلبت اليّ حفيدتا الدوقة وهما اللادي الدرا واللادي ماري اتشسن ان اشاركهما في لعبة « البلانشت (١) » فاجبت طلبهما ووضعت يدي على اللوح وأملتُ اذنيّ الى سماع ما كانت الدوقة تقوله وانا خالية الذهن . وبعد ما كتبتْ أنا واللاعبات معي بضعة أسطر ممحوة مطموسة نزعت احدانا الورقة عن اللوح وقرأت بصوت جهير : —

« الملكة تموت . فاية ملكة هذه؟»

فاحطنا كلنا بها ونظرنا الى الكتابة الهيروغليفية وقرأتُ منها : —

« الملكة تموت »

ولو اننا نحن الثلاث اجتمعنا معاً وقضينا الليل كله سعياً في كتابة هذه الجملة لما امكننا ذلك

ولقد اختبرت بنفسي عدة حوادث عرضت لي من قبيل تراسل الافكار والمناباآت الخفية الاثر . ومع شدة تخطئتي لمن ينكرونها لا ارى فيها ما يصح نسبته الى الدين اكثر مما الى التلغراف اللاسلكي . بل اني اعجب لاناس يلتمسون لانفسهم عزاءً بما يصغون له في جلسات يخيم عليها الظلام الحالك

---

(١) لعبة تستخدم في سبيل مناجاة الارواح

حضرتُ يوماً انا وشقيقتي لورا احدى هـذه الجلسات في غرفة مظلمة حسب العادة . وكانت الوسيطة مدام بلافتسكي وهي يهودية روسية . وكانت الغرفة غاصـة بالحضور ومعظمهم من السيدات . واذ لم اجد كرسياً خالياً بالقرب منها جلست على مقعد بجانب الشباك . وبعد ما فرغنا من تناول الشاي نظرنا اليها فرأيناها تتنهد وتضطرب وترتعد ارتعاداً هاج خواطرنا كلنا . ولما سألناها عن اسباب هذا الاضطراب المفاجىء قالت : —

« مرّ قاتل تحت شبابيكنا »

فأخذ الرعب مأخذاً عظيما من اكثر السيدات الحاضرات فسألنها بلجاجة واحترام كيف عرفت ذلك ؟ وبماذا شعرت ؟ وهل نظرت القاتل ؟ وهل تعرفه اذا رأته ؟ واذا عرفته فهل يطاوعها ضميرها ان لا تسلمه الى الحكومة ؟ . واقترحت احدى السيدات ان نسرع كلنا في الذهاب الى اقرب مركز للبوليس قائلة ان حادثة كهذه ان امكن اثباتها تغني عن كثير من الوسائط المستخدمة لتبديد سحب الشكوك في مناجاة الارواح . واذ كنتُ اقرب الجميع الى الشباك اطللت منه ونظرت الى الشارع متقصية باحثة عن القاتل ولـكنني لم ار اثراً لشخص ما على الاطلاق

واتضح اخيراً ان مدام بلافتسكي مخادعة وقحة

والآن أعود الى الكلام على زيارتنا لدوقة ديفونشير فاقول ان مضيفنا الدوق ديفونشير نفسه كان رجـلا منقطع النظير .

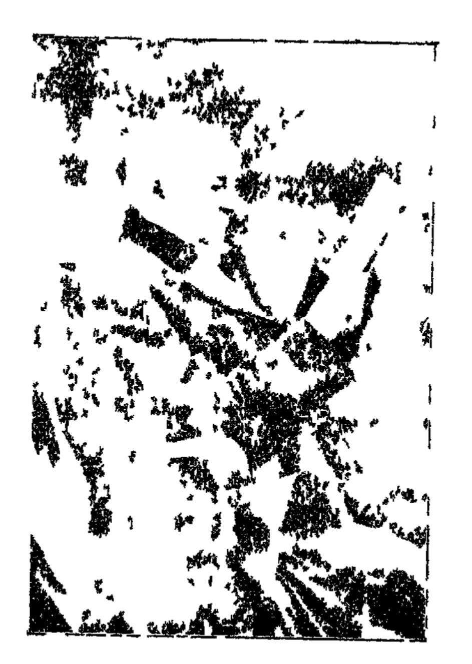
وحقاً انه نسيج وحده وفريد عصره ولا يمكن ان يكون غرسه الزكي قد نبت في غير تربة انكلترة . فقد أوتي حكمة لا حدّ لها وحرية ليس فيها أقل أثر لسلطة اهواء نفسه عليه وصدقاً منزهاً عن شوائب الخوف واباءً نقياً من كدر الخسة والدناءة

لما زار انكلترة المستر بريان الخطيب والسياسي الاميركي المعروف وسمع هدير مدافعها الصحمة — اعني خطب كبار رجالنا — كروزبري وتشمبرلن واسكويث وغيرهم سأله بعضهم عن رأيه فيهم . فقال اما امثال تشمرلن فى اميركا فكثيرون وفي وسعها ان تنجب نظير روزبري او اسكويث . اما هرتن — يريد دوق ديفونشير — فليس في الامكان ان يوجد له ثان

وكان الدوق والدوقة اعظم من عرفتهم في صباي من قادة السياسة وزعماء الهيئة الاجتماعية بعد البرنس والبرنسس اوف ويلس [الملك ادوارد والملكة الكسندرة فيما بعد]

وقد اتضح لي ان الموت كان اعظم شيء تخافه الدوقة ولذلك كانت تتطير من مشاهدة مواكب الجنازات وتعد ملاقاة مركبة الموتى في الطريق من اكبر علامات الشؤم . ولما حادثتها مرة في هذا الموضوع قالت لي : —

« اتعنين ياعزيزتي انك لا تبالين بالموت ؟ اذاً قولي لي بماذا تشعرين من جهته » . فاجبتها بكل اخلاص اني لا ادّعي عدم المبالاة بالموت وهو اهم شيء اعي به ولكني لا اخافه . واذا



مستر گلادستن

اتفق اني لقيت في طريقي مركبة موتى او مركب جنازة وقفت لها او مررت بها غير مكترثة ولا مبالية

ولما سألتني يوماً ما هو أعظم شيء يلذ لي الاهتمام به بعد الصيد قلتُ لها هو البحث في الشؤون السياسية وزدت على ذلك قولي لها اني طالما تنبأت باني سأقترن برئيس وزارة وأعيش بين كبار رجال السياسة . فسرها كلامي هذا الى الغاية

وأول من ضافنا من مشاهير رجال السياسة في ايام حداثتي المستر تشمبرلن والسر تشارلس دلك . وكنا فيما بعد عند ما ألّفنا « مجمع الارواح » نتساءل فيما بيننا من ياترى يحوز قصب السبق على غيره في ميدان السياسة ؟ اجورج كرزن أم جورج وندهام ام هري كست ؟ وهكذا كان الناس في تلك الايام السالفة يتساءلون من جهة تشمبرلن ودلك اما انا فكنت على حداثة سني لا ارى أقل صعوبة للجزم من أول وهلة بان تشمبرلن يسبق « دلك » وكثيرين غيره . ومن الخطإ الفاضح ان غلادستن لم يوسع له محلا في وزارته سنة ١٨٨٦!

لم يخدع المستر تشمبرلن نفسه قط . وهذا اعظم ما يمكن ان يقال عن بعض مشاهير رجال السياسة في تلك الايام وكان من حيث الذكاء وفصاحة اللسان وبلاغة الحجة بالغاً مبلغاً لم يستطع دلك ان يدانيه فيه . وقد أُتيح لي ان سمعتهما كليهما يخطبان فوجدت الفرق بينهما عظيما جداً . نعم ان ابي اعجب بالسر تشارلس

دلك اعجابه بكل من كان غلادستن راضياً عنه ومظاهراً له . ولما زارنا هـذه المرة في غلن بالغ في اكرام وفادته والترحيب به . وبعد ما سمعته يتكلم ساعات متوالية بلا انقطاع قلت لشقيقتي لورا : —

« قد يكون المعياً شديد الذكاء ولكنّ كلامه جافٌ ليس فيه قطرة من ندى الرقة والنضارة . واقواله كثيرة القشر قليلة اللب . فلو كان حصاناً لما اشتريته ! »

وقد وافقت لورا على كلامي هذا كل الموافقة

وفي مساء اليوم التالي لقي ضيفنا الكريم لورا في الدار فقال لها : —

« ان قبّلتِني اعطيتكِ صورتي موقعاً عليها بامضائي »

فاجابته : — اشكر لك ذلك أيها المستر تشارلس . ولكني ارفض قبول ما عرضته عليّ اذ انه لا حاجة لي بالصورة على الاطلاق»

. . . .

كان المستر غلادستن اعظم سياسي في عصرهِ وأهم رجل كثر عدد الراضين عنه والساخطين عليه

وبعد ما رجعتُ من زيارتي الاولى له في هواردن بعث اليّ بمقطوعة بليغة نظمها موشحاً التزم فيه قافية اسمي [مرغو] ونوّه بي فيها أعظم تنويه وأشار اليّ بابدع الاستعارات واجمل التشابيه. وكان تاريخها ١٧ ديسمبر ١٨٨٩ . وبعد اطلاعي عليها كتبتُ

اليه في التاريخ نفسه ما يأتي : —

« الى الاجل الاعز المستر غلادستن

« طالعتُ الساعة ابياتك الشائقة الرائقة فاسكرني رحيق بلاغتها . وخلب لبي سحر بيانها واذا بدأتُ بالشكر لك والثناء عليك وجب ان تنتهي الحياة قبلما ابلغ نهاية الشكر والثناء . انك العزيز الغالي في عيون محبيك وقلوب مريديك . وقد يتعذر عليّ ان أصدق انك تكون غداً ابن ثمانين سنة . لكنني أود الافتكار في ذلك لانه يُتيح لمعظم الناس فرصة التأمل في الحياة وكيف يجب ان يحيوها من غير ان يقضوها »

« ومامن بركة أو سعادة الا تمنيتُ من صميم فؤادي شمولك بها وحصولك عليها

« واني بملء المحبة والاخلاص ابقى صديقتك المحبة

مرغو تننت »

وقد وجدت بين اوراقي يومية قديمة وصفت فيها اجتماعي بالمستر غلادستن بعد وفاة شقيقتي لورا قلت فيها : —

« يوم السبت الواقع في ٢٩ مايو سنة ١٨٨٦ زارنا المستر غلادستن وعقيلته في غروفنر سكوير رقم ٤٠ . فرحبنا كلنا بهما حسن ترحيب وبالغنا في اكرامهما . وبعد الغداء خلوت بالمستر غلادستن في مقصورتي لاني كنتُ في أشد اشتياق للتمتع بلذة حديثه ولم اجتمع به منذ وفاة اختي لورا

« وفي اثناء حديثنا عن لورا سألني هـل كانت تتكلم عن الموت ؟ فاجبته : — نعم . وقد كتبت عنه كتابة تدل على انها على انها لم تستخف به ولكنها لم تخف منه . ثم اطلعته على بعض الصلوات التي كتبتها عفو القريحة بلا ترسل ولا تعمل . فاطال تأمله فيها بخشية واهتمام لا مزيد عليهما ثم قال لي : —

« ، قلّ من يصعب عليه الايقان بان مخلوقة نادرة كاختك ناعمة الآن ببركة الله ومجده في السماء ،

« ثم صعدت الينا عقيلته ودار الحـديث بيننا على انتقاد لورنس اوليفنت لعادة زيارة قبور الاحباء والاعزاء . فصوبت عقيلته الانتقاد وشددت النكير على هذه العادة . اما هو فخالفها في ذلك بقوله : —

« ، ينبغي للمرء ان ينشط الى التماس العزاء بما يمكنه الحصول عليه من التذكارات المحسوسة . ومن المحقق عندي ان في زيارة الرموس عبرة وذكرى للنفوس ،

« ثم جاء أبي وامي ونزلنا كلنا لنتناول الشاي . وكانت هذه الزيارة قد روّحت نفسه وجدّدت نشاطه وراحته ولو وقتاً قصيراً من مشاق اعماله وتكاليف جهاده السياسي المتواصل فطابت نفسه وارتاحت الى الكلام فطفق يحدثنا عن امور مختلفة كلها مما يشوق استماعه ويلذ اجتناؤه . ومما قاله لنا انه آسف جدّ الاسف على اضاعة فرصة التعرف بالسر ولتر سكوت والدكتور ارنو

واللورد ملبورن

« ولما اراد الرجوع الى دونن ستريت ذهبتُ به في مركبتي وسرنا حول الحديقة الى نيتسبردج وهو يشنف أذني ويطيب نفسي بالاماليح والنوادر والمباحث الجامعة بين الجد والهزل . وكان من وقت الى آخر يُسرُّ ويطرب بما اقصه عليه من النكات التي يخطرها سياق الكلام ببالي . وقد اضحكه على الخصوص ما ذكرته له عن اللورد كبرلي لما كان حاكم ارلند . فانه جاءه يوماً كتاب هذا نصه : —

« ، سنتعمد غداً قتلك أيها اللورد في عطفة كلدر ستريت . ونروم ان تعلم انه ليس في عملنا هذا شيء ضدك انت شخصياً ! ،

« وهنا انتقل على سبيل الاستطراد الى الكلام عن ذكاء الارلندي ونشاطه وحسن صفاته فهاجني ذلك وقلت معترضة ان الارلندي كنود ينكر الجميل وجموح يطمح الى غير غرض . فاجابني قائلاً ان روح الدفاع عن النفس يخلق اخس الرذائل حتى في اشرف الامم . والارلنديون من جيل الى جيل يدب في عروقهم كره الحكومة الانكليزية . الى ان قال : —

« ، ان المحافظين بلا رجاء ولا ايمان . فترين افضل رجالهم شديدي الاحتفاظ بمصلحة الطبقات وروح قدم العهد . وهذا الامر الاخير قد نسي ذكره ولم يبق سوى مصلحة الطبقات . كان دزرائيلي (اللورد بيكونسفيلد) زعيما كبيراً للمحافظين . ويسوءني

ان ارى البعض يزعمون ان رندولف تشرشل جدير بان يكون خليفة له . لانه يعوزه كثير من النبوغ والصبر وبعد النظر وغيره مما كان دزرائيلي معروفاً به ،

« ولما انتهى بنا المسير الى رقم ١٠ في دونن ستريت اوقفت المركبة فخرج المستر غلادستن والتفت الي رافعاً برنيطته بيده وشعره الابيض يموج على جبهته ورداؤه الاسود مرخى على كتفيه وقال لي بارق لهجة والطف نغمة انه سر جداً بنزهته في مركبتي ويرجو ان تسنح له مثل هذه الفرصة مرة أخرى وان لهجة صوتي وطريقة حديثي تذكرانه باختي لورا . وكان محياه مغشياً بسحابة القلق والاهتمام . فودعته ورجعت ادراجي وعيناي مغرورقتان بالدموع »

جلس زوجي يوماً يحدثني عما يعرفه من ميل غلادستن الى النكات والمفاكهات فقص علي الحادثة الآتية قال : —

« حدث في أثناء عرض لائحة استقلال ارلند الاداري في فصل التئام مجلس النواب سنة ١٨٩٣ اني جلست بجانب المستر غلادستن في صدر مجلس الامة المختص باعضاء الوزارة ولم يكن منهم احد غيرنا كلينا . وكان مطبقاً عينيه بعض الاطباق وهو موجه كل انتباهه الى المناقشة الدائرة في المجلس عن سلطة البرلمنت . ثم التفت الي بغتة وعلى وجهه سيماء النشاط والانتعاش وقال : —

« « هل خطر قط ببالك ان تعلم من هو اسمج رجـل في حزب المعارضين ؟ »

اسكويث : « نعم. وهو بلاريب ك . (مسمياً رجلاً سياسياً مشهوراً وكان هندياً انكليزيّ الاصل)

« غلادستن : « اخطأت . فان ك . سمج كما قلت ولـكن ي . اسمج منه (مسمياً أحد مستشاري الملكة في ذلك العهد)

« اسكويث : « ولماذا هذا التفضيل ؟ »

« غلادستن : « ذلك يتضح لك اذا تصوّرت امكان تكبير حجمهما الى اقصى حدٍ يستطاع فتجد سماجة ك . لائحة امامك كأنها تتضاءل وتصغر . وأمّاي . فكلما كبرت حجمه زاد خسة ولؤماً » »

. . . .

عرفتُ سبعة من رؤساء الوزارات وهم غلادستن وسلسبري وروزبري وكمبل بنرمن وارثر بلفور واسكويث ولويدجورج وكلّ منهم يختلف عن غيره في شيء . وسألت ارثر بلفور يوماً هل من اختلاف ذي شأن بينه وبين خاله ؟ وبعد ماوصفت خاله على قدر ما أعرفه عن سعة معارفه وحسن تدينه وشدة ميله الى المفاكهة والمزاح قال : —

« الفرق بيننا انه هو محافظ وانا من حزب الاحرار »

وكان المرحوم اللورد سلسبري يعجبني منه رقـة احاديثه

وبلاغة خطبه . وكان يخيل اليّ انه قادر على الدوام ان يفوقني في نباهة الشأن وسرعة الخاطر من حيث لا أدري . وقدسألني يوماً عن رأي زوجي في ابنه هيو كخطيب او متكلم في مجلس النواب فاجبته : —

« لا اقول لك لانك لا تعرف شيئاً عن زوجي فلا تقدر رأيه قدره. ثم انك أيها الورد سلسبري لا تعرف شيئاً عن مجلس نوابنا . وبالامس قلت على مسمع الجمهور انك لم تنظر بارنل قط»

فقال مشيراً الى صدرته : « ان جسمي اضخم من ان يسعه احد المقاعد الضيقة في رواق الاعيان في مجلس النواب ! واظنك لم تنصفيني في حكمك عليّ من جهة زوجك . لاني كنت في طليعة المتنبئين بان امام المستر اسكويث مستقبلاً باهراً . لاني لا ارى نداً له بين ابناء جيله بل بين من هم دونه سناً . والآن افلا تشفين نفسي وتبرئين سقمها فتقولي لي ما رأيه في ابني هيو ؟ »

حينئذ قلتُ له ان زوجي يعدّ اللورد هيوسسل ابرع متكلم في مجلس النواب وفي غيره فاستطرد سائلاً : —

« اترينه يظل على رأيه هذا اذا سمعه يتكلم على غير مواضيع الكنيسة ؟ »

فاجبته : « ثق يا حضرة اللورد ان اسكويث سمع ابنك يخطب في شؤون مختلفة ولم يتغير قط رأيه فيه »

ثم سألته : « هل سمعت المستر تشمبرلن يتكلم » (وكان

تشمبرلن حينئذ وزير المستعمرات)

سلسبري : « اتسألينني سؤالاً كهذا وقد سمعته يتكلم بعد ظهر اليوم ؟ »

مرغو : « أين سمعته ؟ وعمّ تكلم ؟ »

سلسبري : « سمعته في غروفنر هوس . وقد تكم عن ..؟ عن .. ؟ (متفكراً) . عن الفسالات الاوسترااليات أوعن شيء آخر كهذا »

مرغو : » وما رأيك فيه ؟ »

سلسبري : « اظنه وفّى الموضوع حقه من الكلام »

مرغو : « افلا تظن الناس يبغضون المستر تشمبرلن الآن كما كانوا يبغضون غلادستن ؟ »

سلسبري : « ان بينهما فرقاً عظيما . ان كان بعض الناس قد ابغضوا المستر غلادستن فان الذين احبوه كانوا كثيرين جداً . أما المستر تشمبرلن فهل يحبه أحد ؟ »

وقد زارني يوماً بعد ما دار بينناهذا الحديث ومعه صورته موقعاً عليها بخط يده . ولما كنتُ من حزب الاحرار فقد استنكرت موضوع حماية التجارة الوطنية الذي عرضه المستر رتشي الذي كان حينئذ وكيل خزانة الدولة واضعاً ضريبة على الحبوب . وكان حزب المحافظين وزعيمهم المستر بلفور رئيس الوزارة في ذلك الحين لا يحسنون التصرف من هذا القبيل .

فافتتحت حديثي معه عن ابن أخته وعن المسألة المالية وسألته : —

« الا توجس على انكلترة خوفاً من خطر قبولها لمبدإ حماية التجارة ؟ »

سلسبري : « كلا البتة ! نعم سنرى على الدوام بعض الحمقى يؤيدون هذا المبدا . ولكن الغلبة ستكون لانصار حرية التجارة وهل رأيت قط رجلاً فيناً مشهوداً له باصالة الرأي وهو من القائلين بحماية التجارة

مرغو: « لم افتكر في هذا من قبل. ولكن الرجل الوحيد الذي يخطر ذكره ببالي في هذه الدقيقة هو اللورد ملنر

سلسبري : « نعم ولكن على كل حال لايحسن بك ان تقلق على حرية التجارة في هذه البلاد لان فوزها على حماية التجارة محقق لا محالة . ولن يكون هذا منشأ الخوف في المستقبل »

مرغو: » اذاً مم تخاف : »

سلسبري : « ان الصعوبة التي اتوقع حصولها في المستقبل انما هي مسأله مجلس الاعيان »

مرغو (بدهشة وريب) : « اني ياعزيزي اللورد سلسبري سمعت كثيراً عن محاسن الاعيان في حياتي كلها ! وليس من يعنى باصلاح حالته السيئة . فلماذا تنبيء عنه بانه سيكون منشأ قلق وتعب ؟ »

سلسبري : « لعلك تتهميني بالغرور . ولكن ثقي بانه لاخوف

على مجلس الاعيان من هذا القبيل ما دمت فيه لانني خبير باعضائه كلهم . . انما الخوف كل الخوف بعد ذهابي منه . فحينئذ يشجر الخلاف ويشتد الخصام بينه وبين مجلس النواب »

مرغو : « كان يجب عليك ان تصلح شأنه وتقوم طريقه ! ويخيل اليّ انك مسؤول عن حالته الراهنة ! »

ساسبري (باسماً) : « ربما كان الامر كما ذكرت . ولكن ماذا تظنين في موضوع الخلاف في المستقبل . وعن أي شيء سوف يختصمون ؟ »

مرغو : « اذا صح ما قلتهُ لي من جهة تعذّر قيام حماية التجارة ففي رايي ان الخصام القادم سيكون عن كنيسة انكلترة لان حالتها على غير ما يرام »

وبعدما بحثنا ملياً في موضوع الكنيسة نهض وقال : —

« ينبغي ان اذهب . ولن اراكِ فيما بعد »

وقد آنستُ في صوته شيئاً رابني . فنظرت اليه مضطربة وسألته ممّ يشكو فاجابني انه عازم على الذهاب الى الريف . ولم ارَه قط بعد ذلك . ولما بلغني نعيه أسفتُ كل الاسف على ان فرص اجتماعي به لم تكن اكثر مما كانت



الفصل التاسع

وكانت معرفتي باللورد روزبري تفوق معرفتي للمستر غلادستن واللورد سلسبري

وفي ايام حداثتي ذهبت امي بنا الى فندق توماس في بركلي سكوير حيث اقمنا مدة اخذت فيها دروس رقص على الاستاذ الشهير المسيو المسيو دغفل . فأنشأت فيّ هذه الدروس روح الجسارة والاقدام وقال لي استاذي اني بلغت من البراعة في الفن مبلغاً يمكنني اذا شئت من تحصيل اسباب معيشتي باتخاذه حرفة لي وبعد عشر سنوات تأيدت شهادته هذه من مصدر أعلى — من لدن « كايت فوغن » الراقصة الشهيرة في المسرح المعروف باسم « غايتي تياترو »

وقد تعرفت بها على الوجه الآتي :

كان لي شغف شديد بفن التمثيل. فبدا لي ان استعين بصديقتي الآنسة «أني شلتر» — التي هي الآن من شهيرات الممثلات — ونشترك كلتانا في تمثيل احدى روايات موليير في حفلة خيرية . واتفق ان كوكلين الاصغر ابرع ممثل لروايات موليير كان حينئذ يمثل في لندن فوعد ان يدربني على تمثيل الفصل «الدور» المعين لي في الرواية وزاد على ذلك ان تبرع باعارة فرقته كلها لنستعين

بها على التمثيل فاخـذتُ عليه اثني عشر درساً وكابدت عناءً شديداً في سبيل اتقان العمل . وسُرّ ابي سروراً لا مزيد عليه بما قاله له كوكلين عني حتى انه ابتاع نسخة قديمةمن روايات موليير وطلب اليّ ان اهديها الى كوكلين . فابى قبولهـا وكتب اليّ في ذلك يقول : —

« عزيزتي مرغو الصغيرة

« اني مستاء جـداً منكِ وغير راض عنك . لاني كصديق قبلتُ ان ادربك قليلاً على بعض أمور في هذه الرواية. فلماذا لم تعامليني أنت أيضاً كصديق ؟ وعلى مَ ارسلتِ اليّ هذه الهدية النفيسة ؟ . لم يكن قط من داع اليها . لان جميع كتب موليير عندي . ولا يسوغ لكِ ان ترسلي شيئاً ولا شبه شيء الى صديقك كوك . واني سأبذل جهدي في ان اراك اليوم ان استطعتُ . نوبي عني بتقديم شكري لصديقتك مارلون . وقولي لها انها هي أيضاً غير مديونة لي بشيء . وعندي ان قليلاً من الشعور بالجميل افضل من انفس الهدايا واكرم التحف . فلنحرص كلانا على الاحتفاظ بذكرى الوقت القصير الذي اجتمعنا فيه على أحسن ما يرام . هذه الذكرى تلذُّ لي كثيراً فاذا وفيتها انت حقها من الرعاية عددتُ ذلك اكبر وفاء منك للمخلص كوك »

وتولى كوكلين بنفسه ادارة المسرح وتمثيل الفصل المهم في الرواية . ولما انتهى التمثيل وارخي الستار أخذ الحضور يتوقعون

بفروغ صبر ظهور « كايت فوغن » لتمثيل فصل رقص قصير يدعى « درس الرقص » وهو اجمل فصل رقص انفرادي شاهدته في حياتي . وكنتُ حينئذ وحدي في المسرح. فزعمت انه لا يستطيع أحـد ان يراني . فنزعتُ طوق مواليد الحرير المرصع بالازهار وطفقت اخطر في تنورتي المزركشة على نغمة الموسيقى الشائقة واذا بي اسمع صوت صارخ بلهجة اهل لندن من جناح المسرح : —

« عجباً ، كيف تستطيعين الرقص ؟ قولي لي من علمك ؟ »

فالتفتُ فرأيتُ كايت فوغن الحسناء وهي بارزة في مطرف حريري اسود ضافي الذيل وعلى رأسها قبعة صغيرة سوداء لها ذوابة من مخمل متدلية على شكل قوس فوق احدى اذنيها وهي حاسرة عن عنقها وذراعيها . ثم قالت لي : —

« اراك قادرة ان تنوبي عني عند الحاجة بكل سهولة ! واذا نقصك شيء فانني في وقت قصير أطلعكِ عليه وامكنكِ من معرفته والتضلع منه وحينئذ تستطيعين ان تنوبي عني وتمثلي جميع فصولي « ادواري » كلما حال مانع من الموانع دون حضوري »

ثم اوضحت مرادها بقولها اني اذا قبلتُ اقتراحها ورشحت نفسي للنيابة عنها جمعتُ من ذلك ثروة كبيرة . وقد دهشتُ لما علمت انها ظنتني من الساعيات في اتخاذ هـذا الفن حرفة لهنّ . ولـكنها فاقتني دهشة وتعجباً لما اخبرتها باني لم اتلق قط في حياتي درساً في الرقص التمثيلي

ولما مرضت معلمتي اعطتني كتاب توصية الى استاذها في الرقص المسيو دوبان فدرستُ عليه عدة سنوات

وفي ذات يوم رجعت من درس الرقص الى فندق توماس فوجدت ابي يحادث اللورد روزبري . فاشار اليّ ابي بالخروج . وبعد ما قبلته وصافحت ضيفه غادرت الغرفة . وفيما انا اغلق الباب سمعت اللورد يقول له : —

« ان ابنتك جميلة العينين »

ولما صعدت الى حيث كان الباقون من أهل البيت أعدتُ على مسمعهم ما قاله اللورد بملء السرور وبعض الافتخار . فاذا بهم موافقون على وصفه لولا ان بين عينيّ التصاقاً يزيد قليلا عن القدر اللازم . فأخذت مرآة ونظرت فيها ورأيت نفسي مضطرة ان اسلم بصحة قولهم

وسألتُ ابي بعد ذلك عن اللورد روزبري فقال : —

« انه أشد الشبان حصافة وذكاءً . ولا بدّ ان يتقلد منصب رآسة الوزراء يوماً ما »

برى الله اللورد روزبري مزداناً باكثر المزايا الطبيعية . فقد كان بهيّ المبسم وضّاح المحيا رقيق اللهجة عليه سيماء النفوذ والسيادة . ولما كان في جامعة اوكسفرد كان كثيراً ما يلهو عن دروسه بالاهتمام بالسباق فيعاقب على ذلك بالطرد من المدرسة — وفي هذا العقاب شاركه فيما بعد لاسباب مختلفة سيامي آخر

شهير هو المعروف الآن باسم الفيكونت غراي — ولكن لم يستطع أحد ان ينكر عليه انه كان عند ما عرفته مثال الجد والاجتهاد ونموذج الاستنارة والتهذيب. وقد هلّ هلال شهرته عند ما رأس الاجتماعات السياسية التي عقدها المستر غلادستن للبحث في بعض المسائل المتعلقة بسكوتلند . واصبح من ذلك الحين معشوق السكوتلنديين. وكنتْ كلما اشتدّ زحام الجماهير في غلاسكو او ايدنبرغ أو في محطة احداهما وسألت عن سببه لا اسمع الا جواباً واحداً وهو :

« روزبري ! »

وعندي ان اللورد روزبري لو لم يكن غنياً بهذا المقدار لكان اسعد حالا وانعم بالا . وأرى في كتاب العهد القديم افراطاً كبيراً لتقدير قيمة الغنى فالرجل الصالح الناجح تكثر مواشيه وزوجاته وقروده وعنازه وطواويسه بخلاف العهد الجديد فان المسيح يسير بنوع آخر من الكمال ويعد بثواب يختلف كل الاختلاف عن الثواب الموعود للصالحين في العهد القديم. لا يدين ربّ الثروة . ولا يعنفه على غناه. ولكنه يوضح له ان كثرة مقتنياته تحول دون سعيه في الحصول على ملكوت السموات وانه خير له ان يبيعها كلها. ويختم مشورته بهذه الحكمة البالغة :—

« ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ »

وقد كان للورد روزبري من شدة رقة الشعور ودقة الادراك

ما عاقه عن التمتع بالسعادة الحقيقية . ولما تقلد زمام الحكم كان حزب الاحرار في اسوأ حال . فاذ اضفنا الى هذا ما كان ممتازاً به من رقة الشعور علمنا مبلغ الجهاد العظيم الذي خاض غماره وتحمل اعباءه . وذهب بعضهم انه نابغة مصاب بداء دقة الشعور وسرعة التأثر وحب العزلة والانفراد . وذهب بعضم انه صعب المراس مع اصدقائه وشديد الوطأة على اعدائه . ولعل الصواب في انه مزيج مما ذهب اليه الفريقان

وقال لي عن اللورد سلسبري انه كان ابلغ خطيب سمعه . وحقاً انه كان متفرداً بهذه الموهبة . وكثيراً ما زارنا في غلن في ايام صباي فكنا كلنا نحتفي به احتفاءً يقرب من العبادة

هذا وكانت بعض الصحف الخاملة الذكر قد اشاعت ان اللورد كان عازماً على الاقتران . فافضت هذه الاشاعة الى فتور صداقتنا في السنين التالية . وقد احفظه هذا الخبر وكان من رأيه انه يجب عليّ ان ابادر الى تكذيبه حالة كوني لم اسمع به الا عند ما كنتُ في القاهرة. فجاءني كتاب من سيدة في باريس تطلب اليّ ان اختصها بشرف اعداد جهازي . ولا اعلم ماذا عرض لي بعد ذلك حتى نسيت هذا الموضوع نسياناً تاماً الى ان لقيت الورد يوما في لندن فاستقبلني استقبالا جافا اثر فيّ اشدّ تأثير. وبعد بضعة اشهر اشاعت صحافتنا الرزينة العاقلة اني سأقترن بالمستر ارثر بلفور . ولما كنتُ قد انقطعت عن الاجتماع باللورد روزبري

لانه كان في هذا الوقت ملازما العزلة والانفراد بداعي الحداد تودّدتُ الاستغناء عنه ولكني لم اطق الافتكار في احتمال خسارة صداقة ارثر بلفور لاني كنتُ أعدُّ خسارة صداقته مما لا يسهل تعويضه . على انه لم يكن بي حاجة للخوف من هذا القبيل لان المستر بلفور قلما كان يحفل بثرثرة الجمهور وهذيان الصحافة

وكان خصما اللورد روزبري وهما السروليم هركورت والسر هنري كمبل بنرمن يختلفان أحدهما عن الآخر كل الاختلاف

اما السر وليم فكان يجب ان يعيش في القرن الثامن عشر . فمن امثلة مزاحه قوله لي يوما ان النساء يجب ان يعاملن كالسمك فمن يصطاد سمكة يحتال على رفعها ثم بعد ذلك يحطها . هكذا يجب ان تعامل النساء . وقد كان على جانبٍ عظيم من سرعة الخاطر وكرم النفس وكان في ايام حداثته صعب القياد شديد التحامل متوقد الذهن كثير اللغط حنون القلب

ولما انشق حزبنا بسبب حرب البوير وكنا نحن في جانب المعارضين واصبح القول « الطرق الوحشية » ملء الالسنة والافواه كان اصدقائي الخصوصيون في أشدّ حالات الهياج والاضطراب وكان اللورد سبنسر في ذلك الحين يصحبني راكبا معي كل صباح تقريباً . فكان يشكو اليّ بلهجة الاسف من الخطة التي اتخذها زوجي . وقال ان في انفصال زوجي عن

المسالمين الممالئين للبوير خطراً على مستقبله وخاف ان انصار
هركورت يقاطعوننا ولن يكلمونا. ولما كنت أودّ آل هركورت
ولا سيما ابنهم لولو [وهو الان الفيكونت هركورت] وزوجته
وهما لا يزالان من اصدقائي الاعزاء فان انذار سبنسر ازعجني
وحدث اننا دُعينا ذات ليلة لتناول العشاء عند السر هنري كمبل
بنرمن. وكان السر هركورت وقرينته من جملة المدعوين. ولم تسنح
ي فرصة الدنو من أحدهما قبل العشاء . فلما فرغنا من تناول
لطعام وخرج الرجال من غرفة المائدة اختصر السر وليم طريقه
لي وجلس بجانبي واخذ يديّ بين كلتا يديه وقال : —

« لا يهمنك يا صديقتي العزيزة الصغيرة شيء من المنازعات
لحاصلة الآن . فالاجتماعات الجارية مساء عند اسكويث وبعد
لظهر عند روزبري كلها ستنقضي . لكن رجلك سيكون
جل المستقبل !

وكان ذلك منه لطفاً يفوق الوصف . ولما استقال غلادستن
نـدّ اللورد مورلي وزوجي وغيرهما ازر اللورد روزبري .
لو انهم نصروا السر وليم هركورت لكان من المحقق انه صار
ئيس الوزراء

. . . .

كانت معرفتي بالسر هنري كمبل بنرمن بسيطة جداً . ولكنا
كنا كلما التقينا نسترسل في الاخذ بالمطايبات السامية والمفاكهات

المضحكة . وكان مطبوعاً على الميل الى المزح والطرب وخفة الروح ومعاشرة الناس . وحدث في وليمة غداء رسمية أقيمت لاحـد سفراء الدول ان كمبل بنرمن القى خطبة بليغة باللغة الفرنسوية التي كان يعرفها جيداً فوصف ارثر بلفور الذي كان جالساً بجانبه بانه ولد السياسة الانـكليزية المدلل ووصف تشمبرلن الذي كان أيضاً في الوليمة بانه ولد مخوف

ولمـا افتتح البرلمنت في اليوم الرابع عشر من شهر فبراير سنة ١٩٠٥ القى خطبة نفيسة جمعت بين كثير من الهزل المبطن بالجد . وكان ذلك في ابان اشتداد الخلاف على المسألة المالية التي قضت بعود الاحرار الى الوزارة بعد الانتخاب العام الاول والثاني . ومما قاله في خطبته ان ارثر بلفور « اشبه بقائد اصدر امره لرجاله بالهجوم ثم وجدهم يهاجمون بعضهم بعضاً » ولما بلغ بلفور هذا الـكلام هز كتفيه وقال: «ماحيلتي اذا لم يفهموا اوامري

وعلى رغم النزاع الذي وقع في حزب الاحرار وانشقاق زوجي وغراي وهلداين تقلد كمبل بنرمن رآسة الوزارة سنة ١٩٠٥

ولما ركب الى دونن ستريت لاح للعيون متعباً منهوك القوى لان زوجته كانت مريضة من وقت طويل وكان يتحمل اشد العناء في تمريضها والسهر عليها . وزاد على ذلك تحمل عبء منصبه الجديد والسهر كل ليلة الى ساعات متأخرة في مجلس النواب . هـذا كله اضناه وضاعف وهن عزيمته وخور قواه فاضطر ان

يتخلى عن جانب كبير من عمله ويعهد به الى زوجي

وفي مساء يوم استدعى زوجي اليه في دونن ستريت رقم ١٠ وابلغه انه مشرف على الموت وشكر له كل ما عمله لاجله ولاسيما عناءه الشديد في وضع دستور جنوب افريقيا . ثم التفت اليه وقال له

« انك يا اسكويث تختلف كثيراً عن الآخرين. ويسرّني جداً اني عرفتك . . . . فليباركك الله ! »

وبعد بضع ساعات قضى نحبه

. . . .

والآن انتقل الى الكلام عن رئيس وزارة آخر هوارثر بلفور

لما كان اللورد مورلي يكتب ترجمة غلادستن قال لي ارثر بلفور — :

« ان رأيت جون مورلي فبلغيه سلامي وأوصيه نائبة عني بان يتشجع وليندفع ما شاء في الكلام بلا تحذر ولا تبصر »

ان يقدم على كتابة ترجمة يجب عليه ان يطيل الكلام فيها ويجتنب الاختصار سواء كان ذلك في مدح صاحب الترجمة أو في ذمه . ولا فرق بين من يكتب ترجمة غيره ومن يكتب ترجمة نفسه فعند ما تروم ان تكتب ترجمة عن نفسك تدون فيها سيرتك وسيرة غيرك من الاحياء ينبغي لك ان تمسك شجاعتك بكلتا يديك . وكنتُ عازمة ان اجعل هذه الجملة « سيان شنقت في

نعجة او في خروف » شعاراً لـكتابي هذا ولـكنني عدلتُ عنها لما اذاعها اصدقائي وتناقلتها الصحف

فان كنتُ قد اثبتُّ في كتابي هذا شيئاً يسوء صديقاً او عدواً فاني أحيله على المعروف والمشهور من طبعي واطلب اليه ان يحاكمني بموجبه . لم احاول قط ان احقد على أحد ولا تعمدت جرح شعور أحد في حياتي . اما في هذا الـكتاب فالواجب يقضي عليّ ان ادوّن كل ما يبدو لي بلا خوف ولا محاباة غير متوخية مراعاة شيء سوى الحق الصريح الجليّ

فآرثر بلفور لم يكن قط من حملة اعلام الشهرة ولا متفوقاً في سلامة الذوق وحسن التناول . وكان مطبوعاً على المياسرة والملاينة . وكان عند المتوسطين في المعرفة لغزاً يصعب حله — كان يصعب عليك ان تعرفه ولـكن يسهل عليك ان تحبه . قد يقال انه يتعذر على المتوسط في المعرفة ان يقف على حقيقة امر واحد من رؤساء الوزارات. ولـكن كثيرين منا لقوا غرباء فاستجلوا افكارهم واطلعوا على خفايا امورهم بلا معرفة ولا عناء . كما ان بعضنا وجدوا بعد الاختبار المدهش المحزن ان اصدقاءهم الذين عرفوهم سنين طويلة ووثقوا بهم واعتمدوا عليهم صاروا اخيراً غرباء عنهم

صعب عليّ ان افهم بلفور لاني لم اتحقق قط انه احتاج اليّ ولم يسهل عليّ ان اعرفه معرفة حقيقية لانه كان منفصلاً انفصالا

يتعذر الاتصال به . وغاية ما استطاع كثيرون منا ان يعرفوه عنه انه كان يعني بنا عناية الانسان بساعة او اناء خزف

وقـد كان — لحسن حظه أو لسوء بخته — فتاناً وسريع الخاطر . وكان عنده من قوة الفتون أواعجاب الناس واستمالتهم اليه مبلغ لم يفُقه فيه قط أحد ممن عرفتهم سوى جون مورلي. فكان يجلس لمحدثه جلسة الممتاز بمعرفة آداب الاجتماع ويبدي انتباهاً شائقاً وتأملاً دقيقاً خلاباً واستيعاباً جميلا جذاباً فلم يكن منصتاً متملقاً فقط بل كان جليساً يسهل عليه جـذب غيره اليه ويتعذر انقياده على غيره . اما ضرر موهبة الفتون فلانها تستميل كل واحد الى تمهيد السبيل امام صاحبها طول مدة حياته ولذلك قلت انها كانت فيه لحسن حظه أو لسوء بخته. وكما ان الخادمة الامينة المجتهدة تحرص دائماً على نظافة البيت ونفض الغبار عن اثاثه ورياشه هكذا كان اصدقاء بلفور كلهم يواظبون على ازالة كل عائق من طريقه وبهذه الوسيلة اراحوه من عناء الاهتمام بامور كثيرة ووسعوا له مجال التفراغ من الاعمال اكثر مما يجب ان يكون

اما سرعة خاطره التي قلتُ انها كانت أيضاً لحسن حظه او سوء بخته فقد اولته ثقة غيره بما عنده من البدائه والمرتجلات وما له من قوة التأييد لكل رأي في كل موضوع — سواء اعتقد صحة ذلك الرأي أو لا — مدعياً استصوابه واستحسانه

حسب رغبته في التخلص منك أو من الموضوع . وهذاالتخلص اما ان يكون قد تذرع اليه بما عنده من آداب السلوك أو انه ناله عن طريقة المراوغة والاحتيال . وذلكما جعل فهمه متعذرا على الرجل المتوسط في المعرفةوعظم ذنبه في عين المتعصب وصيره الهاً عند المغلاط الكثير الهفوات

اما ما اعجبني منه فوق كل شيء فلم يكن فتونه ولا سرعة خاطره ولا تضلعه من الشؤون السياسية بل كتاباته وتديُّنه

وكل من يطالع كتبه بعين التدبر والتأمل يجد أن ايمانهبالله كان منشأ حركاته وسكناته في حياته . وقد اظهر فيها شغفاً من هذا القبيل لم يخف على أحد من قارئيها وكانت تأملاته الدينية أهم الاشياء كافة عنده . وهذا ما سوغ له بعض الترددفي المباحث السياسية والشؤون الاجتماعية

وكانت أمه اللادي بلانش بلفوروهي شقيقةالمرحوم اللورد سلسبري ربة جاه ونفوذ وذات تقوى وصلاح . وقدتلوت سيرة حياتها في كتيب وضعه عنها المرحوم المستر روبرتسن قسيس وتنهام فشاقني جداً ما عرفته عن صحة تدينها وصدق ايمانها . وليتني استطيع ان اعلم كم في هذا الجيل من النساء والرجال الذين لهم أمهات متدينات . اظنهم مهما يكثروا فهم أقل جداً من بنات

جيلي وابنائه . اما أم زوجي وام المستر مكنا وامالورد هالدن فقد كنّ شديدات التدين والتعبد

وفيما يلي احدى صلوات اللادي بلانش بلفورالتي كتبتهاوهي ابنة ست وعشرين سنة : —

« من مخاطر التدقيق في علمماوراء المادةومن التأمل الباطل في أص ل الشر — اللهم نجني

« من صعوبة المراس وشكاسة الطبع والميل الى التهكم والاستهزاء جميع نقائص السلوك وعيوب التصرف ومن الكلمات والاعمال التي بسببي يفترى بها على صلاحك — اللهم انقذني

« علمني واجباتي لمن هم فوقي ومساوون لي ودوني . هب لي رقة القلب وحنو النفس وحسن السلوك . واعني على الاهتمام حتى بطفائف شؤون الآخرين وعوّدني ان اتحقق حالتهم وشعورهم

« هب لي نعمة لكي استودع اولادي محبتك وعنايتك وسلامك الذي يفوق كل فهم.علمني كيف احسن استخدام نفوذي ولا سيما في اولادي وخدمي لكي يمكنني ان اعطي حسابا عنه وعن كل وزنة أخرى بفرح وسرور ولكي استطيع

ان اباشر تهذيب اولادي الديني بالمحبة والحكمة اللتين من فوق»
«كتبتها اللادي بلانش بلفور سنة ١٨٠١ »

. . . .

اما عن الاثنين الباقيين من رؤساء الوزارة فلا استطيع ان اكتب حالة كوني اعرف الناس بهما . لاني لا اقدر على اخفاء شعوري من نحوهما . وسيبقى اسم كل منهما مكللا بالمجد والبهاء من غير تعرضي لتهمة محاباتهما أو التحزب لهما



الفصل العاشر

لم يعلم أحد قط لماذا أُطلق عليّ وعلى اصدقائي الاخصاء « مجمع الارواح » . وقد سبقت فأشرت الى نشأة مجمعنا . وكانت فرص اللقاء تسنح اكثر مما لو بقيت اختي لورا لتلتون حية لاننا لحدادنا عليها انقطعنا عن الاجتماعات العامة . ولكن لماذا دعينا « مجمع الارواح » ؟ لا أعلم

وكان الكبراء — المعروفون في ذلك الحين باسم « الطبقة النابهة » — يلتفون حول البرنس (اوف ويلس) ولي العهد الذي صار فيما بعد الملك ادورد السابع متخذين نيومركت مركزا لهم . ولما ذهبت الى نيومركت وكان ذلك المرة الاولى والاخيرة استقبلني القوم استقبالا شعرت فيه باني اشبه بغريبة عنهم

وكان المستر بلفور قبلة الانظار في مجمع الارواح وهو اشهر اعضائه ومرمى عصى الشغف في كل طبقة من طبقات الهيئة الاجتماعية . وكان شبان طبقتي كلهم تقريبا من الاذكياء الذين اشتهروا فيما بعد . اما الفتيات فانلم يمتزن بالذكاء فقد كن ممتازات بكونهن اقل اهتماما بالامور الدنيوية من معاصراتهن من « الطبقة النابهة » . وكثيرات منهن كن من حيث صلاح السيرة وجمال المنظر جديرات بان تمد الايدي اليهن وتقع العيون عليهن

وأهم ما يلذ لي تذكره الآن عند ما اردد في ذهني حوادث تلك السنين العشر ما كان كل منا يذخره للآخر من صفاء المودة وصدق الولاء وصحة الاخلاص وما تمتعنا به كلنا من السرور الصادر عن صداقتنا الحقيقية. وهذه الامور كلها لم نكن لنرجو دوامها اسبوعاً واحداً لو شابها شيء من الهذر والفضول أو الاستهزاء او الحقارة الشخصية . وكان لاكثرنا من عمق الشعور والطموح الادبي والديني ما لا اثر له على الاطلاق عند الطبقة الذكية من شبان وشابات هذه الايام . فكنا بعد ظهر كل يوم نلهو بتسليات والعاب انفع للصحة وافيد للعقل مما يلهو به هؤلاء الآن . وعادة « نشر الاخبار » مثلاً كانت من التسليات الشائعة بين الفتيات والفتيان قبل الحرب . وذلك بان يتفق شخصان على تسقط الاخبار ثم ينقلان الى جمهور الحاضرين نبأ وفاة صديق أو نسيب باساليب مختلفة . وكانوا يعدون ذلك من البراعة والتفوق في ضروب المزاح . لكنه لم يكن قط ليروق أو يحلو لواحد من أعضاء مجمع «الارواح» . ومما يغيظني ولا اطيق احتماله عادة مستفيضة في هذه الايام وهي اقتفاء آثار البسطاء واكتشاف ما فيهم من بواعث الهزء والسخرية واذاعته على وجه يحط شأنهم ويعبث بكرامتهم . فالوذعية أو نباهة الشأن — أية كانت — قد تجمع الناس للهو وترويح النفس . ولكن عمر شملهم المجتمع قصير جداً

وكان اللورد كرزن — ارل كرزن اوف كدلستن — كالمستر بلفور قبلة الانظار واليه كان مرجع الفضل الاكبر في تأليف مجمع الارواح

كان فتى مشهوراً ببراعة اليراع وبلاغة اللسان ومعروفاً بأنسه وبشاشته في عيشته البيتية وشدة بسالته في حياته الاجتماعية . وقد لقب بالمغرور . وهو لقب كانوا يطلقونه في تلك الايام على كل فتى توسموا فيه مخايل التفوق في الذكاء وكان بعض اصدقائي يزعمون ان معاضديه في مجلس النواب وهما جورج وندهام وهري كست سوف يحرزان قصب السبق عليه لان اولهما اجمع لادلة الحصافة وثانيهما أشدّ تبحراً في العلوم والمعارف . اما انا فقد طالما قلتُ — ودوّنت ذلك في يومياتي الاولى — ان جورج كرزن سوف يبز اقرانه ويفوز على جميع منافسيه . لانه كان يمتاز بميزتين — فرط اجتهاده وشدة اعتماده على نفسه . وكان فوق هذا وذاك سليما من داء الانبعاث في اللذات . فكان معتدلا في اكله وشربه وتدخينه — غير مفرط ولا مفرّط في شيء

ولم يكن له مشبه في شدة مرونته وسهولة انتقاله من العمل الى اللهو . وكان اكبر مضياف وخير جليس لا يمل حديثه . وقد اختصني انا وذوي قرباي بمحبة صادقة مدة سنين طويلة حتى اني لو متّ الآن فمع انه ينتمي الى حزب شديد المحافظة على التقاليد ويجتنب الاختلاط بمن يخالفونه في المبادىء السياسية

لا يتأخر عن رثائي وتأبيني

وفي هذا الوقت الذي أدون حوادثه اعتلت صحة جورج كرزن وحتم اليه اطباؤه بوجوب الذهاب الى سويسرى . فجزعنا جداً واجتمعنا لوداعه في مأدبة عشاء أعدها لنا في «نادي العزاب» يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٨٩ ولما دخلنا غرفة الطعام وجدنا قصيدة بليغة من نظمه رحب فيها بنا ونوه باسم كل منا ووضع على كل كرسي من كراسي المدعوين نسخة منها وكان عددنا ٣٥

وكانت مأدبة جورج وقصيدته المشهورتان مبعث شيء كثير من المزاح والحوار والغيرة والاستغراب ومنشأ مناقشات لا نهاية لها . وهـذه المأدبة تلاها بعد سنتين مأدبة عشاء أخرى أدبها جورج لمدعوي المأدبة الاولى انفسهم في اليوم التاسع من شهر يوليو سنة ١٨٩١

وقد ساء تكرارها أهل غرب لندن واستهدفتُ بسببه لقدح عنيف وطعن شديد فمن ذلك اني كنت يوماً جالسة لتناول العشاء مع السر ستانلي واللادي كلارك بقصد الاجتماع بالملك جورج الذي كان ولي العهد في ذلك الحين . فقالت لي مضيفتي بصوت عال رنّ من أول المائدة الى آخرها : —

« ينبغي ان لا يبرح من بالك أيتها الآنسة تننت انه كان في العالم بعض من ربات الحصافة والذكاء قبلما ولدتِ ! »

فاجبتها على الفور وقد شعرت بالم اللذع والقرص : —

« ليس من الانصاف أيتها اللادي كلارك أن أتحمل انا وحدي تبعة الاغبياء الذين نعاشرهم اليوم . »

قلتُ هذا غير متعمدة شيئاً من الخشونة والفظاظة ولكن عذري اني كنتُ حينئذ صغيرة السن وقليلة الاحتمال

واني احياءً لذكرى الوليمة الاولى وحرصاً على فائدة اولادي سأجتهد ان اُثبت في ما يلي وصفاً وجيزاً لكل من أعضاء « مجمع الارواح » المذكورة اسماؤهم في القصيدة ولبعض اصدقائي الذين لم تذكر اسماءهم فيها

فالسر الدجرنن وست كاتم اسرار غلادستن والمستر غودفري وب كلاهما احبا أختي لورا وظلا يكاتبانها الى يوم وفاتها . وكانا يمضيان كل أيام عطلتهما في « غلن » واولهما — وقد ناهز التسعين — لا يزال متمتعاً بصحة الشباب ورونقه وهو من صميم الاحرار . لم يكن قط عضواً في مجمع الارواح لكنه كان من أعز اصدقائنا القدماء

وكان غودفري وب اكبر أعضاء مجمع الارواح . وكانت صداقته لي ولوالدي ولاخوتي واخواتي محكمة العرى وثيقة الارتباط . وكان على جانب عظيم من توقد الذهن وسرعة الخاطر ودقة الملاحظة . واذا انتقد كان انتقاده مزيجاً من الدهاء والرفق . ومن امثلة سرعة خاطره وجودة قريحته انه طالع يوماً في احدى الصحف وهو جالس في غرفة الطعام في غلن ان رجلا كان جاثياً

على ركبتيه يصلي وعند نهوضه من مجثاه سقط وكسر ساقه. فكتب على الفور ما ترجمته : —

« على ركبتيه خرّ لله ساجداً ليطلب فيض العون من بحر فضله
ففاجأه ابليس وانقض رائغاً عليه بضرب كاسر ساق رجله »

وكان يقضي ايام عطلته كلها في غلس . ولا اذكر انه غاب عنا في واحد من اجتماعاتنا التي نقيمها كل سنة تذكاراً لوفاة لورا . فقد كان رجلا في مليون وقل من وجدته يدانيه في مضاء الذهن وشدة الذكاء. ففي كل يوم اذكره شاعرة بوحشة فراقه

واللورد مدلتن المعروف باسم ست حون برودريك كان أول صديق عرفته ولذت لي معاشرته . وكان ذلك قبلما لقيت ارثر بلفور وغيره من اعضاء مجمع الارواح بسنتين وقد زارنا في غلس يوم كان مقيما عند بعض جيراننا

ومنذ وقت غير طويل بعثت اليه بتلغراف هنأته فيه برتبة « ارل » وطلبت اليه ان يخبرني في أية سنة جاء أول مرة الى غلس فاجابني بما يأتي : —

« في ١٢ يناير سنة ١٩٢٠

« عزيزتي مرغو

أشكر لك من صميم فؤادي تهنئتك التي عظمت قيمتها عندي لاسباب كثيرة اهمها ان الرتب والالقاب الاسمية التي ليس لها شأن كبير عندك وعند قرينك الذي منح كثيراً منها وابى قبول



مستر واعرد لدب

شيء منها لنفسه. وحقاً ان قلة اكتراثكما لها من اكبر العلامات الدالة على روح الدمقراطية فيكما ولا يفوق هذه العلامة ظهوراً سوى محبتكما لجميع بني البشر وذودكما عن الانسانية ووقوفكما على الدوام في جانب الضعفاء الذين لا نصيرلهم . وقد سرّني جداً انك اخترت ?زو لقراءة مسودات مذكراتك لانه معروف بالبراعة وهو خير من يصح الاعتماد عليه من هذا القبيل

« اما زيارتي الاولى لفلن فكانت في شهر اكتوبر سنة ١٨٨٠ حين كنت ابنة ست عشرة سنة يوم لُحت بيننا أنت وشقيقتك لورا كما تلوح الشهب الثواقب ممزقة حجب الغياهب . وكنت منذئذ الى الآن مجلى الولاء والاخلاص لصديقاتك واصدقائك غير ناسية أحداً منهم في اثناء ارتقائك السريع الى يفاع الشهرة واليك طمحت انظار الجميع على اختلاف الاحزاب والطبقات

« ان سيرتك في سني حياتك الاولى كفيلة باعظم رواج لكتابك بارك الله فيك وانجح مسعاك «سنت جون»

وكان سنت جون مونتن من آلة الصدق النادرين . فبعض الناس لايكذبون ولكنهم لايقولون الصدق . وبعضهم يكذبون لانهم كثيرو المجاملة أو شديدو الخوف . ومعظم الناس واقفون من هذا القبيل موقف الحياد أو عدم الاكتراث. فهم يشاهدون ما يعرض عليهم من مناظر الحياة ولا يشعرون بانهم مسؤولون عن أنفسهم أو عن جيرانهم

وكان من نخبة المخلصين القليلي العدد. وهذا الاخلاص الشديد انشأ فيه شجاعة أدبية طالما مكنته من اطلاعي على العيوب التي رأينا كلانا انه يمكن اصلاحها قبل الافضاء بها الى غيرنا من الاصدقاء الاخصاء . وهذا كان شأنه مع غيري من الذين أحبهم. ولقد اختبرت الاصدقاء الاخصاء اختباراً طويلاً لم انقطع في اثنائه عن تذكر المثل الاسباني القائل : « لا تنس أن لصديقك صديقاً » . وعندي انك اذا حضرت مجلساً سمعت فيه اهانة من تحبهم على طريق الوقيعة والاغتياب فأما ان تغادره في الحال أو أن توقف المتكلمين عند حدهم ولو كانوا من اصدقائك. وقد أراني الاختبار ان هذا التصرف الصريح الشريف تثقل وطأته على معاشر الاصدقاء وبه خسرت صداقة كثيرين منهم. ومع هذا كله بقيت متمسكة برأيي الذي وافقني سنتجون عليه وهو ان الاخلاص الحقيقي لا يجيز لك الاشتراك في تعريض صديق للضحك والاستهزاء لوجود عيب أو خلل فيه

وارثر بلفور نفسه وهو أكثر الناس حرصاً على صيت أصدقائه وأشدهم سعياً في اصلاحهم قال مرة على سبيل المزاح : « ان لسنت جون اخلاصاً لذاعاً اتبع لنا من ظالنا » ومراده أن سنت جون غير منفصل عن أصدقائه الانفصال الشائع بين كثيرين منهم بل هو شديد الاتصال وحريص على تنبيه كل منهم على حدة الى عيبه لكي يصلحه ويأمن التعرض للذم والطعن . وعندي

اننا ما دُمنا مسؤولين عن أعمالنا لا من رجال البوليس فقط بل من غيرهم أيضاً يجب علينا أن نسعى جهدنا في مساعدة من نحبهم

ولما تعين سنت جون وزيراً للحربية استهدف لكثير من المطاعن الحادة ولكنه تلقاها كلها بلا شكوى ولا ملام . لانه كان معروفاً بشدة صبره وشجاعته وشعوره بالواجب عليه . وهذه الامور الثلثة بوأته مكاناً رفيعاً في قلوب الناس اغناه عن الاهتمام باستعطاف رجال الصحافة

. . . .

وكان اللورد بمبروك(١) وجورج وندهام أشد أعضاء « مجمع الأرواح » كياسة وظرفاً . أما بمبروك فهو ابن سدني هربرت الذي كان وزير الحربية في أيام حرب القرم . وقد لقيته أول مرة قبل ظهوري في الهيئة الاجتماعية بسنة . وتفصيل ذلك ان اللادي واتر فورد صديقة اللورد كتشنر وشقيقة دوق بوفور كتبت يوماً الى والدتي تسألها هل تأذن لاختي لورا في تناول العشاء عندها لتسد فراغاً على المائدة حصل برفض احدى المدعوات الحضور في آخر ساعة. وكانت لورا يومئذ متغيبة عن البيت فأرسلتني امي عوضاً عنها . فجلست بجانب المستر بلفور وكان اللورد بمبروك على الجانب الآخر . واذكر جيداً اني ثملت بما أبديته من البراعة في الحديث على أسلوب استمال ارثر بلفور

(١) جورج ارل اوف بمبرك الثالث عشر

وجورج بمبروك الى مشاركتي فيه من غير أن أعرف شيئاً عن ذلك الغريب النبيه الشأن الجالس بجانبي . وقد قال لي فيما بعد انه ارسل في اثناء العشاء يسأل بلانش واترفورد عن اسم الفتاة ذات الحذاء الاحمر الكعبين وانه لما اطلع في جوابها على الاسم « مرغو تننت » لم يزده علماً بصاحبته .وكان ذلك في سنة ١٨٨١

والاورد بمبروك واحد من أربعة رجال كانوا اجمل من شاهدتهم في حياتي . والثلاثة الباقون هم ـ كما سبقت وذكرت ـ المرحوم ارل اوف ويمس والمستر ولفرد بلنت ـ الذي نُشرت مذكراته مؤخراً ـ واللورد دابرنون (١)

كان طول جورج بمبروك ست أقدام و ٤ بوصات . وكان جمال طلعته أبعث على النظر وادعى الى الالتفات من طول قامته. وفي اسرته شيء من الدم الروسي . وهو أكبر اخوة اللادي ريبون(٢) التي كانت من ربات الحسن والجمال

ومما قاله لي في اثناء ذلك العشاء انه يعرف دزرائيلي جيداً وقد وعده أن يقلده أحد المناصب الصغرى في وزارته.ولكنّ اعتلال صحته حال دون قبوله له.وقد وثقتُ معه عرى الصداقة وظللنا نكاتب أحدنا الآخر الى ان توفاه الله بعد زواجي بسنوات قليلة

---

(١) سفيرنا في برلين

(٢) المرحومة قرينة المركيز ريبون في الوقت الحاضر

ولست أرى الآن على الاطلاق مشبهاً للمرحوم جورج بمبروك • فانه أحرز من توقد الذهن وسلامة الذوق وحسن التناول وسعة المعارف وحسن التدرب على الالعاب الرياضية • وجمال الصورة واضافة الغرباء ما جعله قبلة أنظار جميع الذين عرفوه • وكانت أول هدية أهداها اليّ ترجمة الاودسيا (١) وقد كتب عليها : « الى مرغو التي تذكرني أيام هوميرس ١٨٨٤ » • وآخر هدية منه كانت هدية زواجه وهي حجر الماس على شكل خنجر اعلقه دائماً على صدري

. . . .

ومن السيدات أعضاء « مجمع الارواح » اللواتي اشار اليهن اللورد كرزن في قصيدته وكنّ على الخصوص موضوع الاعجاب وقبلة الانظار ملي سذرلند(٢) واللادي ونسور(٣) واللادي غرنبي(٤) • وكانت اللادي برونلو(٥) شقيقة اللادي بمبروك من المشهورات بالجمال في عهد الملكة فكتوريا • واللادي غلادس ريبون(٦) من كبيرات سيدات البلاط • وكانت اللادي ونسور

---

(١) اسم قصيدة شهيرة لهوميرس (٢) دوقة سذرلند الارملة
(٣) كونتس اوف بليموث في الوقت الحاضر (٤) دوقة رتلند في الوقت الحاضر (٥) كونتس برونلو التي ماتت منذ بضع سنوات
(٦) صديقتي لادي غراي

متفردة على الخصوص بشدة براعتها في كشف الخفيات وتسكين العواصف وايضاح المجهولات. ولذلك شغفت بها شغفاً لا يوصف منذ مارأيتها أول مرة

ومنهن الآنسة بتي مونغومري ابنة السر هنري بونسبي كاتم أسرار الملكة فكتوريا المشهور الذي كان من أكبر رجال حزب الاحرار عزيمة وأشدهم دفاعاً عن هذا الحزب. وكانت بتي واختها ماغي واسطة التعارف بيني وبين اللادي دسبورو التي كانت تفوقنا كلنا حذقاً وبراعة . وكانت اسلمنا ذوقاً وادقنا شعوراً. يضاف الى ذلك ما كان لها من سرعة الخاطر والمقدرة على الجبه أي ملاقاة الغير بما يكره. لم تكن من ربات الفنون فلم تبد ارتياحاً الى الموسيقى والغناء والتصوير. ولم تكن مقامرة ولا من المتدربات على الالعاب الرياضية . ولا من السيدات اللواتي كن يشتركن في التسليات المصطلح عليها في الاجتماعات البيتية. ومع هذا كله كانت اقدر السيدات على ادخال الفرح والسرور الى قلوب الحضور ويمكنني أن أقول عنها انها كانت أصدق الناس ولاءً واصفاهم مودة. وهي الشخص الوحيد الذي لجأت اليه عند ما شعرت بشيء كدّر صفاء عيشي وسأظل أفعل ذلك كلما احوجتني الضرورة. لان لهـا براعة نادرة المثال في الحصول على ادراك عميق خارق يبلغ صميم القلب الانساني ومعه عزم راسخ وطيد على تسكين عاصفة الغمّ وكبح جماح الشقاء . وقد تزوجها

ولي غرنفل(١) وهو رجل كان لي به اتصال شديد وقد بلغ من المهارة في التجذيف مبلغاً لم يفقه فيه أحد قط

أما عن ابنيهما الجنديين جوليان وبلي فلا أستطيع ان اكتب شيئاً لانهما قتلا في الحرب مع أصدقائهما ادورد هونر وتشارلس لستر وريموند اسكويث • ان اخيلتهم لا تبرح متردّدة الى قلبي • واني لأراهم الآن نصب عينيّ مواظبين على حراسة الشباب والرجولية

وكانت اتي دسبورو شديدة الميل الى المسرات وايلام الولائم ومع هذا كله كنتُ أراها تنعم بالا وتعايب نفساً اذا خلت بأهل بيتها أو انفردت في غرفتها لا يؤنسها غير كتبها وأوراقها وكنتُ اذهب اليها اذا اعتراني غم أو حزن • ولكني لم افعل ذلك قط متى كنتُ مذنبةً • هذا وكثيراً ما نتساءل قائلين الى من نذهب عند ما نرتكب اثماً أو نفعل شراً ؟ والمهم في هذا السؤال اننا في الجواب عنه نقف على افضل ايضاح يمكن للطبيعة البشرية • فمن قائل أو قائلة لي جواباً عن هذا السؤال « اني اذهب الى فلان أو فلانة حيث اجد من يفهم تجربتي فيعذرني عليها » أو « أعدو كالطائر الى فلان أو فلانة حيث انال تعزية وسلوانا » • ولكن معظم الناس يختارون من يؤتمن على الاسرار وهو أهل لان يدل على طريق النجاة • واتي دسبورو كانت دائما امينة على الاسرار وقادرة ان تدل على طريق النجاة من الاخطار

---

(١) لورد دوسبورو

وكانت لطيمة أي مات أبواها فرباها صديقاي الخالدا الذكر الطيبا الاثر المرحومان اللورد واللادي كوبر وكانا من نخبة أعضاء « مجمع الارواح » النابهين المشهورين. وقد شبت على صحة ضمنت لها شباباً دائماً ونشاطاً ملازماً

وكنتُ اذا اضطررتُ لاعتلال صحتي أو لسبب آخر ان انفصل عن اولادي في حداثتهم استودعهم محبة اتي وولي دسبورو وعنايتهما بثقة واطمئنان لامزيد عليهما

. . . .

وكانت ماري ويمس (١) شريكة غاي ونسور (٢) في أعظم امتياز نالتاه كلتاهما بين فريق النساء في مجمع الارواح . فقد كانت من المموتات بالفطنة والاستقامة والصدق والذكاء والاحسان الى الفقراء . وكانت مبعث ابتهاج ومسرة لقلوبنا ونفوسنا . على انه كان ينقصها كثير من قوة النفوذ والتأثير لانه لم يكن في بنيتها ومزاجها استعداد كاف لمعالجة طفائف الامور وصغار الحوادث في هذه الحياة ولايخفي ان النظام أو الترتيب ضروري لافكار المرء كما لعاداته . ومثل ماري من هذا التبيل مثل مائدة كتابة جميلة عليها دواة أنيقة ولكن لاورق معها أو عليها ورق ولكن لاأقلام. هكذا ماري كثيراً ما كانت في لندن ولكن قل من استطاع ان

---

(١) كونتس اوف ويمس (٢) كونتس اوف بليموث

يجدها ومتى وجدتها رأيت جانباً كبيراً من نسيج كلامها الجميل مخلوطا بتفاسير ومشاريع تتعلق بالزمان والمكان والحالة التي يمكنك ان تلقاها فيها مرة اخرى • وكثيراً من مانرى الناس يلهون بوضع المشاريع والخطط عن حقيقة التناسق أو التناسب ويقضون جانبا كبيراً من وقتهم باطلا في صغار الامور وبسائطها

ولكن اذا أعوزتها ملكة ترتيب الوقت ولم تستطيع ان تفرز منه جانبا كافيا للاجتماع بنا فقد كانت مزدانة بصفات اخرى اعظم شأنا مما كان عند غيرها من النساء اللواتي عرفتهن وتوشك ان تكون المرأة الوحيدة التي استطيع الحكم بتنزهها عن النزق وصغر النفس • وقد كنت ولا ازال شديدة الاعجاب بافكارها الثاقبة وارائها الصائبة في جميع الامور العقلية والادبية والاجتماعية ويصح أن يقال عنها انها كانت بعيدة عن الخسائس والمبتذلات .

. . . .

وكانت اللادي هورنر أقرب الي والصق بي من كل من عرفت من غير أسرتي . لقيتها وهي بعد فتاة ـ الآنسة غراهام ـ وكنت ومئذ ابنة اربع عشرة سنة فشاقني جداً ماتوسمته فيها من نبالة الطلعة ونباهة الشأن . وقليلات هن النساء اللواتي عرفتهن وكن مثل اللادي هورنر في صلاح القلب وذكاء العقل وحسن الاخلاق . كثيرات منهن كان ميلهن الى القدح يتغلب فيهن على الميل الى المدح وينقصهن شيء كثير من جلال الاخلاق وعظمة الصفات •

أما اللادي هورتر فقد جمّلها الله بكل ما يزين بنات جنسي من هذا القبيل

ولايضاح مانشأ عن مجمع الارواح من الغيرة وتضارب الافكار رأيت ان أنشر فيما يلي خلاصة الحديث الذي دار في هذا الوقت بيني وبين اللادي لوندندري (١)

كانت هذه السيدة جميلة الطلعة كثيرة البشر شجاعة شديدة العنف شديدة التشبث بما يبدو لها من ظواهر الامور. ومع ما في طبعها من الحنو وفرط التسرع والاندفاع لم يكن عندها روح الصفح والعفو . قالت لي يوماً بلهجة الانفة والكبرياء :—

« ان صداقتي حلوة المساغ لكن عداوتي مُرّة المذاق. فلا أؤخذ ياعزيزتي بالملث والتملق ولا أُغرى بيد تصافحني أو بفم يقبلني !» تعني انها صديقة صالحة وعدو رديئة

ولم ازل من ذلك الحين الى الآن أسأل ولا أجد مجيباً عن الفرق بين عدو صالح وعدو رديء

لم يكن لهذه السيدة من توقد الذهن ما كان للادي دي غراي. وكان بينهما منافسة شديدة. على ان اللادي لوندندري كانت أقوى ارادة واصحّ مزاجاً . وكان ذكاؤها ونشاطها مقرونين بالعتوّ والخشونة

---

(١) المرحومة المركيزة اوف لوندندري

ومما اتهمنا به اننا في غرور فنهرف بما لا نعرف ونتكلم عن كتب لم نطالعها قط . وتلك عادة لم يبلغ بي الطيش مبلغ الأخذ بها والجري عليها . وكان جون ادنتن سيموندس قد نشر كتاباً جمع فيه مقالاته فلم تهج لها الخواطر ولا اتجهت اليها الانظار لانها لم تكن غاية في الجودة ولا جاوزت حدّ المألوف في ما يطبع وينشر

وفي ذات ليلة ضمنا مجلس مؤلف من نخبة رجال الطبقة العالية ونسائها . وكانت علاقتي بكل منهم علاقة معرفة بسيطة لاعلاقة صداقة . وفيما كان الحديث دائراً على شؤون مختلفة حوّلته اللادي لوندندري الى الكلام عن الكتب فشاركتها فيه بحسن قصد وسلامة نية . ثم استطردت الى ذكر كتاب سيموندس ولظني انها بارعة في فنون الادب قلت في كلامي عن نمط الكتابة أو أسلوب الانشاء ان هذا موضوع كبر الكلام عليه بما لا طائل تحته ولكن ينبغي للكتّاب كافة ان يتوخوا البساطة في ما يكتبونه وبعد ما تكلمنا ملياً عن بعض مشاهير الكتاب وتناقشنا في الحكم على منزلة كل منهم سألتني اللادي لوندندري هل استحسن أسلوب كتابة سيموندس فأجبتها لا لكني استحسن بعض كتبه وكأنها آنست في جوابي هذا شيئاً من التبجح فهزت رأسها هزة العجب وعدم الموافقة وقالت قول من يستفز خصمه للمبارزة : —

لست ادري وليتني كنت ادري ماطالعته ايتها الآنسة تنت من كتب سيموندس : » فعلمت اذ ذاك انها مستعده للنزال واجبتها بصقاعة : —

« طالعت منها جانباً »

فغاظها جوابي وسألتني بلهجة الواثق بانتصاره على قرنه —

« هل قرأت شيئاً من مقالاته في التخيلات والتأملات ؟ »

مرغو : « قرأتها كلها »

لوندندري : « الا تستحسنيها ؟ »

مرغو : « استحسنها ؟ لا أدري ماذا تستعين؟ »

لوندندري : « الا تظنين انشاءها جيلاً . . . اعني اسلوب كتابتها ؟ »

مرغو: « لااستحسن فيهاشيئاًعلي الاطلاق ثم اني لست معجبة باساوب سيموندس الكتابي »

لوندندري « اظنك لم تطالعي الكتاب »

فازعجني قولها هذا ورأيت علامات سرور الحضور به ظاهرة علي وجوههم وسخطت من خرقهم وشدة تحاملهم وقلت لمحدثتي برزانة وسكون جأش :ـ

« تظنني لم اطالع الكتاب وانا اظنك لم تطالعي مقدمته . فهو مهدى اليّ . كان سيموندس صديقي وكنت مقيمة في دافوس عند ماكان يكتب هذه المقالات في ايطاليا . وقد حمله شدة اندفاعه على طلبه اليّ ان اقرأ احدى المقالات قبل طبعها واعلق

عليها مايعن لي في الهامش فاجبت طلبه وكتبت ما بدا لي في الحاشية فغاظه بعض ما كتبته وعجبت من ذلك وقلت له انه لا ينبغي له ان يطلعني بعد الآن على شيء مما يكتبه قبل طبعه . وحينئذ صفح عما كتبه واهدى الكتاب الي »

وآخر من اروم الاشارة اليه من اعضاء مجمع الارواح هو المستر هري كست الذي كان من بعض الوجوه انورهم وابرعهم وسيظل اسمه مذكوراً ماذكر الناس قرار البرلمنت المختص باراضي ارلند على ان عنايته بالعلوم كانت أشد منها بالشؤون السياسية ولو لم ينقصه شيء من ضبط النفس لكان من مشاهير السياسة والاداب معاً

وبعدما توفي كتب عنه أحد عارفيه فقال وقد أصاب كل الاصابة بقوله : —

« تجرع كأس الحياة الى الثمالة غير موجس أقل خوف من سمومها ولكنه كان ضعيف الارادة ككثيرين غيره من ذوي الصلابة والعناد في آرائهم .

وكان أول مرة لقيته فيها يوم زارنا في غروفنرسكوير ليرى شقيقتي لورا . وبعد بضعة اسابيع سافر الى استراليا التماساً للصحة حيث قضى بضعة عشر شهراً . وفي ليلة عيد يوبيل الملكة فكتوريا سنة ١٨٨٧ زارنا بعيد رجوعه من استراليا . ولما علم بوفاة لورا أسف أشد الاسف .

كان هري كست شديد الشغف بالحياة وكثير الولوع بمسراتها

واطايبها . وكان قوي الذاكرة كزوجي واسع الاطلاع يسهل عليه جداً الاقتباس والاستشهاد بمحفوظاته الشعرية والنثرية وظل متولياً رآسة كتابة « البال ميل غازت » عدة سنوات اظهر فيها ماعنده من المقدرة والبراعة ولولا شدة انبعاثه في لذات نفسه لاستطاع القيام باعمال تجعله في مصاف مشاهير الرجال . وجملة القول انه كان نقادة صعب المراس وصديقاً شديد الاخلاص لاينسى اصدقاءه ولا يخاف في سبيل الذود عن ولائهم لومة لائم

. . . .

وسأختم هذا الفصل برسالة مختصرة بعثت بها اليّ صديقتي اللادي فرنسس بلفور احدى النساء اللواتي اعجبت بشدة ذكائهن وكانت هذه الرسالة مْن ابيها المرحوم الدوق اوف ارغيل الخطيب البليغ المشهور الذي قيل عنه انه كان في كلامه اشبه بمدفع يطلقه كناري (الطائر المعروف برخامة الصوت)

وكانت ابنته فرنسس قد دعتني للاجتماع به في بيتها حيث تناولنا العشاء واجلستني بجانبه على المائدة . وفي اثناء حديثه معي اقتبس الكلمات الاتية من عظة سمعها من الدكتور كايرد : —

« آه : متي يأتي على الناس حين لاتبقى فيه كل من الكنيسة والحكومة شعار (كلمة السر) الجماهير المتنازعة المتخاصمة — حين يصبح كل انسان كاهنا وكل كاهن ملكا — كاهناً متسربلا بالبر والتقوى وملكا لابساً حلة القوة »

فطلبت اليه ان يكتبها لي بخطه ثم قضينا جانباً من الوقت نبحث في الدين والوعاظ والسياسة ورجالها .

وفي صباح اليوم التالي كتب الى ابنته يقول :

« عزيزتي فرنسس

كيف تجاسرت ان تدعوني للاجتماع بحورية (١)



(١) في الاصل « سيرن (Syren وهي في الاساطير الخرافية الاهة كانت في احدى جزائر البحر المتوسط وكان غناؤها الرخيم يسحر الباب البحارة فينقطعون عن المسير ويظلون يسمعونها حتي يموتوا من شدة الطرب

الفصل الحادى عشر

قبل ختام قصة صبوتي اذكر الحادثة التالية التي عرضت لي واكسبتني صديقاً جديداً

استيقظت في صباح يوم جميل من ايام شهر يونيو ونظرت الى الساعة فاذا هي الثامنة ورأيت انه لم يبق لي سوى ساعة واحدة للاستحمام واللبس والفطور والذهاب الى محطة بدنتن

فاسرعت في النهوض من سريري وأهبت بوصيفتي التي لم تقض ثماني سنين في خدمتي باطلا ولم تلبث ان اعدت لى كل شيء واخذت تمشط شعري وانا أتناول قليلاً من من الخبز المحمص وبعدما اكملت استمدادي عدوت الى مركبة وشددت على حوذيها ان يغذ السير بي الى محطة سكة الحديد في بدنتن لكي اصل اليها قبل فوات الوقت لاني كنت عازمة على ركوب القطار الى المدينة (لندن) حيث أزور احد تجار الخيل المشهورين في لندن وأنتقي بعض جياد الصيد لي ولربلسدايل وغيره من اهلي واتفقنا ان نجتمع كلنا بعد الظهر في بيت شقيقتي عقيلة غراهام سمث. فان فاتني القطار سببت لهم كلهم انزعاجا واضطررت الى ركوب جواد لم اختبره من قبل في القفز والوثوب وعرضت نفسي للخطر

ولسوء الحظ ابطأ الحوذي في السير على رغم شدة الحاحي في الاسراع. ولما بلغت المحطة كان القطار قد صفر صفير المسير وشرع يتحرك متباطئاً فاندفعت اليه واتفق ان احد الحمالين [الشيالين]

كان في مدخل احدى المركباب فقفزت الى درجة المدحل واخذت، بطرف ثوب الحمال وصحت به « لا تغلق الباب ! » . وما ابطأ ان وثب من موقفه خارجاً الى الرصيف وصعدت من موقفي على الدرجة الى المدخل

وكان شعوري بحسن صنيع الشيال لا يوصف . ولذلك كافيته عليه بخمسين غرشاً . لانه لو اغلق الباب أو استسلم للخوف هلكت لا محالة

وبعد ما دخلت احدى غرف المركبة ورتبتُ مجلسي فيها رفعتُ نظري الى من معي فرأيت شيخاً جليل الطلعة مكشوف الرأس بجانب النافذة يقرأ وعليه جبة زرقاء وهو اشمط الرأس واللحية أشم الانف وله عينان كأنهما « الجزع الذي لم يثقب ». وبجانبه شاب عليه ملامح الزهد في العالم وهو مشغول بترتيب ما لديه من كتب وصحف واوراق مختلفة وشدها بربط من الصمغ الهندي [اللستك] ثم نظرت في المركبة فرأيت أوراقاً صغيرة مطبوعة وملصوقة على نوافذها . فشعرت على الفور بخطإي ورأيت من الواجب عليّ ان اعتذر عن جلوسي في مركبة محجوزة لغيري . واذ ذاك وقعت عين الشيخ عليّ فقلتُ له : —

« اني آسفة يا سيدي لدخولي الى مركبة علمتُ الآن انها محجوزة لك . لكنني انسقت الى ذلك اضطراراً مدفوعة بشدة الاسراع لانه كان يهمني جداً ركوب هذا القطار »

الشيخ : « لا حاجة للاعتذار . لاني لم انزعج من دخولك على انه كان في عملك هـذا خطر شديد على حياتك . فلا تقدمي عليه مرة أخرى . ولماذا همك جداً ان لا يفوتك هذا القطار ؟ الى أين تذهبين ؟ »

مرغو : « اني ذاهبة لانتقي جياداً لي ولصهري وغيره من أسرتي . فالى أين تذهب أ نت ؟ »

هو [بما لا مزيد عليه من التأني والتأمل] « اني ذاهب الى حيث أسعى في تخليص النفوس »

مرغو : « انك دمويّ المزاج ! »

هو : « الا تعتقدين صحة هذا العمل — تخليص النفوس ؟ »

والحق أقول اني كنتُ أعدُّ هذا العمل مجرّد ادعاء فارغ . ولـكن بسالة الشيخ وهيبته حالتا دون تصريحي بما اعتقده

مرغو : « اظنني علمتُ مرادك وان كنتُ لم اقف على الطريقة المتخذة لذلك فقد سمعتُ كثيراً بما يطلق عليه الهداية او التجديد لـكنني أدبياً لا استحسن محاولة التعرّض لنفوس الناس »

هو [بغيظ] : « عند ما تعاملين السكارى وفاسدي الاخلاق يجب عليك أدبياً ان تتخلي عن منزلتك الرفيعة . اراك تجهلين الحياة الحقيقية ولا تعرفين عنها شيئاً . ومن مجرّد نظري اليك أرى انك حديثة السن وليس لك أقلُّ اختبار بامور العالم . فانظري اليّ أيتها الفتاة وقولي لي متى رأيت النفوس تهيم مضطربة

لشدة احتياجها الى شعاع النور ؟ وماذاتعرفين عن فساد الاخلاق الذي طما شرُّه وعمّ البلاد كلها ؟ ان العالم الذي تعرفينه ليس العالم الحقيقي على الاطلاق ! ففي أي عالم تعيشين ؟ ماأظنك رأيت قط فقيراً متسولاً ! هل دخلتِ يوماً أحد ملاجيء فقراء العمال البهّل؟ ما أظنك رأيتِ قط مجنوناً . هل دخلتِ يوماً أحد دور المجانين ؟ ما أظنك شاهدتِ محكوماً عليه بالسجن . هل زرت يوماً أحد السجون ؟ هل دخلت يوماً احدى الحانات وشاهدت الرجال — نعم والنساء أيضاً — في عراك وكفاح أمام الله والناس من شدة تأثير المسكرات فيهم ؟ »

ثم رمقني بعين التوبيخ واستأنف كلامه : —

« ماذا تعرفين عن المسكر ؟ لعلك لم تشاهدي قط أثراً للسكر في حياتك »

مرغو : « كيف لا وانا سكوتلندية ؟ »

هو [غير صاغ لي] : « في عراك وكفاح لا بايديهم أيتها الفتاة بل بنفوسهم . فلا فائدة لنا أدبياً من رفعة الشأن وسمو المنزلة . اننا في احتياج شديد الى عاملين وعاملات . . اني مفكر في العالم الآتي واما انت ففي هذا العالم تفكرين ، اراك مشغوفة به وبمسراته . ولعلك من أهل طبقته العليا ؟ »

مرغو : « كلا البتة ! »

هو : « من هو صهرك ؟ »

مرغو : « ربلسدايل »

هو : « ما اسمك ؟

مرغو : « لا يهمك ان تعرف اسمي . لاني لستُ بذات شأن »

هو : « أراك على خلاف ما تقولين . هل تؤمنين بوجود جهنم ؟ »

مرغو : « لا . ولا انت تصدق »

فادهشه جوابي هذا . وخلع جبته وانحنى نحوي فرأيت شعار « جيش الخلاص » مرسوماً على سترته . وكان هذا الشيخ الجليل الجنرال بوث ! وكنتُ قد سمعتُ كثيراً عنه وعن قرينته واختبرت بنفسي عملهما في هويتشايل . فاستطردت على الفور : —

« تظن انك تعتقد ولكنك لست كذلك . فرفع جهنم فوق رؤوس السكارى وفاسدي الاخلاق كسيف مسلول عبارة عن الهجوم على اضعف جانب حتى من أولئك المساكين . وهذا محل الانتقاد في تعليمك . فانك تهيج فيهم عوامل الخوف وتنشىء نوعاً من الحمى الروحية »

الجنرال بوث : « لو لم تكوني أيتها الآنسة غنية ومنبعثة في اللهو والبطالة لاتضح لك ان ما تسمينه حمى روحية هو في رأيي جوع روحي . وهو منتشر في ارفع جانب من الانسانية فالسبات الروحي جهنم

مرغو : « ان كان هذا مرادك بجهنم فاني لموافقة عليه

ومصدقة له . وطالما افتكرتُ في وجود جهنم داخلنا . وهكذا السماء . والله فوقنا

الجنرال بوث : « ان في كلام كهذا شيئاً كثيراً من اللغو . فالصلاح صلاح والشر شر والله هو الله والسماء هي السماء وجهنم جهنم . فكوني صريحة في ايمانك واتركي المواربة جانباً ولا تتشبهي باعضاء الكنيسة العالية . اني مؤمن بوجود جهنم وموقن بوجود السماء . تقولين ان السماء داخلنا . فهل هي داخلنا فقط ؟ هل هي طريق لا غاية ؟ »

مرغو : « لم اعن هذا قط ؟ وما من انسان يسير في طريق أو يجاهد في سبيل لغير غرض او غاية الا اذا كان من الحمقى او من القديسين ! على اني لا استصوب استخدام الخوف من جهنم لاثارة الخواطر وتهييج الافكار . فليس لطرق التهديد أقل تأثير فيّ . واراني دائماً ميالة الى الانسياق بعامل المحبة لا بعامل الخوف . وعلى مَ هذا القلق والاهتمام بجهنم ؟ فالسماء هي النور الذي يحسن بك أن ترفعه امام النفوس الضالة . لست بقادرة على الخوض في المباحث اللاهوتية وارى نفسي كولديطير طيارته في يوم مطبق بالسحب . فاذا قيل له ايلذ لك ان تطير طيارتك هكذا من غير ان تراها ؟ قال : « نعم لاني اشعر دائماً بشدة جذبها لي » »

فسر الجنرال بهذا التشبيه وقال : —

« لم اُباحثك في اللاهوت بل دافعت عن نفسي اذ اتهمت جيشي بانه لايعنى بالأهم وأنا أقول أنه يعنى . ولو شعرت بما اسميه جوعاً روحياً وانت تدعينه حمى روحية لما كنت تقضين وقتك سدى في انتقاء الجياد لصهرك »

فسرّى عن قلبي تركه للمباحث اللاهوتية . واذ آنستُ في وجهه بعض البشاشة قلتُ له اني لا أرى عليّ غضاضة في انتقاء الجياد لصهري

الجنرال بوث : « حدثيني شيئاً عن صهرك »

مرغو : « انه بارع في ركوب الخيل وخبير كبير بها »

الجنرال بوث : « أصالح هو ؟ »

مرغو : « انه من خير الرجال ! والآن أرى أيها الجنرال انك تود أن تعلم سعة المجال فيّ وفي اهلي للهداية أو التجديد وتروم اختيار الطريقة المثلى لمباشرة هذا العمل فينا . لكني أراهُ خطراً الى الغاية وهو أشبه بمزاح سيء مزعج لن تستطيع أن تضمن له حسن الخاتمة . دعنا من الحديث عنه . وتفضل عليّ بالحديث عن زوجتك وعن جمعيتك »

الجنرال بوث :« كانت زوجتي اعجب امرأة خلقها الله . والفضل كل الفضل في انشاء جمعيتي انما هو لها هي لا لي انا »

ثم طفق يحدثني عن شدة صلاحها وبراعتها في الخطابة بما لامزيد عليه من الارتياح والاهتمام . هذا ما سمعته منه عنها .

وقد أُعجبت كل الإِعجاب به وبأسرته وبعمله . على انه لم يكن شديد الصراحة . فقد وددت ان اعرف اكثر مما عرفت عنه وعن منشإِ جيش الخلاص وغير ذلك من الامور التي تقت الى الوقوف عليها ولكنه لم يطل قط البحث في موضوع بل كان ينتقل في الكلام مقتضباً ويصغى اليّ قلقاً مضطرباً . سألته هل آمنت زوجته بوجود جهنم فأجابني بتحفظ واحتراس :—

« اظنها كانت من رأيك . ماهو اسم ابيك ؟ »

مرغو : « تشارلس تننت وهو صاحب معامل كيماوية في غلاسكو ومناجم ذهب في الهند »

الجنرال بوث : « اذاً انت مرغو تننت . اني عارف كل شيء عنك . وابوك أبى أن يتبرّع بشيء من ماله لجيشنا »

مرغو : « لا اظن ان أبي امتنع يوماً عن التبرع بماله لاحد. فهو من أعرف الناس بقيمة المال واعقل من أن يكون ممسكاً . وهو سعيدٌ جداً ومنزّه عن المخاوف والرّيب والخسائس التي يسفّ لها الاغنياء . لكنه يرى جيشك لغزاً لا يعنى بحله . هذا فضلا عن كونه يكره الجلبة ولا يطيق الضوضاء »

الجنرال بوث : « الجلبة ! »

مرغو : « نعم . جلبة فتياتك اللواتي يطفن في الشوارع ويسرفن في الصراخ والصياح والنقر على أطباق الشاي . وأبي سريع الهياج شديد التأثر »

الجنرال بوث : « وهل انت مثله؟ »

مرغو : « نعم بل أشدّ منه ! ان الجلبة تؤلمني كثيراً »

الجنرال بوث (يراقبني غير مستمع لـكلامي) : « هل تتلين صلواتك ؟ »

مرغو : « على الدوام »

الجنرال بوث : « اترومين أن نصلي الآن ونحن في المركبة؟»

مرغو (برزانة) : « من كل قلبي ان كنت تروم ذلك »

وكأني بالجنرال بوث لم يكن يتوقع مثل هذا الجواب مني زاعماً اني على جانب عظيم من الجسارة والاستهتار وقد حوّلته عن موضوع التجديد فأراد الرجوع اليه . وبعد ماخيم علينا سكوت عميق قال مشيراً اليّ بيده اشارة لطيفة :

« لنجثُ ونصلّ »

فجثونا ـ انا والضابط الشاب والجنرال ـ في صف واحد ومرافقنا مسندة الى المقاعد التي امامنا . وافتتح صلاته بالابتهال الى الله طالباً « ان يبارك اختنا هذه ويكون قريباً منها ». وقد شدد لفظ كلمة الهدوء عند ما اقتبس الآية من نبوءة اشعياء « بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم »

وقد صلى مستوياً على ركبتيه منتصب الرأس وشعره الطويل مرسل الى الوراء . فلن انسى صلاتهُ هذه . لأني شعرت حينئذ باني لم اكن موافقة عليها فقط بل كنتُ راضيةبها ومشتركةفيها .

أما هو فلاح لي متجرداً كل التجرد عن شعوره بنفسه. ومتواضعاً على عزة وشمم . وشكوراً من غير مجاملة . ومتفرداً بلا شذوذ. وممتلئاً احتراماً وتصوراً وشعوراً

ولما فرغ من صلاته نهضنا جميعاً. وتناولت يده وضغطتها بكلتا يديّ وشكرته من صميم فؤادي . ثم جلسنا ساكتين كأن على رؤوسنا الطير . وسألني عما في قمطري(١) فأخرجت بعض الكتب والصور وغيرها وأريته اياها . فلم يرقه شيء منها على الاطلاق. وكنتُ دائماً اسافر ومعي دفتر ادون فيه مقتبسات من أقوال المؤلفين والكتاب عن الموت والصلاة . فأخذه مني وسألني ان اعيره اياه فلم اشأ ان اجيب طلبه لان الاختبار اضعف ميلي الى اعارة الكتب حتى للاصدقاء. وكان في دفتري هذا بعض صفحات غير مكتوبة فقلت له :ـ

« اكتب لي شيئاً في كتابي هذا . لا يمكنني ان اعيرك اياه. لاني لم اطلع قط أحداً عليه»

فلم يردّه الي بل ابقاه في يده وقال :ـ

« اظنك عازمة بعد رجوعك الى البيت على تأليف قصة طويلة عن حديثنا وسفرنا اليوم ؟ »

مرغو : « ان كان ذلك يسوءك فاني اكتمه ولا اذكر عنه شيئاً والا قصصته على اختي ؟

الجنرال بوث (باسما) : «وعلى الصهر؟ »

---

(١) ماتصان فيه الكتب

مرغو : « نعم .وعلى الباقين كلهم . ولكن لا أعلم مرادك بقولك « قصة طويلة . فان كنت تظنُّ اني اعدُّ الصلاة من المضحكات فظنك في غير محله »

الجنرال بوث : « هل جثوت كثيراً للصلاة في القطار ؟ »

مرغو : « لم اجث قط . اني أُصلي غالباً في نفسي . ولكنني كثيراً ما تلوتها بصوت عال مع فتيات المعمل ولم الاحظ قط ان واحدة منهن استخفت بهذا الامر

وكنا قد اقتربنا من المحطة التي نفترق فيها . فاعطيته عنواني لكي يكتب اليّ به . واسفتُ كل الاسف على مفارقتي لهذا الصديق العزيز الجديد . فارجع اليّ الكتاب وقرأتُ ما كتبه فيه :—

« هل تصلح الحياة لشيء آخر غير المسير حسب مشيئة الله والحصول علي ما يؤّهلنا لسكنى السماء وصحبة من فيها والتمتع بما فيها وقضاء وقتنا بل وقف حياتنا على اصلاح شأن العالم المتألم واسعاد اهله في الدارين ؟ وليم بوث »

ثم تناول يدي بكلتا يديه وقال :—

«سرني جداً لقاؤك . سيصلي كل منا لاجل الآخر . وارجو ان نجتمع ثانية عما قليل » فابلغته سدة ابتهاجي بصلاته ، واني لن انساه . وطلبت اليه أن يزورني أو يدعوني لزيارته. ثم ودعنا احدنا الآخر وافترقنا . وظللنا صديقين حتى توفاه الله

* * * * *

لقيت بيترفلورأول مرة في رانلاغ حيث دعا شقيقتي شارلوت دبسدايل لمشاهدة المتسابقين في لعب «البولو» وكانا جالسين تحت شجرة ارز يتناولان مثلجاً (جلاني). وكنتُ لابسة رداء من شاش رمادي اللون ونطاقاً اسود وبرنيطة سوداء ومتطوقة بعقد مرجان . ولما دنوت منهما سمعته يقول لأُختي :—

« تسع عشرة سنة ؟ لا يمكن ! كنتُ اظنها ابنة خمس عشرة! هل هي تلك البارعة في ركوب الخيل ؟ »

وبعد ماتصافحنا جلستُ ونظرت حولي

وكنتُ دائماً شديدة العناية بملاحظة ملابس الرجال. وقد نظرت الى بيتر فلور فوجدته أشد من عرفت من الرجال عناية بملابسه وتأنقاً فيها . ومما شاقني منه على الخصوص بعد اتقان ملابسه جمال تركيب جسمه وتناسق أعضائه وابتسامه الخالب وقوة حيويته المعدية أو التي لها خاصة الانتقال منه الى غيره .

قالت لي لورنس اوليفنت يوماً :—« الناس كلهم قسمان . قسم يعطيك حياة وقسم يأخذها منك » وكثيراً ماتحققت صحة هذا القول بالاختبار لاني كنت ولا ازال شديدة الشعور بقوى النفوس الحيوية . وعند ما اراجع في ذهني صفات الذين عرفتهم في حياتي لا استطيع ان اجد اكثر من ثلثة أو اربعة اشخاص كانوا متمسكين بالحياة مثل بيتر فلور . وهم انا واللادي كنرد

واللادي دسبورو وابني انطوني . والمتصفون بهذه الاخلاق على أنواع مختلفة فمنهم من تكون طباعهم غليظة والسنتهم حادة يتناولون بها ما ارادوا من الطعن والوقيعة ويخرجون غيرهم عن رقة الشعور . ومنهم من يكونون شديدي اللجاج والالحاح فيرهقونك ويكادون يزهقونك . اما بيتر فلور فكان ينعش ويروح قلب كل من يجتمع به . ولما ودعته ذلك اليوم في رانلاغ فمع شدة تذكري باني لم اكلمه ولا كلمني هو عن امر ذي شأن اتجهت أفكاري للاهتمام بهذا السؤال — متى يمكنني ان اجتمع به مرة ثانية ؟

وفي شتاء تلك السنة ذهبت مع شقيقتي شارلوت وزوجها اللورد ربسلدايل لزيارة اللورد باترسي اخي بيتر فلور حيث اقمنا برهة قضيناها في الخروج غير مرة للصيد والقنص في الغياض والحرجات. وكان بيتر معنا . وهو مشهور بالبراعة في ركوب الخيول والولوع بالصيد وعنده جميع المعدات اللازمة من جياد مروّضة وكلاب سلاقية مدرّبة وغير ذلك . وقد عرضت لي حينئذ عدة حوادث استهدفتُ فيها غير مرة لخطر السقوط والاشراف على الموت. وشهد لي بيتر فلور بشدة المهارة في الفروسية واتقان ركوب الخيل والتضلع من اساليب الصيد قائلا ان هذه البراعة الفائقة هي سرّ نجاتي من الاخطار التي تعرضت لها. وقد ركبتُ غير واحد من جياده فاحسنت سوقها واحكمت قيادها

وتلك البراعة الفائقة التي شهد لي بها وقتني حقيقة من مخاطر عديدة في اثناء الاغارات وهبوط الاحادير وتسلق الهضاب وخوض الجداول والقفز فوق الحفر والسياجات ولكنها قصرت مرة لسوء الحظ عن وقايتي من خطر تعرّضتُ له حين جمح بي الجواد جموحاً لم استطع كبحه وانتهى أخيراً بسقوطي عن ظهره . فحملت مغمى عليّ الى بيت عقيلة بنبوري التي كانت معنا في الصيد. وقد صارت فيما بعد من اعزّ صديقاتي

ولما أفقتُ قليلاً من اغمائي سمعتها تقول لبيتر بلهجة الغيظ والتوبيخ :—

« ألا ترى انه من الحمق ان تعرّض الناس لخطر ركوب هذا الجواد الجموح الذي بالجهد تستطيع انت ان تكبح جماحه وتُسلس قياده ؟ »

على ان سقوطي كان سليم العاقبة فلم أصب بأقل اذى. وكان اغمائي ناتجاً عن شدة الخوف وفرط الاعياء

اما قلق بيتر واضطرابه عليّ فحدث عنهما ولا حرج . ولما فتحت عينيّ وجدته جالساً يفرك قدميّ بكلتا يديه لتدفئتهما والخوف آخذ منه كل مأخذ . وتلك الايام التي قضيتها معه في الصيد كانت مبدأ التعارف والتآلف . ثم ترقت صداقتنا على توالي الايام وتحوّلت الى غرام وهيام وقضيت عدة اسابيع من ذلك الشتاء

عند عقيلة بنبوري في مقاطعة غرافتن حيث كنت اخرج للصيد ممتطية صهوات الجياد غير حافلة بما كان يعترضني من مصاعب قرس الزمهرير وتهطال المطر الغزير

ولما كان بيتر معدوداً من الاساورة المشهور لهم بالفروسية وحسن الرماية وقلما سمح لغيري من النساء ان تصحبه الى الصيد كان خروجه معي واهتمامه بان يُركبني نخبة جياده مبعث غيرة وحسد لامزيد عليهما . واول مشهد عرض لي من هذا القبيل كان في براكلي حيث اقام بيتر في بيت للصيد مع صديق له يدعى هتفيلد هرتر

وكانت في تلك الناحية سيدة بارعة الحسن والجمال معروفة باسم عقيلة بو . وقيل انها كانت في صباها ماهرة في ركوب الخيل . ولكنني لم ارها مرة استطاعت ان تقفز بجوادها حتى فوق غصن ملقى في طريقها . وعند ما كنت اذهب مع بيتر لانتقاء الجياد كانت عقيلة بو كثيراً ما تصحبنا . ولم تبدُ على بيتر اقل علامة تدل على شدة ميله اليها. على اني لم اتفرغ حينئذ لملاحظة شيء من هذا القبيل . وقلتُ له يوماً وقد خُيل اليّ انه مقصر في ايفائها حقها من الاحترام

« لابد انها كانت جميلة جداً في صباها . وما اظنه يليق بك ان تبدو في مظهر المغيظ المحنق كلما صحبتنا »

بيتر : « اتعدينها كبيرة ؟ »

مرغو : « على الاقل كهلة . لانهـا جاوزت الثلاثين . أليس كذلك ؟ »

بيتر : « وهل تعدينَ من تكون في سن كهذه عجوزاً ؟ »

مرغو : « لا أعلم ! كم سنة عمرك ؟ »

بيتر : « لا أقول »

وفي ذات يوم عدت من الصيد وثيابي كلها مبللة من شدة ما اصابني من المطر . وكنتُ قد تركتُ مركبة عقيلة بنبوري في اصطبل بيتر ولم اشأ ان ارجع وثيابي في هذه الحالة فصعدت الى بيت عقيلة بو لأستعير ثيابا جافة . فلم اجدها في البيت لـكن وصيفتها قضت لباناتي واعطتني ما كنت محتاجة اليه

وبعد ماتناولت الشاي مع بيتر الذي كان مريضاً ومضطجعاً في سريره ركبتُ راجعة الى عقيلة بو لاشكر لها جميلها فوجدتها في غرفة النوم متكئة على اريكة انيقة تدخن سيجارة وارج البنفسج يتضوع من جوانب الغرفة . فلم تستقبلني بمـا وجب من الحفاوة والتأهيل . ولما رأتني هممت بالخروج القت بسيجارتها الى النار واستوت في مقعدها وقالت :—

« قفي ! عندي شيء اروم ان اقوله لك . ألا ترين ان تناول الشاي مع رجل في سريره امر لا يُقدم عليه احد؟ »

مرغو : « حقاً اني لا ارى بأساً في عيادة رجل مريض ! »

عقيلة بو : « اذاً انصتي لي فاخبرك بما يراه غيرك في امر كهذا. اني اكبر منك سناً . ويحق لي ان انذرك واحذرك من ارتكاب فعل مثل هذا بعد الآن ! فعلى م تأتين الى هنا بين اناس كلهم أصدقاء بعضهم لبعض وتقدمين على ما ينكرونه عليك ويكون سبباً للقال والقيل ؟»

فأخذتني قشعريرة انتفضت لها كل اعضائي ونهضت قائلة :ـ

« خير لي ان اتركك الآن لاني متعبة جداً وانت في غيظ وحنق لامزيد عليهما »

عقيلة بو (منتصبة على قدميها ومقتربة اليّ) : « لو أُصيب بيتر فلور بالحمى الصفراوية لواظبتُ على تمريضه ولكنني مع اقامتي هذه السنين الثلث في دار لصق داره ما كنتُ قط لأفعل ما فعلته انت اليوم »

قالت هذا وقد لاحت على وجهها علامات سخط شديد ذاهب بها كل مذهب فأسفتُ على حالتها وقلت لها بما استطعت من اللطف والرقة :ـ

« لا ارى سبباً يوجب امتناعك عن فعل ما فعلته انا لاسيما وانتما صديقان متجاوران كما قلت . ومهما يكن فلكل انسان رأيهُ في ما يعتقده صواباً أو خطأً . اما الآن فينبغي لي ان اذهب »

ومشت نحو الباب عازمة على الخروج . لكنها اضاعت صوابها وخاطبتني بعنف وخشونة قائلة

«تقولين لكل رأيه في الصواب والخطاء أما انت فلا رأي لك فيها

وحينئذ غادرت غرفتها وذهبت ٠

ولما قصصتُ على عقيلة بنبوري قالت لي : —

شرٌّ أهرَّ ذا ناب فهي غيور منك على بيتر فلور . لانه قبل مجيئك كان يحبها »

فراعني جداً سماع هـذا الخبر وعزمت على مغادرة غرافتن والرجوع الى البيت لانه طال غيابي عن والديَّ ٠ وعلى الفور كتبت الى بيتر مظهرة أسفي على اضطراري الى السفر من غير توديعه . وفي اليوم التالي . وكان يوم أحد . جاءني منه كتاب الحبِّ الذي اعتاد ان يكتبه الي كل يوم سواء نظرته أم لم انظره ٠ وقد أخبرني في كتابه هذا بان درجة حرارته عادت فارتفعت ٠ وانه سيعطيني غداً — الاثنين — أفضل جوادين عنده لان الطبيب لا يأذن له في مغادرة الغرفة . لكنه زارنا بعد ماتناولنا الغذاء وعليه علامات الضعف والنحول . فحيته عقيلته بنبوري بلطفها المعتاد وقالت له : —

«كان ينبغي لك ان تبقى في سريرك ٠ أما وقد جئت فسأعهد الى مرغو ان تعتني بك ريثما اذهب لتعهد الجياد في الاصطبل »

ولما خلوت به نظر الي وقال : ـ

« وصلني كتابك. فما الداعي الى التعجيل في السفر ؟ ألم تعلمي اني انتظر وصول جوادين من ارلندا في هذا الاسبوع . واروم ان تركبيهما عني ؟ »

وقد رأيت محياه مغشياً بسحب الانزعاج والاضطراب فقلت له اني راجعة الى البيت لاني اطلت غيابي عن أهلي

بيتر « هل كتبوا اليك »

مرغو : « يكتبون الي دائماً . . . »

بيتر [وقد انكشفت له مواربتي] : « اذاً ماذا ؟ اخاف ان تكوني بخلاف ماسبق اليه ظني فيك : »

مرغو : « ماذا تعني : »

بيتر : « أعني انه لم يستقدمك احد من أهلك فلا بد من حدوث امر مفاجيء حوّل عزمك عن البقاء وحملك على التعجيل في الذهاب . فما هو هذا الامر؟ هل سمعت شيئاً من عقيلة بو ؟ »

مرغو : « لا اود التعرض لشؤون أحد اصدقائك »

بيتر [بغيظ لكنه يحاول ضبط نفسه] « وماذا يهمك كلام عجوز كانت بالامس طفيلية تأتينا بلا دعوة » وصارت اليوم تتعرض لما لا يعنيها ، »

مرغو ! « قالت لي انها صغيرة السن »

بيتر . ان هذا من اوضح الاكاذيب ، فقد قلتِ انت انها

سيدة جميلة وانا خالفتك في ذلك » [سكوت]

« ماذا قالت لكِ ؟ ينبغي ان تعلمي انها غيرى منك في ميدان الصيد »

مرغو : « لا . ليست غيرتها من هذا القبيل . بل هي بسبب وجودي في مخدعك . وتقول اني لا أعرف الصواب من الخطإ »

فأجفل بيتر في أول الامر ثم أغرب في الضحك وقال : —

« ليس في ذلك شيء من الغرابة ! »

مرغو : [بحنق] « اتعني ان هذا امر زهيد واني لا افرق بين الخطإ والصواب ؟ »

بيتر (آخذاً يديّ ومقبلا لهما وهو يتنفس الصعداء) « ياللعجب ! »

مرغو : (ناهضة) « على كل لا أرى ما يغريني بالبقاء هنا أو يحملني على ركوب احد جيادك بعد الآن وما من قوة تحت السماء تستطيع ارغامي على البقاء »

بيتر : « أ الى هذا الحد يبلغ بك الطيش والحمق ياعزيزتي مرغو ؟ ومن ذا يستهجن أو ينكر عليك ان تذهبي لتعودي مريضاً مسكيناً ؟ فقد كان من المحتم عليك أمس ان ترجعي جوادي الى الاصطبل وقد قضي عليك الواجب ان تمر بي وتسألي عني وتشكر لي حسن صنعي لك واهتمامي بك ووقف جيادي على خدمتك »

مرغو : « ان لسان حال هذه المقاطعة يناديني « ليس هذا بعشك فادرجي وبهذا القول جبهتني عقيلة بو • وكان من الواجب عليك ان تخبرني بانك كنت تحبها . قلت لي اني لست كما ظننتني • وهذا القول نفسه أقوله عنك : »

فنهض بتر وقد تحول ابتسامه الى تقطيب وعبوسة وقال : ـ

« اتعنين ماتقولين؟ وهل استنتجت هذا من حديثك مع عقيلة بو ؟ »

مرغو : « نعم »

بيتر : « اذاً سأذهب اليها واسألها لارى ايتكما الكاذبة : فان كنت انت لم يبق لك أقل احتياج للاهتمام بانطلاقك من هنا لاني سأبيع جيادي كلها • • • آه : ليتني لم اجتمع قطُّ بك »

واذ ذاك شعرت بقلق وانزعاج لامزيد عليهما ، لاني علمتُ ان عقيلة بو لم تقل قط ان بيتر كان يحبها ولم تبد أقل اشارة الى شعوره من نحوها . ولم ابطىء ان نهضت لاعترضه واحول دون خروجه وقلتُ له : ـ

« ان حالتك المرضية غير خافية عليك . وينبغي لك ان تذهب الى فراشك • وما الفائدة من جعل اسمي مضغة في الافواه ولماظة بين الالسنة والشفاه ؟ »

بيتر : « تنحي من طريقي ، اني مريض واروم الذهاب »

فلم اتحرك قيد شعرة • وكان الغيظ قد أخذ منه كل مأخذ

حتى كاد يفقدهُ الرشاد . ولم يكن يهون عليه ان يبيت اسمي موضوعاً لاحاديث القوم . فقلت له محاولة تسكين هياجه : —

« ان شئت مباحثتي أو مناقشتي الحساب فاني مستعدة لذلك بملء الارتياح • ولا شيء أسهل اليّ من الاستماع لحديث يتعلق بي

بيتر : « أرجو ان تغادري الباب : انك تريدين ارهاقي وقد خيم الظلام »

مرغو : « هل تمدني انك اذا سمحت لك بالخروج لا نذهب الآن الى عقيلة بو ؟ والا فاذا كنت مصراً على الذهاب اليها الان فاخبرني ماذا انت عازم ان تقوله لها »

بيتر : « لم تخبريني قط بما قالته لك سوى اني كنت احبها فلماذا يجب عليّ ان أخبرك بما أروم ان أقوله لها : لقد تغيرتِ جداً منذ جئت الى هنا حتى . . . • »

وقبلما اكمل جملته فتحت الباب على مصراعيه وهرعت صاعدة الى غرفتي ،

. . . .

كان بيتر معدوداً في حكم النساء من المعنِّتين المزعجين وذلك من جهة غيرته التي كان يبديها من حيث يروم ان يخفيها ومما كان يغيظه مني على الخصوص رقصي مع الملك ادورد الذي كان يومئذ ولي العهد (البرنس اوف ويلس) ، فقلت له ذات ليلة اني مستعدة للرقص معه اذا تدرب عليه واتقنه والا فاني

حرة في اختيار من أراه بارعاً في هذا الفن لـكي ارقص معه ، وعلى هذا الموضوع اختلفنا وطال بيننا الحوار والجدال، وبعدما رقصت مرتين مع ولي العهد انصرفت الى رقم ٤٠ في غروفنر سكوير من غير ان اودع بيتر • وفيما انا في غرفتي في لبسة المتفضل(١) وقد حللت عقد شعري سمعتُ صوتاً في الشارع • فنظرت من شباكي فرأيت بيتر على حائط مدخل بيتنا موجهاً نظره نحو شباك المـكتبة المفتوح وقد خيل الي أن نفسه تحدثه بالوثوب من موقفه الى داخل المـكتبة • وعلى الفور اسرعت نازلة لاحول دون هذا الخرق الخطر والطيش الجنوني • لـكن سبق السيف العذل • ولما فتحت باب المـكتبة كان بيتر قد استعار خفة القط ووثب الى الداخل ووقف بجانبي • فاوقدت شمعتين على منضدة الـكتابة ووبخته على هذا الطيش الفاحش. وبينما كان يحدثني عما أتاه من أعمال القفز التي نال عليها أكبر الجوائز المالية سمعت لغطاً في العرصة • وكأني بيتر من كبار اللصوص المحنكين انبطح على الارض وراء المتكاءِ وظللت انا واقفة بجانب المنضدة ادخن سيجارتي • ثم انفتح باب المـكتبة ونظرت فبهرني نور ساطع من مصباح • ولما تحول المصباح عن ناظري رأيت مفتش البوليس ومعه اثنان من رجاله وخادمنا • فتقدمت نحوهما متثاقلة أمشي

---

(١) ثوب النوم

الخيلاء حتي دنوت من المتكإ فجلست على ذراعه أو مستنده لاحجب عن عيون الناظرين ماخشيت ظهوره من جسم بيتر • ثم خاطبت مفتش البوليس بلهجة الانفة والاباء : —

« امن المعتاد اتيان مثل هذا المزاح ؟ »

المفتش (برصانة) : « كلا ياسيدتي • ولكن اسمحي لي ان اقول لك ان حوذيا أخبرنا بأنه رأى منذ بضع دقائق رجلا وثب داخلا من ذلك الشباك »

ثم ابتعد عني ورفع مصباحه بيده وأخذ يجيل نظره هنا وهناك فعثر على أصيص الزهر المنكسر الذي كان في الشباك وصدمه بيتر عند وثوبه • وحينئذ ايقنت انه لافائدة من الانكار وان قول الصدق كثيراً ما أخرجني من احرج المواقف • فرفست خادمنا رفسة شردت النعاس من عينيه وقلت

« نعم • ذلك صحيح فان احد اصدقائي وثب داخلا من ذلك الشباك منذ نحو ربع ساعة • ولكن لم يكن لصاً • • • »

هنري هـ (خادمنا) : « مرة قلت لك ياسيدتي انه ما دام الخواجه أدورد يضيع مفتاح البوابة الخارجية فلا بد من وقوع مثل هذه الحوادث . واخاف انه يوماً ما لايضيع المفتاح فقط بل نفسه أيضاً »

المفتش : « يسوءني جداً ياسيدتي اني أزعجتك • والآن ينبغي لي أن أكتب اسميكما »

مرغو (باهتمام) ؛ « اذاً انت عازم على ادراج هذه الحادثة في جدول انباء البوليس • فهل أخبرك الحوذي باسمه ؟ انه جدير بالمكافأة لانه وقانا من التعرض لخطر عظيم : »

وودتُ لو اني استطيع ان أمكن يدي من عنق ذلك الحوذي فاخنقه واخمد انفاسه • ولكنني تجلدت وقلتُ : ــ

« أكتب • مرغريت أما اليس تننت • هل من حاجة لذكر صناعتي ؟ »

المفتش (مشغولا بالكتابة في دفتر جيب صغير) ؛ «لا • شكراً لك » (ملتفتاً الى الخادم) : « اسمك »

وكان الخادم في كمال انتباهه حتى اني اسفت « على رغمي له ، فاجاب بصوت قصف كهزيم الرعد : ــ

« هنري هستنس ابلبي هل »

وقد أوجست خوف استيقاظ ابي والوقوع في ورطة يتعذر عليّ الخلاص منها ، لكن حسن الظن أراني ان خوفي كان في غير محله ، وخيم السكوت التام على بيتنا • وبعد انصراف رجال البوليس قلت للخادم ، ــ

« سأخبر أبي بكل ماحدث واطلعه على شدة حسن تصرفك في هذه المسألة

ثم رجعت الى المكتبة مضطربة الفؤاد واوصدت بابها وكان بيتر قد نهض من وراء المقعد مسروراً بزوال الاشكال فقلتُ له

بلهجة التعنيف ان هذه الحادثة ستقضي على حسن صيتي • وغداً يدرج اسمي في دفتر انباء البوليس وتتناقله الصحف ويصبح ملء الالسنة والافواه • لاني قرأت على وجه مفتش البوليس علامات علمه بحقيقة ماجرى . وان ذلك كله نتج عن غيرة بيتر العمياء وشدة تهوره وقلة تبصره وقد سحذ الهياج لساني وفسح لي مجال الكلام • لكن بيتر اعترضني وقال بلطفه المعهود —

« لايهمك امر مفتش البوليس ياعزيزتي انه صديقي ولو خيرت لما فضلت قط شيئاً في العالم كله على مشاهدة ماحدث. فقد لحت فيه آية في الحسن والجمال ولا أدري اي الثلاثة أولى بالجائزة الحوذي أم البوليس أم الخادم هل ؟»

مرغو « خل عنك الهذيان وقل لي ماذا تروم ان تفعل؟

بيتر (محاولا تقبيل يدي اللتين جعلتهما عمداً وراء ظهري) « ساكلم المفتش ود أولا ثم هستنس ابلبي »

مرغو « وكيف عرفت المفتش ود »

بيتر « عرفته في حادثة عرضت لي قبل الآن وسوف انهي هذه المسألة معه على مايرام وأنفحه بهدية نفيسة »

مرغو « لايليق بك ان ترشو البوليس يابيتر »

بيك « لست بعازم ان ارشوه مرادي ان اعطيه كلبي »

مرغو « ذلك الكلب الشرس السيء الخلق »

بيتر « نعم هو بعينه »

مرغو : « وقاك الله يا ود شر هذه الهدية ! »

وكأن هذا الحادث المزعج لم يكن كافياً لردع بيتر عن تهوره لاني بعد اسبوع سمعته في منتصف الليل يصفر تحت شباك مخدعي · ولشدة خوفي من استيقاظ والديّ على صفيره هرولت نازلة لافتح له البوابة الخارجية ، وعالجتُ السلسلة المحكمة في مصراعي البوابة فلم اتمكن من ازاحتها . لان الخدم وضعوها حديثاً باشارة هنري هل بعد حادثة تلك الليلة . ولما اعياني تحريكها وقفتُ في شباك المكتبة المفتوح وتوسلتُ اليه ان يذهب ويكفيني خطر التعرّض لحادث آخر لان ابي قد دخل الآن الى مخدعه وهو لا يزال مستيقظاً

فأصرّ على عزمه واشار اليّ ان ارفع الاصص (١) من امام الشباك لئلا يصدمها عند وثوبه وينشأ عنها صوت يوقظ أهل البيت كلهم . . فلم يسعني الا ان اجيب طلبه وأشاهد شدة خفته وبراعته في القفز باعجاب وسرور لا مزيد عليهما

ولم يمض على جلوسنا معاً على المتعد أكثر من خمس دقائق حتى سمعت وقع اقدام خارج باب المكتبة . واسرع من وميض البرق عدوتُ الي الشمعتين اللتين على منضدة الكتابة واطفأتهما براحتي يديّ ورجعتّ الى جانب بيتر على المقعد حيث جلسنا

---

(١) جمع اصيص وهو وعاء الزهر

كلانا في ظلام دامس . ثم انفتح الباب ودخل ابي وبيده شمعة واخـذ يدور في الغرفة ناظراً الى الصور الكبيرة المعلقة على جـدرانها . وكان المقعد الذي جلسنا عليه في رواق الشباك . وقد رأيت أبي يرفع الشمعة ويدنيها من كل صورة متفرساً فيها بعين المحبة والحنان . وكانت برنيطة بيتر وعصاه تحت احـدى الصور التي اتجه ابي نحوها واصبح قريباً منها . فلكزت بيتر من شدة جزعي . لكن ابي لشدة اقتراب الشمعة من وجهه لم يتمكن لحسن الحظ من الوقوف على أثرنا . وبعد ما كمل مطافه حول الصور خرج من حيث دخل

. . . .

على ان رياح الحوادث لم تستمر جارية على مشتهانا . ففي ذات ليلة اقترح بيتر ان اصحبه بعد خروجنا من المرقص لنجرب جواداً خباباً ( ) اميركياً اعاره اياه أحد اصدقائه . واذ كان القمر بدراً والسماء صافية الاديم اجبت اقتراحه واجتزنا غروفنر ستريت الى بارك لاين حيث وجدنا رجلاً ينتظرنا ومعه الجواد المذكور مقروناً بمركبة صغيرة فصرفنا الرجل وسرنا في المركبة ننتقل من شارع الى آخر حتى انتهينا الى عطفة غرونفرسكوير . ولم يسبق لبيتر عادة الرجوع معي الى البوابة الخارجية ولذلك ودعنا بعيداً

---

(١) يمشي الخبب

عنها قليلاً . وبعد ما اعانني علي النزول من المركبة وكنتُ لابسة جبته لاتقاء البرد قلتُ له : — « خذ جبتك عني » فاجابني : —

« خلي عنك هذه الولودية ! هل يصحّ ان تمشي الي البوابة الخارجية في ثوب الرقص ؟ واذا اتفق ان شخصاً كان واقفاً يتطلع من الشباك ورآك على هذه الحال فماذا يقول عنك ؟ »

فانتزعتُ جبته عني بعنف والقيتها علي ذراعه وقلتُ : —

« ليس فيهم عاقل يبقى مستيقظاً الى مثل هذا الوقت من الليل . وعلى كل حال اشكر لك ملاحظتك هذه »

ثم افترقنا أحدنا عن الآخر . وسريت وحدي الى البيت . ولما بلغت البوابة الخارجية فتحها ابي . واذ رآني في ثوبي « التول » الابيض اشتد حمو غيظه وطلب اليّ الافصاح عن تصرف كهذا ـ الطواف في الشوارع بثوب الرقص الى الساعة الثانية بعد نصف الليل . فاطلعته على كل شيء بالتفصيل وحذرته من شراء جواد خباب اميركي . فقال لي اني بعملي هذا معرضة صيتي وصيته للهوان وان سوء تصرفي سيورد والدتي حتفها . فطوقت عنقه بذراعي واوضحت له بكل لطف ورقة اني بالحقيقة لم اكن مسرورة ووعدته ان لا افعل ذلك مرة ثانية بعد الآن . وحينئذ كانت والدتي قد خرجت من مخدعها . فقالت بلهجة الاحتجاج والتوبيخ : —

« لا تستسلم ياتشارلي للهياج والغضب . وانت يامرغو قد ارتكبت خطأ عظيما ! كان يجب عليك ان تكوني اشدّ احتراماً لابيك . ومن ادرى منا بسرعة تأثره وسهولة هياجه ؟ قولي للمستر فلور اننا في أشد استياء منه ! »

مرغو : « لك الحق كل الحق ياوالدتي العزيزة . وهذا ماقلته له غير مرة . ولكن لا حاجة للاضطراب لانه لم يرني أحد على الاطلاق . فلنذهب الى فراشنا لان التعب آخذ مني كل مأخذ »

. . . .

وكان بيتر سيء التدبير في الامور المالية ومن كبار المقامرين. قال يوماً آسفاً ان سبيله الوحيد للاقتصادان يبيع افراسه ويذهب الى الهند حيث يتفرغ للصيد ويتخلص من دائنيه .

ولما سافر الى الهند شملني الحزن على فراقه. ولكنني مرضاة لوالديّ قلتُ لهما اني بعد وداعه انقطع عن الكتابة اليه مدة سنة . وقد وفيت بوعدي هذا كل الوفاء

وفي اثناء غيابه عني هام بي شاب غني كان من جملة الذين صحبتهم الى الصيد وباح لي بغرامه لكنه لم يطلب الاقتران بي وقد مات اليه بعض الميل ولكنني لم اعبأ بشدة اهتمامه بي . وهذا مما هاج فيه لواعج الموجدة . فقال لي في مساءأحد الايام ونحن راجعان من الصيد اني لا بد ان احب شخصاً آخر غيره . فاجبته قائلة انه مخطيء في استنتاجه وانه ان كان ذا عقل فليدع

الكلام عن الحب جانباً ويهتم بشراء بعض الجياد استعداداً لفصل الصيد القادم

فعمل بنصحي وذهب الى حيث تباع جياد الصيد في لندن واتفق انه كان بين المعروض منها للمبيع الجواد « جاك مادن » الذي كان قبلا لبيتر فاور . فعزم صديقي ان يشتريه لي. لكن واحداً من الحاضرين هناك قال له : —

« لا اشير عليك بشراء هذا الجواد لانك لا تستطيع ان تركبه ! »[والشخص الذي قص علي هذا الخبر زاد عليه قوله : — « ولا يخفى عليك أيتها الآنسة تننت ان هذه هي الوسيلة الوحيدة لاغراء الشاري وحمله على الابتياع]

وقال له رجل آخر : — « لا اوافقك على رأيك هذا . فالجواد من خير ما يقتنى . ولما كان لبيتر فلور رأيتُ الآنسة تننت ممتطية صهوته وهو يعدو بها كعدو الطائر »

فسأله صديقي : — « وهل ركبت الآنسة تننت جياد فلور ؟ »

فاجابه ذاك : — « ان سؤالك هذا يا عزيزي يدل على انك لم تعش في هذه البلاد ! »

. . . .

وبعد بضعة أشهر كنتُ في اثنائها قد ركبتُ « جاك مادن » وغيره من جيادي جاءني صديقي وقال لي ان عنده سراً يروم

ان يفضي به الي بشرط ان اقسم له على الكتاب المقدس باني لا ابوح به لاحد . وبعد ما اقسمت له قال : —

« ان محكمة الافلاس كانت عازمة على شهر افلاس صديقك بيتر فلور الذي هو الآن في الهند وعلى منعه من دخول جميع الاندية في لندن . فذهبت الى سام لويس واوفيت دين فلور . لكنني لا اروم ان يعلم شيئاً عن هذا الامر ولن يعلم الا اذا اخبرتهِ أنت »

مرغو : — كم عليه من الدين ؟ ولمن هو مديون ؟ »

صديقي : « عليه عشرة آلاف جنيه . ولكن غير مأذون لي ان اذكر اسم الدائن »

مرغو : « هل بيتر فلور صديقك ؟ »

صديقي : « لا اعرفه سخصياً . ولم اكلمه قط في حياتي . ولكن حسبي انه الرجل الذي تحبينه »

. . . .

ولما مضت سنة كاملة على غياب بيتر وكان — على ما اعلم — باقياً في الهند عزمت عزماً باتاً على عدم تجديد علاقات الصداقة معه . وذهبتُ حسب عادتي في الشتاء الي بيت اللورد مانرس للتفرغ للصيد والقنص

وفيما انا أحدث نفسي هناك بوجوب الثبات على هذا العزم اذا به عاد بغتةعلى غير انتظارمي . ولم يلبث ان زارني . وطفق

يحدثني عما شاهده في الهند من المناظر وعرض له من الوقائع . ثم استطرد الى ذكر دينه فقال انه كله اوفاه عنه محسن كريم ابى سلام لويس ان يخبره باسمه على رغم شدة الحاحه عليه لانه وعد ذلك المحسن الكريم بقسم انه لن يبوح باسمه

فخفق قلبي واندفعت بحمقي وطيشي الى ان قلت له : —

« لله ما اكرم ذلك الرجل ! ولكنك عازم على ايفائه . اليس كذلك يا بيتر ؟ »

بيتر : « لا ريب فيه ! اذاً لعلك قادرة ان تخبريني من هو ... »

مرغو : « من أين لي ذلك ؟ »

بيتر : « هل تعرفينه ؟ »

مرغو : « لا »

وحينئذ خيل الي انه صاح الديك (١). ولحسن حظي اشتغل بيتر بتحية اصدقائه وسرني جداً انه لم ينظر الى وجهي ليشاهد علامات الارتباك عليه

وبعد أيام ذهبت مع بيتر الى سباق وهناك رأيتُ صديقي الجديد — صاحب الجواد « جاك مادن » — يكلم ولي العهد

---

(١) اشارة الى قصة بطرس في الانجيل حين انكر معرفة المسيح وصاح الديك

واقترح ولي العهد ان نذهب كلنا لمشاهدة جواد عقيلة لنغتري المشهور بانه شديد الجموح وصعب القياد

ولما جئنا الى حيث كان الجواد فسح لنا الجمهور مجالاً للاقتراب منه فوقفت والى جانبي صديقي القديم يليه بيتر فلور فولي العهد . وكان الجواد قد عصبت عيناه ورفع خادم الاصطبل احدى يديه . فلما امتطاه احد ركاب خيل السباق « جوكي » ورفعت العصابة عن عينيه وثب في الهواء ورفس رفسة عنيفة جداً . وكنتُ قريبة منه فشعرتُ بشدة تأثيرها في الهواء المحيط بي لانه هب عابثاً بشعري . وحينئذ صرخ صديقي صرخة طفيفة وطوقني بذراعه جاذباً اياي نحوه . فشكرت له حسن اهتمامه بوقايتي وتحولت نحو ولي العهد فتحدثنا ملياً . ثم رجعنا كلنا من حيث اتينا

ولم تسنح لي في ذلك اليوم فرصة الكلام مع بيتر . ولكنني رأيت وجهه مغشياً بسحب القلق . وفي اليوم التالي — وكان يوم احد — طلبتُ اليه ان يصحبني الى الاصطبلات بعد الخروج من الكنيسة فابى . وذهبت وحدي . وبعد العشاء حاولت ان اكلمه فلزم الصمت ولم يحر جواباً . ولاحت على وجهه علامات الحزن . وصعدنا كلنا الى مخادعنا قبل الوقت المعتاد . وظل بيتر في الطبقة السفلى يطالع . واذ انه لم يسبق له قط عادة المطالعة في الشتاء تحققت ان أمراً ذا بال عرض له . فنزلت الى الغرفة ولم يكن

فيها غيره . لكنه لم يرفع نظره الي : —

مرغو — « ماذا حدث يا بيتر حتى انقطعت عن الكلام معي ؟ »

بيتر : « ارجو ان تتركيني وترجعي الى مخدعك »

مرغو (جالسة على المقعد بجانبه) : « افلا تكلمني وتخبرني بما جرى ؟ »

بيتر (واضعاً الكتاب من يده وناظراً اليّ متفرساً : « لا اروم ان اكلم كاذبة مثلك ! »

مرغو (ناهضة كمن اصيب بطلق ناري) : « كيف تجسر ان تخاطبني بمثل هذا الكلام ؟ »

بيتر : « لانك كذبت عليّ »

مرغو : « متى؟ »

بيتر : « أنت تعلمين جيداً ! انك عاشقة ! انت تعلمين ذلك فهل تنكرينه

مرغو : « أمن هذا أنت قلق ومضطرب ؟ وما تقول اذا اخبرتك باني لست كما تتهمني ؟ «

بيتر : « اقول انك تكذبين أيضاً »

مرغو : « هل كذبت عليك قط يا بيتر ؟ »

بيتر : » ما ادراني ! لقد كذبت مرتين . ويظهر لي انك تعودت ذلك في غيابي »

مرغو : « بيتر ! »

بيتر : « ان الرجل لا يصرخ كما صرخ د . امس ان لم يكن عاشقاً . فهل لك ان تخبريني من اوفى ديوني ؟ »

مرغو : « لا . اريد »

بيتر : « هل هو د . ؟ »

مرغو : « لا اقول . لست انا سام لويس . وما دمت تعدني كاذبة فلماذا تسألني هذه الاسئلة التافهة ؟ »

بيتر : « آه يامرغو ان هذا اشد ضربة اصابتني في حياتي ويلوح لي انك تخادعيني. اني عالم الآن من أوفى الديون »

مرغو : « اذاً لماذا تسألني ؟ »

بيتر : « قبلما ذهبتُ الي الهند لم اكلم د . قط.فماذا حمله على ايفاء ديوني ؟ . وخير لك ان تصدقيني القول وتفصلي الخطاب فالامر مقضي وانت عازمة على الاقتران به »

مرغو : « اذا كنتْ قد تعودتُ الكذب كما قلت لي فلماذا لا تكفي نفسك مؤونة القاء مثل هذه الاسئلة الخسيسة ؟ »

بيتر (ممسكا يدي بالتياع وتألم) « قولي انك لست عازمة على الاقتران به ... قولي لي قولي ان هذا غير صحيح! »

مرغو : « لماذا اقول ؟ فانه لم يطلب الي الاقتران به على الاطلاق »

. . . .

وحينئذ انفسح المجال لمطارحة الحديث عن الزواج • ولما كلمني في هذا الموضوع اشتدّ فيّ القلق والانزعاج لاني علمتُ بانه سينتهي بالقضاء على صداقتنا . وقد افضى الى ما هو شر من هذا — الى وقوفي موقف المخالفة لارادة أبي الذي كثيراً ما قال لي : —

« لن تقترني بفلور . يجب ان تقترني بمن هو فوقك لا بمن هو دونك »

وكان بيتر نفسه شاعراً بحرج موقفه من هـذا القبيل . فانه قال لي في مساء أحد الايام ونحن راجعان را كبين مشيراً بيده الى الى منارة كنيسة ماتون : —

« هل تنظرين تلك المنارة ؟ انك مثلها . فانت منارة حياتي ولا استحق زرّ حذائك [1] »

مرغو : « خل عنك هذا الكلام . ولكن على كل حال لا ارى زواجنا في مصلحتنا »

قلتُ هذا والاسف ملء فؤادي. لان مجرد افتكاري في ان اعيش العمر مع رجل لا يستطيع ان يحب أحداً آخر خارجاً عن نفسه وعني وهو خال من كل طموح ادبي وليس له أقل اهتمام بالامور الدينية والشؤون السياسية — مجرد افتكاري في هـذا كانت وطأته على قلبي أشـد من وطأة الكابوس على جسم النائم • ثم قلت له : —

« ماكنتُ قط لارفض الاقتران بك يا بيتر لو كان لك منصب او مقام ذو شأن. ولكنني آبي كل الاباء ان اقترن برجل مكسال لا يبالي الا بنفسه وبي »

بيتر : « بماذا ترومين ان اهتم ؟ بالجغرافية ؟ »

مرغو : « خل عنك التجاهل . فانت عالم مرادي حق العلم ان قواك كلها موجهة الى المغازلة لا الى الحب الحقيقي . فلست محباً لاحد غير نفسك »

فابتعد عني متألماً من شدة وقع هذه الضربة وقال بلهجة قاسية : —

« يسرني اني لم اتفوه بمثل هذا الكلام الفظ . واني بعد الآن ارثي من صميم فؤادي لحالة من يسوقه سوء الحظ الى الاقتران بك ! فانه سيظن في أول الامر — كما ظننت أنا — انك محبة ذات شعور حي وحنو صادق ولطف حقيقي ولكنه يرى نفسه أخيراً انه تزوج امرأة ذات صلف وغرور ويجد ان حرارة محبتها التي تباهي بها وتفاخر ليست سوى نار آكلة تحرق القلوب وتشق المرائر »

وحينئذ شاهدت من بيتر شخصاً آخر لم اعهده قط من قبل وقد هالني منظر وجهه الدال على شدة آلام نفسه . فدنوت منه والقيت رأسي على رأسه وقلت له : —

« أفي استطاعتي بعد هذا كله ان اتوقع منك اقل امانة

واخلاص يا عزيزي بيتر ؟ »

* * * * *

وكانت حادثة عقيلة بو التي ذكرتها في الفصل السابق عبارة عن درس مفيد لي علمني ان احـذر الناس واعاشرهم على دخل .

وبعد ايام لاحظت امرأة سمراء حسنة الطلعة تقتفي أثر بيتر فلور في كل مرقص ومجتمع . ولمـا كلمته على سبيل المداعبة والمضاجرة قال لي انها اخفقت في استمالته اليها ولم تفزمنه بطائل واني تملقته مدفوعة بعامل الغيرة . فاجبته : —

« لا ادري هل كان هـذا من غيرتي . لـكنني مقتنعة كل الاقتناع بان هذه المرأة لبئس الصديقة لك »

بيتر : « اراك على الدوام تستهجنين كل ما يخالف رغبتك ولا يأتي وفق مشتهاك ، ولـكن لماذا ابذل حياتي لاجلك ؟ واي عوض انال منك ؟ اني اضحوكة لندن ! ولـكن قـد يسرك ان تعلمي اني لا ابالي بالسيدة السوداء — كما تلقبينها — ولا اراها الا في الاجتماعات »

وقد بلوت بيتر وعرفته كما يعرف القط طريقه في الظلام ·

وأراه أصاب بقوله أي عوض ينال مني ؟ على اني لم اشعر باقل ميل الى الحجاج واللجاج

وفي ذات يوم طلبت اليه ان يوافيني في مكان عينته له ·

فادهشني قوله انه سبق ورتب ان يذهب لعيادة شقيقته المريضة وكانت السيدة الملقبة بالسوداء الحت علي غير مرة ان ازورها فامتنعت فخطر لي اليوم ان ازورها لاني كنت غير متقيدة فيه بان ازور او ازار . وكان الحرّ شديداً جداً والشوارع والحدائق غاصة بالنساء البارزات في ملابس كلها مما خف ورق وقصر وصغر الا البرانيط فانها كانت لشدة كبرها اشبه بالمظال

ولما بلغت منزل السيدة وقرعت الجرس فتح لي الخادم . واذ سمعتُ صوت البيانو قلتُ له : — « لا تعلن اسمي » ثم دخلت وفتحت باب الغرفة فوجدت بيتر جالساً بجانب السيدة على مقعد بجانب البيانو . وكانت لابسة ثوباً فضفاضاً (واسعاً) من حرير اسود لا كمين له كثير الانفتاح من جهة العنق وهو مشدود بنطاق مرجاني اللون وعلى شعرها الاشعث وردة بيضاء . فوقفت لا ابدي حراكاً مفتونة بجمالها ومدهوشة بمشاهدة بيتر هناك على غير توقع ولا انتظار . فخفت ناهضة ترحب بي مبدية شدة سرورها بزيارتي وشاكرة حسن الحظ الذي اسعدها بمجيئي ولاسيما في عصر ذلك اليوم لانها موعودة بزيارة رجل اسباني بارع جداً في البيانو فاطرب بسماعه لان بيتر حدثها عن شدة تضلعي من الموسيقي الخ . الخ . واعتذرت عن مقابلتي في ثوب كهذا قائلة انها كانت عند المصور . ولم تغير لبسها لانها لشدة الحر لم تتوقع زيارة أحد . وقبلما اتمكن من الجواب قالت لي

انها اساءت الى بيتر في منعه عن القيام بما وجب عليه بعد ظهر ذلك اليوم . الى ان قالت وعلى عينها غمزة خفيفة : —

« ومما عرفته عنك أيتها الآنسة مرغواري انك ما كنت قط لتقدمي على فعل ذميم كهذا »

فأخذتني قشعريرة كاد يجمد لها دمي وقلت : —

« لا تصدقي ما سمعتيه عني ! فقد عقته عدة سنين عن المسير في سبيل الواجب . اليس كذلك يابيتر ؟ »

ثم تلا ذلك سكوت ازعجني وتعنيت حتى وجدتُ وسيلة للخروج من هذا المأزق . وما لبثت ان ودعتها وانصرفت

ولما بلغتُ غرفتي اقفلت بابها وانطرحتُ على مقعدي واستغرقت في البكاء وذرف الدموع . حقاً لقد اصاب بيتر بقوله : « لماذا ابذل حياتي لاجلك ؟ » . نعم لماذا ! ولكن مع هـذا كله ارى هذه النهاية امراً مخيفاً لا اطيق احتماله

« أيّ عوض اذال منك ؟ » . نعم أي عوض ؟ بل أي حق لي ان اطالبه بالامانة والاخلاص ؟ كنت اظنني اقايض ذهباً بفضة ولكن السيدة السوداء عدّتها مقايضة نحاس بذهب . فهل هي موطنة نفسها على بذل كل شيء من غير ان تنال شيئاً على الاطلاق ولكن لماذا اقول هـذا ؟ وما هو مبلغ علمي بمحبة بيتر لها ؟ كل ما عرفته محصور في انها علمته الكذب . ولا بد انه يحبها محبة شديدة مكنته من حفظ ما تعلمه . لم يكذب عليّ قط من قبل

وفي مساء ذلك اليوم صحبت ابي وامي الى الاوبرى . وجاء بيتر الى اللوج الذي كنا فيه والبؤس والشقاء مخيمان عليه. وبعيد دخوله ناولتني الخادمة رقعة طالبة الجواب عنها . ففتحتها وقرأت فيها ما يلي : —

« اذا شئت ان تصنعي معروفاً عظيما فتفضلي بمقابلتي في بيتي الليلة بعد خروجك من الاوبرى . لا تقولي لا »

فاريتها لبيتر لانها كانت من السيدة السمراء فقال لي «اذهبي» فسألته ماذا تريد مني فقال انها في يأس وحزن لا مزيد عليهما . قلت :

« آه يا بيتر ماذا فعلت ؟ »

بيتر : « قطعت علاقتي بها الى الابد »

فكتبت على الرقعة نفسها « نعم » واعطيتها للخادمة

وبعد خروجنا من الاوبرى اخبرتُ والدتي بما كنت عازمة عليه . وكان بيتر في انتظاري فذهب بي في مركبة الى منزل السيدة وقال انه ينتظرني . وكان ذلك بعد منتصف الليل

ففتحت لي منافستي الجميلة البوابة الخارجية وصعدت بي الى مخدعها . فجلسنا على كرسيين متقابلين ونظرت اليها وهي في ثوب النوم — من حرير ازرق — فعلمت انها كانت قبل مجيئي مسترسلة في البكاء والنحيب . وما عتمت ان قالت لي : —

« أشكر لك تفضلك بالمجيء . واظنك تعلمين لماذا اردت

الاجتماع بك الليلة »

مرغو : « لا . ليس لي أقل علم بذلك ! »

السيدة (حائرة) : « اروم ان تحدثيني عنك »

فاستهجنت هذه الفاتحة . لانها دعتني لاحدثها عن بيترفلور لا عني . ولكن لماذا احدثها عنه او عني ؟ لماذا اجالس غريبة عني واحدثها عن نفسي في مثل هذا الوقت من الليل . فقلت لها انه لا شيء عندي لاقوله لها . فاجابت بانها لقيت اناساً كثيرين يهتمون بي حتى انها كادت تعرفني قبلما رأتني. فقلت : — « اذاً لم تبق حاجة للكلام عن نفسي »

السيدة : « لكن بعضهم يهتم بنا كلتينا »

مرغو (بشيء من الاستخفاف : « ربما »

السيدة : « ارفقي بي . اود ان اعلم هل تحبين بيتر فلور ... هل ترومين الاقتران به ؟ »

اخيراً انتهينا الى السؤال المهم . هـذا السؤال الخطير الذي لم يسألني عنه أحد حتى أمي نفسها وكانت دائماً تجتنب توجيهه اليّ ! أفلآن أُجيب عنه .... سيدة غريبة ؟ فقلتُ وقد بذلتُ جهدي في ضبط نفسي : —

» لعلك تعنين بسؤالك هل انا مخطوبة ؟ »

السيدة : « اعني ما قلته . هـل انت عازمة على الاقتران بيتر ؟ »

مرغو : « لم اقل له قط اني عازمة عى ذلك »

السيدة (بكل تأن) : « لا تنسي ان حياتي موقوفة على جوابك »

وقد خرجت كلماتها من فيها كأنها جمرات نار . حتى اني شعرت بشيء من الرفق بها . وكانت منحنية الى الامام وعيناها شاخصتان في عيني ويداها مشبوكتان احداهما بالاخرى بين ركبتيها . ثم قالت : —

« اذا كنت لا تحبينه محبة تكفي لحملك على الاقتران به فلماذا لا تتركينه لي ؟ لماذا تبقينه معلقاً بك ؟ لماذا لا تطلقين سراحه ؟ »

مرغو : « انه حر في ان يحب من يشاء . لست بمكرهة له على الارتباط بي . لكنني لا اشارك أحداً — أيا كانت — في محبته »

السيدة : » لا تحبينه ولكنك شديدة الحرص عليه وفي ذلك ما فيه من الغرور ومحبة النفس ! »

مرغو : « ليس هذا صحيحاً ! اني مستعدة لاطلاق سراحه من غد . وقد قلتُ له ذلك الفمرة ان كان يروم الزواج . ولكنه غير قادر عليه »

السيدة : « عجباً كيف يمكنك ان تقولي هذا ' ان ديونه كلها قد اوفاها عنه — الله يعلم من — لعلها تكون امرأة !

وانت نفسك غنية . فماذا يحول دون اقترانك به؟

مرغو : » ليس هذا موضوع افتكاري . وما اظنك قادرة على ادراكه ولو اوضحته لك »

السيدة : « لو كنت تحبينه حقيقة لما استطعت ان تكوني شديدة المراقبة والانتقاد الى هذا الحد ! »

مرغو : « ذلك ما استطيعه بكل سهولة ! انك لا تعرفينني

السيدة : «اني احبه حباً تعجزين عن ادراك كنهه. ومستعدة لان اضحي في سبيله بكل عزيز وغال »

مرغو : « ماذا يمكنك اجراؤه في سبيل مساعدته ؟ »

السيدة : « اني مستعدة لان اهجر زوجي واولادي واذهب معه الى حيث اراد »

فكان لكلامها هذا في قلبي وقعاً أشد الماً من طعنة خنجر : وقلت لها : —

« تهجرين زوجك ! واولادك ! وأي مساعدة ينالها بيترفلور من الشقاء الذي تجلبينه على نفسك وعلى أهل بيتك ؟ وما اظنه يرضى بفعل رجس دنس كهذا »

السيدة « افتظنين ان شده محبته لك تحول دون اقدامه على الهرب معي ؟ »

مرغو (بغيظ وحنق) : « لا اعلم »

السيدة ماذا تعرفين عن المحبة ؟ لقد كان لي مئة محب وعاشق

وبيتر فلور هو الرجل الوحيد الذي به عنيت واليه وجهت اهتمامي فان لم تتركيه لي قضي عليّ ومتُّ غماً ويأساً »

مرغو : « خلي عنك البحث في ما لا معنى له . فقد سبقت وقلت لك انه حر طليق يفعل ما يشاء »

السيدة : « وانا اقول لك انه ليس حراً ! وهو يعدُّ نفسه مقيداً . وقد اطال الكلام معي بعد ظهر اليوم في هذا الموضوع عند ما اراد ان يقطع علاقاته بي »

مرغو : « والان ما الذي ترومينه مني ؟ »

السيدة : « ان تقولي لبيتر انك لا تحبينه محبة صادقة وانك غير عازمة على الاقتران به وان تتركيه وشأنه »

مرغو : « افتريدين اذاً ان اتركه لك ؟ هل تحبينه أنت محبة صادقة ؟ »

السيدة : « دعي عنك الهذيان ! فلو هجرني انتحرت »

ولم أر بعد هذا من داعٍ لاطالة البحث معها فقلتُ لها ان بيتر له الحق كل الحق ان يفعل ما يشاء واني لا اريد ولا اقدر ان اعارضه في ما يعزم عليه من هذا القبيل . واني عما قليل ذاهبة مع أختي لوسي الي ايطاليا حيث ابقى على كل حال منقطعة عن مشاهدته عدة اسابيع . وان مساعيّ في هذه السنين كانت موجهة الى اصلاح شأنه واعداده لان يكون رجلاً صالحاً

لاقتراني به . اما مساعيها هي فمخالفة لذلك على خط مستقيم . ثم أخذت اتهيأ للانصراف فقالت لي ! —

« قفي دقيقة . اروم ان اتحقق بنفسي هل انت كما يصفك بيتر من حيث جودة النفس وصلاح القلب . لا تجيبي حتى انظر الى عينيكِ »

ثم دنت مني وفي يدها شمعتان . وبعد ما اطالت التفرس في عينيّ جثت امامي على ركبتيها . فنظرتُ الى عينيها المتقدتين بنور الهياج ومددتُ يديّ نحوها وقلتُ : —

« انهضي انهضي : لست على شيء من الصلاح : ويحزنني جداً جداً ان اراك جاثية عند قدميّ «

السيدة (ناهضة فجأة) : « ناشدتك الله ان لا تأخذك اقل شفقة عليّ : »

ولما رجعت الى غرفتي وتأملت ملياً في الحديت الذي دار بيني وبين تلك السيدة وتمثلت لديّ حالة بيتر الحقيقية وجدت ان بيني وبينه تبايناً عظيما . وعزمت عزماً ثابتاً على الابتعاد عنه

وبعد ايام زارني اللورددوفرن في غروفنرسكوير وقال لي : —

« حتى متى يا مرغو تهملين أمر الزواج ولا تلتفتين اليه ؟ فقد بلغت السابعة والعشرين . ولا يخطرنّ ببالك ان الحياة تظل مصافية لك ومسالمة اذا بقيت جارية فيها هذا المجرى . هل

يخامرك اقل ارتياب في كوني صديقاً قديماً لك واني احبك واغار عليك ؟ اذاً دعيني ازودك بهذه النصيحة : ينبغي لك ان تتزوجي على رغم كونك تحبين . ولكن لا تجعلي الحب سبب الزواج »

وقبلما شخصت الى ايطاليا ودعت بيتر وودعني وداعاً كان خاتمة اللقاء بيننا

وقد نفس افتراقنا كرب اصدقائي تنفيساً طال ترديدهم له وتحدثهم عنه حتى تضايقت منه تضايقاً حملني على اجتنابهم والالتجاء الى رجل غريب



الفصل الثاني عشر

عرفت زوجي أول مرة في وليمة عشاء اولمها سيريل (١) اخي بيتر فلور سنة ١٨٩١ . وكنت الى ذلك الحين لم اسمع به وهذا ما ضاعف اسفي على اضاعتي ايامي الماضية باطلاً (٢)

وقد اقيمت هـذه الوليمة في مجلس النواب . وجلست فيها بجانب زوجي ولم يلبث ان استمالني اليه برقة حديثه وجمال وجهه المطبوعة عليه صورة وجه كرومول . ورأيت حينئذ — كما لا ازال ارى الى الآن — انه متى شرع في محادثة جليسه ايا كان اراح سمعه وادخل السرور الى قلبه . وتلك موهبة قل من يؤتاها من الناس . وكان يختلف عن غيره ممن عرفتهم قبله . ومع انه لم يكن من المحافظين على الازياء في ملابسهم فقد كان ذا شخصية او وجاهة رائعة حتى اني على الفور حكمت بانه هو الرجـل الذي

---

(١) المرحوم اللورد باترسي

(٢) المترجم : كأني بها تلمح الى معنى ابي الطيب بقوله في أحد ممدوحيه : —

كريم لفظت الناس حين بلغته كأنهم ما جف من زاد قادم

وكاد سروري لا يفي بندامتي على تركه في عمري المتقادم

يقدر ان يأخذ بناصري ويستحق ان يطلع على سرائري

وبعد ما فرغنا من تناول العشاء خرجنا كلنا الى الشرفة . واسعدني الحظ بان وجدتُ صديقي الجديد جالساً بجانبي . وحاول اللورد باترسي ان يفصل بيننا بهزله المألوف ومزاحه المعروف فلم يفلح . ثم خلوتُ بصديقي الجديد في جانب الشرفة حيث استندنا الى حاجزها واطللنا منه على النهر وظللنا نتجاذب اطراف الاحاديث الى آخر هزيع من الليل

ولم يدر قط في خلدي انه كان متزوجاً . على اني لو علمت ذلك لما كان له أقل تأثير فيّ . ولطالما وددت لو تزوج بيتر فلورغيري لانه كان اكبر مني بثلاث عشرة سنة . ولكن الزواج لم يكن الغرض الذي وضعناه امامنا

ثم اجتمعت به بعد ايام في بيت أحد اصدقائي القدماء الاثرياء المستر اجونون وست حيث تناولنا العشاء . ومنه علمت حينئذ انه متزوج . وما حدثني به يومئذ [illegible] محتشم . وقد تحققت فيما بعد صحة هذا الامر [illegible] حتى الآن . ويسرني اني لم الاحظ ذلك في حينه . لاني كثيرا ما كنت ارغب عن [illegible] المتشحين بصبغة الشدة والاستحياء . لاني احب الودعاء المتواضعين وارثي لحالة الجبناء الخوّافين ولكنني اتضايق من المستحين المحتشمين

هذا ولا يسنني القول ان زوجي كان حيياً . الحق انه

[illegible]

الموضوعة له هذه الكلمة. فهو قليل اللباقة في حركاته. يتورد خجلا اذا مدحه مادح ولكني لم أره قط في أحد مجالس الهيئة الاجتماعية يحير ويرتبك لمعضلة من معضلاتها . ومما شاقني منه منذ تعرفت به صدق نظره الفريزي في من يعاشرهم على اختلاف اطوارهم وفي ما يعرض له من الامور على تنوع اشكالها . زد على ذلك ذكاءه الطبيعي ومعارفه الاكتسابية ونقصانه العجيب الغريب من الزهو والغرور ووداعته المنقطعة النظير

هذا بالاختصار وصف بعض مزايا ذلك الرجل الذي توثقت بيني وبينه عرى الصداقة منذ اجتمعت به على مائدة العشاء في مجلس النواب . ولما توفيت زوجته وجدت نفسي في احرج المواقف . فقد راعني الافتكار في ان اكون زوجة ارمل وراعية أولاده. ولكنه حان وقت الفصل في أمر يفضي الى تغيير تام في حياتي . وكنت مدة ارتباطي بصداقة بيتر فلور اواصل الكتابة اليه كل يوم — في ما خلا الشهور التي قضاها في الهند هارباً من وجوه دائنيه — واصلي لاجله كل ليلة . ولكنني لما عقدت عزمي على الانفصال عنه طويت من سجل حياتي صفحة لم يبق قط من سبيل الى نشرها . ولما اسر الي هنري اسكويث انه يرى بي ناجاني ذلك الصوت الداخلي — الذي يشعر به كل منا على تفاوت في الخفاء والوضوح — قائلا لي اني لا اكون مخلصة لنفسي ولا جديرة بالحياة اذا قرع رجل كهذا بابي ولم افتحه له

على مصراعيه

ولما ذاع خبر خطبته لي وعزمه على الاقتران بي كان له رنة دهشة واستغراب في بعض الدوائر والمجالس حتى ان اللورد روز بري واللورد رندل تشرشل مع اجتنابهما التعرض لشؤوني لم يسعهما الا ان يبديا شدة تأسفهما على حصول هذا الامر. وكثيرون غيرهما شاركوهما في الخوف على مستقبل اسكويث من هذا القران. واخوف ما خاف علي اصدقائي الاخصاء اقدامي على خطر الدخول في أسرة تربي اولادها على غير منهجي والاقتران برجل لا يميل الى شيء من الالعاب الرياضية التي لي بها ولع شديد وليس عنده من المال الا ما يحصله من اشتغاله بالمحاماة

وأشد أسف كان من رفقائي في الصيد لاني لم اقترن برجل من مشاهير الصيادين وقالوا لي انهم كانوا عازمين على توقيع عريضة يطلبون فيها اليّ ان لا انقطع عن مزاولة الصيد. ولكنهم عدلوا عن ذلك مخافة ان يعد منهم فضولاً او تعرضاً لما لا يعنيهم وهاجت الخواطر لخبر خطبتي في شرق لندن كما في غربها وجاءتني الرسالة الآتية بتوقيع « مارك » : —

« عقد بعد ظهر امس البطالون في شرق لندن اجتماعاً خطب فيه جون وليمس المعين من قبل التحالف الديموقراطي الاشتراكي لتنظيم الحفلة فقال انهم طافوا امس في شوارع غرب لندن ليخبروا اخوانهم العمال البطالين المقيمين هناك بانهم هم باقون أحياء يرزقون

وقال انه قرأ يوم أول من أمس اعلاناً اسال الدموع على خديه في أول الامر لانه خيل اليه انه يقرأ : — « المستر اسكويث عازم ان يتجنن ! » . ولكنه اتضح له فيما بعد أن صحة الكلام : — « المستر اسكويث عازم ان يتزوج » . وبناء عليه يقترح ان العمال البطالين في شرق لندن يقتدون باهل غرب لندن ويبعثون الى جناب المكرم المستر اسكويث برسالة تهنئة هذا نصها : — « بلغ العمال البطالين في شرق لندن ان المستر اسكويث عازم على الارتباط بعهد الزواج المقدس . ولما كانوا عالمين بانه لا يؤاسي العمال البطالين ولا يعطف عليهم وانه استخدم مؤخراً نفوذه في مجلس النواب لتحقيرهم والغض من كرامتهم فهم بالاجماع يرجون بل يتمنون ان شريكة حياته تكون شر وبال عليه فتضطره مكاره عيشته البيتية الى تطليق حياته السياسية التي هو ليس أهلاً لها » ولما تلي هذا القرار على الحضور قابلوه بضجيج الضحك وهتاف الاستحسان . ثم نهض المستر كروتش نائب اتحاد عمال الاحذية وثنى هذا الاستدعاء وايده عدد كبير من المتكلمين نوافق الحاضرون عليه »

ولما كنت لا استصوب ان يطول عهد الخطبة وكنت متلهفة أشد التلهف للتخلص من سيل النصائح الجارف الذي تدفق علي من جميع صديقاتي واصدقائي سعيت جهدي للاسراع في الاحتفال بالزواج رغم قلق الاصدقاء والانسباء جرى ذلك في كنيسة القديس جورج في هانوفر سكوير في اليوم العاشر من

مايو سنة ١٨٩٤ . والمسافة بين غروفنرسكوير والكنيسة قصيرة ولكن ارصفة الشوارع من باب بيتنا اليها كانت غاصة بالمشاهدين

وقد قالت لي وصيفة أختي شارلوت ان أحد الرجال لقيها خارج باب الكنيسة وعرض عليها عشرة جنيهات في ورقة الدعوة التي معها ولما ابت ان تعطيها له قال لها :— اعطيني اياها وخذي مني ما شئت لاني اروم حضور الاحتفال باكليل الآنسة مرغو تننت ! » ولكنها رفضت ان تجيب طلبه رفضاً باتاً . ولما سألتها عنه قالت انها لا تعرفه ولم تستطع ان تصفه لي وصفاً يمكنني من معرفته

وقد وقع عقد زواجنا اربعة من رؤساء الوزارات وهم المستر غلادستن واللورد روزبري والمستر بلفور وزوجي



الفصل الثالث عشر

قل من رزق من رؤساء الوزارات اولاداً مشهورين . اما اولاد اسكويث من زوجته الاولى فقد اشتهروا كلهم في امور مختلفة . فريمون وفيولت امتازا بقوة تأثيرهما في القلوب وارثر اشتهر في شدة ذكائه وسمو مداركه . وهربرت في براعته في الشعر وسيريل في شدة استحيائه وندرة لطافة اخلاقه

اما سيريل اسكويث وهو اصغر اولاد زوجي سناً فقد جمع افضل ما فيهم كلهم من الصفات الادبية والحصافة العقلية . توفيت امه وهو ابن سنتين . وكان في حداثته على جانب عظيم من العناد المأثور عن التننتيين والاسكويثيين . وكان حسب الظاهر اقل اولاد زوجي مشابهة لي . ولكننا بالحقيقة كنا كلانا كأننا شخص واحد من حيث الاتفاق في المبادىء الروحية والمطامح الادبية التي تقوي لحمة الاتحاد بين الناس في هذه الحياة

وقولي عنه انه كان اقرب اخوته اليّ واشدهم اختصاصاً بي ليس لاني عنيت بتربيته منذ الطفولية بل لانه لم يخطىء قط في فهمه لي مع انه لم يوافقني على امور كثيرة . قال لي يوماً ونحن نتكلم عن شؤون الحياة وامور الدين . وكان ابن سبع عشرة سنة : —

« لا بدّ انك تستغربين جداً يامرغو عندماترينناكلنا نضحك من امور تبكيك »

حدثني صديقي المستر ه . هارس قال انه حضر يوماً احدى حفلات الرقص ورأى هناك شاباً أثر فيه منظر وجهه أشد تأثير حتى انه سأل عنه من يعرفه فقال له انه سيريل اسكويث

وكان في المدرسة الكلية مشهوداً له بالاجتهاد والتقدم وحسن السلوك . ولكنه كان نحيف الجسم . ومنذ اقترانه بالآنسة ان باولك الجامعة بين جمال الطلعة وادب النفس عاش قوي الجسم قرير العين

أما أخته فيولت — والآن اللادي بونهام كارتر — فمع ظهور اللطف النسائي الحقيقي فيها كانت حائزة لعزم الرجال وشدة صبرهم على المتاعب . فلم تكن قط لتعجز عن اجتياز أي امتحان تقدم عليه في أية كلية او جامعة كانت . وقد طبعت على عدم الحذر والخوف فشبت على الرزانة التامة والصبر المحمود العواقب وكانت مولعة بالاستدلال المنطقي وقادرة على عرض ما تروم اثباته باقناع وسهولة وفصاحة لا مزيد عليها . وكانت كاخوتها غير معرضة لتأثر ولكنها كانت تفوقهم عزماً واقداماً . وكانت في صباها رقيقة حواشي الطبع وذات شخصية ممتازة وذلك ما حال دون تعرضها للمنافسة التي كانت دأبي في ايام حداثتي

وكانت كاخيها ريموند سريعة الخاطر ميالة الى المداعبة والمفاكهة

وقد رزقت موهبة حسن التعبير وقوة ذاكرة منقطعة النظير. وكانت هي وابنتي اليصابات الفتاتين الوحيدتين بين جميع الفتيات اللواتي عرفتهن في مشابهتهما لي في شدة اهتمامهما بالشؤون السياسية لا من حيث مجرى الالتفات الى الرجال المشتغلين بها — من مثل خطب فلان خطبة بليغة وترقى فلان الى منصب سام — بل من حيث التضلع من معرفة مسائل البرلمنت الدقيقة العويصة وقد كان لهما علم تام بكل ما هو جار من الحوادث الداخلية والخارجية وصلة صداقة باكثر شبان ومشاهير الوقت الحاضر. وعندي ان فيولت بونهام كارتر لها مستقبل سياسي باهر في البلاد ان لم يكن في مجلس النواب. فهي مطبوعة على فصاحة النطق وحسن الالقاء وتوقد الذهن وسرعة الخاطر وضبط عواطف النفس وغير ذلك مما يضمن لها التقدم والنجاح

هذا. ولا يصلح مجلس النواب لاقامة المرأة لاسباب كثيرة اهمها الصحة والفائدة. وقد اعدّ وجودها فيه من باب وضع الشيء في غير محله. لان وظيفتها كام ووظيفتها كعضو في مجلس النواب متعارضتان وغير متفقتين. وهذا كان أحد الاسباب التي حملت زوجي على المعارضة في منح هذه الحرية للمرأة. وكنت أنا من رأيه ومشتركة معه في الممانعة. وفيولت أمّ ناهيك من أمّ ولكنها من صميم الاحرار ولها تلك المواهب التي اشرت اليها فلابد من ان تنال شهرة مستطيرة ونفوذاً سياسياً كبيراً.

والخطب التي القتها هذه السنة في انتخاب ابيها عن مقاطعة بيزلي في شهر فبراير ابلغتها في عيون سامعيها على اختلاف طبقاتهم منزلة رفيعة ليس في وسعها ان تتخلى عنها . وكلما اعتلت منصة الخطابة صاح الجمهور من كل جانب هاتفين لها وطالبين ان يسمعوها

. . . .

ولد ريموند اسكويث في اليوم السادس من شهر نوفمبر سنة ١٨٧٨ ولقي حتفه في قتاله الالمان قبل اشتباك كتيبته في المعركة بعشر دقائق في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩١٦

وكان من أشد الشبان ذكاء واجلهم منظراً وارشقهم حركة واسرعهم خاطراً واكثرهم اهتماماً بالحوادث الطارئة . ولو انه وجه اهتمامه نتتضلع من فرع مخصوص من العلوم كالحقوق أو آداب اللغة لطبقت شهرته فيه الخافقين . ولكن اعوزه المزاج وحدة التصور ولم يكن له طموح الى شيء

تلقى علومه الابتدائية على المعلمة البارعة الآنسة كايس التي كان لها مدرسة يومية في همبستد . ثم انتقل الى كلية وستمنستر واصبح من تلاميذ باليول وفي جامعة اكسفرد جلى في مضمار السبق ونال عدة شهادات تنطق بتفوقه على اقرانه . وفي سنة ١٩٠٤ غادرها وانتظم في سلك المحاماة

كنا ذات يوم نتناول الشاي معاً . ولاجل تسلية الاولاد أخذت ألقي عليهم الغازاً . وقلت لهم اني حللت لغزاً واحداً في

حياتي ولكنني قضيتُ ثلاثة أيام في حله . فسألوني ما هو .
فقلتُ : —

« ما هو الشيء الذي لم يره الله قط ويراه الملوك نادراً ونراه نحن كل يوم : »

فاجاب ريموند على الفور : —

« المزاح »

وحينئذ رأيتُ ان الحل الحقيقي الذي هو « الكفؤ » أو « النظير » لا يذكر بجانب حل ريموند

وكان ريموند منذ حداثته لطيف المعشر حسن الخلق . ولم يغتظ مني في حياته كلها الا مرة واحدة وذلك ان زوجته واباه كانا ذات يوم يشددان الالحاح عليه في الاشتغال بالسياسة وقبول دعوة جماعة من الاحرار في احدى المدن الشمالية كانوا قد رشحوه نائباً عنهم في مجلس النواب . ولكنه تلكأ عن تلبيتهم بحجة ان قبول كهذا يضطره الى الاختلاط بطبقة من الناس لا قبل له على تحمل مضض معاشرتهم فخالفته في ذلك وقلتُ له أن اتصاله بالعامة يفيده في كل حال ويجعله رجلاً في الرجال فشق عليه اني تصديتُ لمعارضته ولم يسعه كتم غيظه مني

وفي سنة ١٩٠٧ اقترن بكاترينا هورنر وهي فتاة ذات حسن وادب وذكاء وبعيدة مثله عن الصلف والغرور . وعاشا معاً في رفاء وصفاء كانا دائماً منشأ سروري وابتهاجي لاني كنت من

بعض الوجوه معينة على تمهيد سبيل اقترانها وتمتعها بسعادة الحياة الزوجية . وكاترينا هي ابنة اللادي هورنر التي كانت خدنا عزيزة لشقيقتي لورا ولا تزال صديقتي المحبوبة

وكان ريموند كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً . وله عدة قصائد تشهد له بالبراعة في فن النظم والتفوق في ابتكار المعاني . منها قصيدة « مديح الفتاة » ومرثاة أبن فيها أحد اصدقائه الاعزاء وقد توفي فجأة في عنفوان شبابه . ولم يكن حزني عليه أقل من حزن ابيه . بل لو كانت والدته حية لما كانت فجيعتها به أشد من فجيعتي .

وعلى أثر وفاته جاءت زوجي كتب تعزية كثيرة من اصدقائه ومعارفه . وكان اشدها احتواء للتعزية الحقيقية الكتاب الآتي الذي ارسله اليه السر ادورد غراي — وهو الآن اللورد غراي أوف

فلودن — : « ٢٣ اكلستن سكوير

١٨ سبتمبر سنة ١٩١

« عزيزي اسكويث

« مضى جيل على وفاة ام ريموند . وقد ترى تلك السنين التي انقضت تجعل مؤاساتي لك وشعوري معك أشد مما كانا حينئذ ان فقيدك ريموند عاش عيشة مجيدة منزهة عن كل عيب . وقد حملته بسالته على اختيار اخطر المواقف في هذه الحرب فضرب

فيها باسم اشجع الرجال ومات موت الابطال

« وان كانت هذه الحياة الدنيا منتهى كل شيء فطولها وقصرها سيان . واذا لم تكن كذلك فحياة ريموند على الارض جزء من شيء لا يحدث فيه موته اقل نقصان بل انه سيزيد عظمة وشرفاً بسيره السديد وموته المجيد

« وفي اعتقادي ان الذين يفصلهم الموت عنا لا يشعرون بالم فراق احبائهم على الارض . وان سني انفصالهم عنا — قلت او كثرت — ليست سوى امس

« واذا صحّ ذلك كان ألم الفراق وملل الانتظار وعناء الاحتمال من نصيبنا نحن الباقين هنا . واما احباؤنا الاعزاء الذين فارقونا فلا يشعرون بشيء من ذلك على الاطلاق . وفي هذا ما فيه من العزاء عندما نرزأ بفقد احد الاحباء

اما حزني الآن فهو ناشئ على الخصوص عن شعوري بثقل الخطب المنقض على زوجة ريموند . اجل ان مصابها فيه عظيم . ورجائي ان ذلك الحقيقي باشتراك اصدقائك بل الامة كلها معك في هذا الخطب الجلل يخفف عنك شيئاً من شدة وطأته ويعينك على مواصلة خدمة الامة بعملك الذي يزيد كل يوم همية وخطورة

« صديقك المحب

« ادورد غراي »

. . . .

اما اخوه هربرت فانتظم في سلك الجان وكان رقيق الطبع لين العريكة . وكان شاعراً حسن الاسلوب جيد الابتكار . نظم قصيدة عنوانها « التطوع » لقيت استحساناً عظيما من جميع قارئيها وكان ذلك قبل نشوب الحرب الكبرى التي خدم وطنه فيها من بداءتها الى نهايتها واقترن باللادي سنثيا ابنة صديقتي اللادي ويمس وابنة اخت اللادي دي فسي

اما اخوه ارثر اسكويث فكان من عظماء رجال هذه الحرب تزوج بابنة أعظم صديقة لي وهي اللادي مانرس التي يخامرني قليل ارتياب في شدة محبتها لي واعجابها بي

انضم ارثر الى الفرقة الملكية البحرية التي تألفت في شهر سبتمبر سنة ١٩١٤ وفي أوائل الشهر التالي اشترك في معركة انتورب . وبعد ما اكمل تدريبه العسكري سافر في شهر شباط سنة ١٩١٥ الى الدردنيل وشهد جميع معارك غاليبولي ... جرح . وبعد ما شفي ... وكان من آخر الذين ... في شهر يناير سنة ١٩١٦

وفي شهر مايو من تلك السنة انضم ... البريطاني في فرنسا ودرفت بفرقة ... وفي ... انكر [فبراير ١٩١٧ اجرح جرحه بالغا ... وسام الخدمة المتازة واوصي له بصليب فكتوريا وأعطي فيه براءة تضمنت وصف ما اتاه من أعمال البسالة في الهجوم والبراعة في

القيدة والاستطلاع

وفي ١٦ ديسمبر سنة ١٩٥٧ تعين اميرلواء وعهد اليه بقيادة اللواء المئة والتاسع والثمانين . لكنه بعد بضعة ايام أصيب بجرح ابلغ جداً من جرحه الاول لأنه افضى الى بتر ساقه واضطره الى الانقطاع عن الخدمة

ولم أره قط في حياتي كلها مستسلما لهوى طبعه او مهتما بنفسه

. . . .

والآن التفت حولي وافتش لارى ابنة أية صديقة من صديقاتي تصلح لان تكون زوجة لابني انطوني . ولا أعلم هل تكون فاضلة ومحبة وجميلة المنظر مثل كنائني الاخر

لقد كنا جميعاً في صفاء وهناء وكل منا مسرور بمحبته للآخرين ومحبة الآخرين له . ولكنني عند ما اراجع في ذهني تفاصيل علاقتي باولاد زوجي منذ دخلت بيت ابيهم ارى انه لم يكن عندي من الحكمة والذكاء ما يكفي لارشادي في سبيل تنشئتهم وتهذيبهم وانه لافضل لي في ما شبوا عليه من صلاح السيرة ونجاح العمل

وفي اثناء اقامتنا في بيبلسشير لم تسنح لي فرصة الاجتماع بغيري من الفتيات المتزوجات في بيوتهن . فلم أعرف أسرة أخرى غير أسرتي . والحالة التي ربيت عليها في سكوتلند وهاي ليسسترشير — التفرغ للرقص والموسيقى والصيد ووفرة اسباب

الترف والرخاء — لم تؤهلني بعد زواجي لفهم طبائع اولاد ربوا في أحوال تختلف عنها كل الاختلاف . كنت قبل الزواج مطلقة السراح وحبلي ملقى على غاربي اذهب حيث شئت وافعل ماردت وهذا ما جعل بعض صديقاتي واصدقائي ينظرون بعين القلق الى مسألة زواجي خوفاً على سعادة اولاد زوجي ان يكدر صفاءها ما يقتضي من التدريب والاختبار في تربية الاولاد ولا ادري أينا كان أشجع في الاقدام على هذا الزواج أزوجي أم أنا . لان اقتراناً كهذا لا يصح عقده بيد التهاون والاستخفاف بل يجب ان يرمق بعين العناية والاهتمام والتجلة والاحترام . وجميع كتب التهنئة التي جاءتني لم يخل منها كتاب من كلمة تحذير وانذار . فقد كتب الي المستر غلادستن يقول : —

« ٥ مايو ١٨٩٤

انك مدعوة للقيام بعمل عظيم وشريف . وهو يقتضي همة ونشاطاً لا مزيد عليهما . فليمنحك القادر على كل شيء عزماً كافياً وثباتاً وافياً صديقك المخلص

و . ا . غ

وكتب الي جون مورلي : —

« ٧ مارس ١٨٩٤

« عزيزتي الآنسة مرغو ،

« الآن وقد سكنت عاصفة التهانيء أهدي اليك تهنئتي

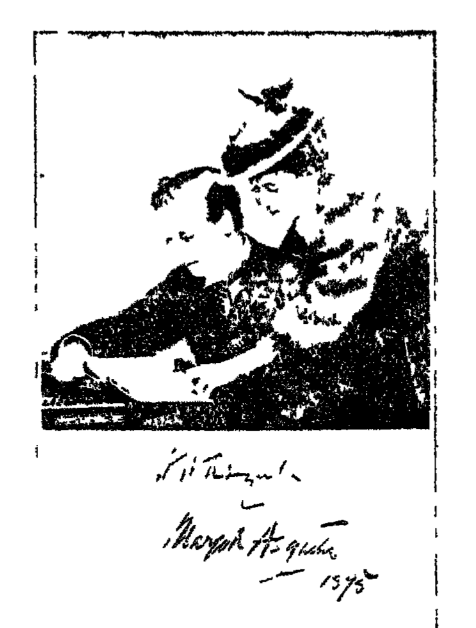
متأخرة عنها كلها ولكنها ليست دون واحدة منها في حرارة الاخلاص وصدق التمني . انك عازمة على الاقتران برجل هو من افضل رجال العالم قاطبة . وهو غني بالمواهب العقلية والادبية وامامه مستقبل زاهر باهر فكل فتاة تحسدك على الاقتران برجل كهذا . وتلك حقيقة معلومة لديك فلا ازيدك بها علماً . على اني في الوقت نفسه اترفع عن الانضمام الى أولئك الفضوليين الذين علمت منك انهم اشاروا عليك بترك بعض ما أنت فيه . فلست ارى رأيهم هذا ولا أوافق على شيء منه . ولا أرى صفات أجدر بالبقاء كما هي من صفات خفة الروح وتوقد الذهن و نباهة الشأن وطرب القلب ونشاط العزم . اذاً أرجو ان تبقيها كلها ولا تحاولي التحول قيد شعرة عن واحدة منها

« ان الدهر خير معلم للانسان . ويكفيك من حوادثه درس واحد او درسان . والخامل البليد من لا يتعظ ويعتبر . واني متوقع لك بالاكثر ايام رغد وهناء وسني سعادة وصفاء

تسألين بركتي وقد نلتها من الآن . . لأني من صميم فؤادي أتمنى لك حياة دائمة الاخضرار طيبة النسيم وأرجو ان تسمحي لي ان أعد نفسي دائماً صديقك المخلص الحميم

جون مورلي

◦ ◦ ◦ ◦ ◦ ◦ ◦ ◦ ◦



مستر سكوبث

وعقيلته

مرغو سكوبث

والآن عند ما ارجع بافكاري الى سني زواجي الاولى اراني عاجزة عن وصف المعروف الذي اسداه اليّ اولاد زوجي في صبرهم عليّ ورفقهم بي واخلاصهم لي. لاني مع كوني افدتهم كثيراً في تسليتهم وتحسين حالة معيشتهم واصلاح ما كان يبدر منهم من الهفوات والزلات لم اتمكن من تعويضهم ما فقدوه

فوالدتهم هيلانه اسكويث كانت فريدة في عقد السيدات الجميلات المتهذبات. لم تكن قط خاملة ولا متصنعة. وكانت ساذجة في صلاح قلبها وطهارة نفسها. وكانت بساطتها تعرضها بعض الاحيان لشيء من الغرور والانخداع • وكانت أقل من من أولادها اندفاعاً واقداماً

هذا ما بدا لي ان اذكره عن أولاد زوجي. أما عن ابيهم فاكتفي بالقول انه كان مخلصاً منزهاً عن الغرور مالكا لنفسه. وبكلمة اقول انه كان زوجاً محباً أميناً وفياً



الفصل الرابع عشر

كان طبيبي السر جون وليمس (١) ولو اقام في غير وايلس لاشتهر اسمه بين كبار الاطباء . وكان مع براعته في فنه صالح النفس مخلص القلب . وسأقتطف في ما يلي نبذة « من يوميتي » وصفت فيها نفاسي الاول وكيف تعرّفت بالسر وليمس : —

« في اليوم الثامن عشر من شهر مايو سنة ١٨٩٥ كانت شقيقتاي شارلوت ولوسي جالستين معي . وكانت ممرضتي مشغولة في اعداد ما يحتاج اليه الطبيب . وكان هنري ممسكاً يديّ وانا جالسة في كرسي كبير اغص بالبكاء شاعرة برعب الالم وموجسة خوفاً يتعذر ادراكه على غير الوالدات

« وفي الساعة الرابعة صباحاً ذهب هنري ليأتي بالمخدر [الطبيب الذي يعطي الكلوروفرم] . ومع ان الظلام كان مخيما في الغرفة تمكنت من مشاهدة الدكتور بيلي عند أسفل فراشي وفي يده كيس . فاسندوا رأسي الى مخدة وحالوا بيني وبين النور بشيء اسود لم يلبث ان انطبق على فمي . ثم خيل اليّ اني اسمع صوتاً خفيفاً أشبه بصوت نفض بساط . ثم غبت عن الصواب وعدت لا أعي شيئاً

---

(١) السر جون وليمس من ابريستوت في وايلس

« وفي منتصف النهار عاد الي صوابي ففتحت عيني وشاهدت شارلوت واقفة تنظر الي . فقلتُ لها : — لم يبق لي طاقة على تحمل الالم . فعبثاً وباطلا !

شارلوت : « لا . لا . ياعزيزتي لن تتألمي بعد الآن »

مرغو : « اتعنين بهذا ان كل شيء انتهى؟

شارلوت : « نامي يا عزيزتي نامي

« وكان الكلوروفرم قدأخذ مني كل مأخذ حتى اني بالجهد استطعت الكلام . وقالت لي الممرضة فيما بعد ان الطبيب رأى ان يضحي بالطفل في سبيل نجاتي من الخطر العظيم الذي تعرضت له لان ولادتي تعسرت الى حد يفوق الوصف

« ولما جاء السر جون وليمس ليراني كانت علامات القلق والاعياء بادية على وجهه . واذ لم يجد أقل ارتفاع في درجة حرارتي قال لي بحمية : —

« اشكرك يا عقيلة اسكويث

« وكنتُ لشدة ضعفي غير قادرة على معرفة كل ما حدث وبلغ هياج اعصابي مبلغاً جعلني اقاسي من أقل صوت واصغر حركة المـاً لا يوصف »

وعلى ذكر ما اقتبسته من يوميتي اقول اني فجعت بثلاثة من الاطفال الخمسة الذين ولدتهم ; ولستُ اجهل ان هذه الاحزان السرية الاليمة لا محل لذكرها لغير اصحابها . ولكن كما اني اقف

بعض الاوقات مع هنري بجانب الرموس الصغيرة محجوبين عن عيون الغرباء هكذا نلمس كلانا بيد واحدة وقلب واحد حزناً لا ينسى ذكره ولا يمحى اثره

وقد جاءنا كثير من رسائل التعزية . ولكن ابلغها وادلها على المؤاساة الحقيقية رسالة صديقنا الحميم الودود اللورد هلداين وهي : —

«صديقتي العزيزة

« حقاً يصعب عليّ وصف التأثير الشديد الذي شعرت به في أثناء الدقائق القليلة التي قضيتها في الكلام معك بعد ظهر اليوم. نعم لقد أثر فيّ جداً ما رأيته وما سمعته . وفارقتك بشعور من شاهد بعينيه نصرة ناشئة عن غلبة وحياة صادرة عن موت . والقوة الممنوحة في وقت عصيب كهذا لا تنتج عن تجاهل الخطب ولا عن محاولة الاقتناع بغير الواقع بل عن العزم الراسخ على تولية الوجه شطر الشرق والتقدم الى الامام . والعبرة في ما نلمسه بالكيفية لا بالكمية . ولله ما قاله برون في كتابه الرباني بن عزرا : « كل ما استطيع ان اكونه وكل ما اضعته محفوظ هناك في يد ذلك الذي رتب كل شيء منذ البدء ترتيباً كاملاً حسب قصده ». فقد فقدتما سروراً عظيما ولكنكما بتنمية وتقوية محبة كل منكما للآخر تربحان ما هو خير وابقى . فالالم والحزن

اللذان تحملتماهما سوف يأولان الى زيادة قوتكما وسعادتكما

صديقك المخلص

ر . ب . هلداين»

وفيما كنتُ آخذة في النقه والتعافي جاء هنري ومعه السر جون وليس ودخلا مخدعي وكان ذلك بين الساعة الخامسة والسادسة من صباح اليوم الحادي والعشرين من شهرمايوسنة ١٨٩٥ . وقيل حينئذ انه ينبغي لي ان ابقى في سريري الى شهر اغسطس لكي اشفى من التهاب الاوردة

ومن ذلك الحين صار طبيبي السر جون وليس صديقي . وكان لنبالة شأنه وصراحة افكاره وسداد رأيه تأثير كبير في حياتي كلها

ولأعد الى « يوميتي » : —

« وكان هنري ذا حظوة عند الملكة فكتوريا . فاهتمت بامر تقاسي . وكتبت اليه كتاباً رقيقاً تلطفت فيه بالسؤال عني وزادت على ذلك أنها واصلت طلب الاطمئنان عن صحتي بواسطة رسل كانت تبعثهم يوماً بعد يوم . وقد اجبتها مرة بنفسي بقلم رصاص عند ما كان هنري غائباً في وزارة الخارجية مع ان معرفتي بها كانت يسيرة

« وفي ذات يوم قيل لي ان السر وليم هركورت قادم لزيارتي وكنتُ بعد في النقه ولا ازال ملازمة لسريري . ثم اظلم باب

غرفتي بجسمه الضخم

« وكان قد زارني اكثر اصدقائي من كبار رجال السياسة وغيرهم كالمستر غلادستن واللورد هلداين والمستر برل واللورد سبنسر وجون مورلي وارثر بلفور والسر الفرد ليال واميرالبحر ماكس . فسرني ان يزورني السر وليم هركورت أيضاً . ولما دخل وشاهد سياط الصيد معلقة على جدار الغرفة قال : —

« يسرني ان أرى هذه السياط ! فان اسكويث يستخدمها لجلدك كلما جازفت . واني أرى في فمه الصغير المزموم دليلا على عزمه واستطاعته ان يفعل ذلك كلما اراد

« وبعد ما خرجت ممرضتي من الغرفة دهش من استخدامي امرأة قبيحة المنظر كهذه وان تكن مجتهدة ونافعة في خدمتها . وقال لي ان ابنه بوبي أحبّ ممرضة وظلّ عدة سنوات يكتب اليها . ثم قال : —

« اني ابذل جهدي في حث أولادي على هذا الامر لانه يفيدهم في مستقبلهم

« وبعد قليل قيل لي ان المستر جون مورلي قادم ليزورني . فامرت الخادم ان يسأله الانتظار قليلا في غرفة الجلوس والحث على زائري هركورت في البقاء ماشاء . لكنه اصرّ على طلب دخول جون مورلي. فاستدعيته واخذنا نحن الثلاثة نتجاذب الاحاديث عن امور مختلفة حتى انتهينا الى الانحاء باللوم على الذين

يهتمون برأي الآخرين فيهم أو بما تقوله الصحف عنهم . ولما كنت عالمة ان زائري كليهما شديدا التأثر بكلام الصحافة تعمدت توسيع نطاق هذا البحث . فأخذ كل منهما يندد بالصحف التي شددت حملاتها عليه ويطرىء الصحف التي تفانت في سبيل التعصب له والانحياز اليه

وبعد انصراف السر وليم طفق جون مولي — وهو أشد الناس تأنقاً واخلبهم للعقول — يحدثني عن الامور الادبية والكتب والقصص والانتقاد فانتهزت هذه الفرصة السانحة وجعلت أعنفه — على سبيل المزاح — لانه بلغني عنه انه قبل زواجي أشار الى ما فيّ من خفة الروح وقلة الرزانة وقال ان هذا سوف يضر بمستقبل هنري . وسألته هل اطلع على ما عملته بعد ذلك مما يؤهلني لنيل ثقته واعجابه بي. فاعترف بانتقاده لي جرياً على صراحته المعهودة لانه من أشد الناس تمسكا بالصدق وابعدهم عن الكذب . وتلك شجاعة طالما اعجبت بها

« وبعد ما ودعني وذهب جاء هنري واخبرني بانه عند ما جرى الاقتراع على لوم كمبل بانرمن في مسألة تتعلق بالذخائر زاد المقترعين ضد الوزارة على المقترعين معها سبعة اصوات وافضت هذه الحركة الى اندحارها . فسألته بلهجة القلق والاضطراب . —

« أآسف أنت ياعزيزي على خروجنا من الوزارة ؛ فاجابني : —

« انما أسفي على أمر واحد ، وهو عدم انتهائي من اصلاح السجون . على اني ألفت له أفضل لجنة ولي أمل انها تواصل الاصلاح الذي شرعت فيه وتكمله على الوجه المروم

وحينئذ جاءه رسول بدعوة من قبل مجلس النواب . وقيل له ان الملكة استدعت اللورد روزبري اليها . فهاجنا هذا الطلب المفاجيء . وقبلما يتمكن من تتمة كلامه لي عماحدث قفل راجعاً الى وستمنستر . وبعد نصف الليل جاءني ودخل مخدعي ليتلو صلواته بجانبي كما كانت عادته في كل ليلة '

« ثم اخبرني بأن سنت جون برودريك استدعى ان ينقص راتب كمبل بانرمن مئة جنيه في السنة . فأفضى هذا الاستدعاء الى قلب الوزارة . وقال لي ان اللورد روزبري استقال وذهب الى وندسور . وان غيظ كمبل بانرمن من هذا الانحدار بلغ اشده وان انصارنا في المجلس كانوا قليلين جداً . »

وبسقوط الوزارة سنة ١٨٩٥ لم يبق ليوميتي عن تلك السنة أقل مزية



الفصل الخامس عشر

سأختم كتابي بوصف اجمالي لاخلاقي منقول عن يوميتي التي دونتها قبل ولادة ولدي الخامس والاخير [سنة ١٩٠٦] بتسعة اسابيع . وهو كباقي المقتبسات التي اقتطفتها من يومياتي لم يوضع قط لقصد اطلاع الجمهور عليه : —

« لستُ جميلة ولا أعرف شيئاً عن ملامحي . ولا يزال شكل جسمي باقياً كما كان من حيث النحافة وتناسب الاعضاء ونشاط الحركة . وبما اني جريئة على المعاشرة والاختلاط باهل الهيئة الاجتماعية فلي استطاعة ان أدخل أي مجتمع كان من مجتمعاتها راسخة القدم رابطة الجأش كما يفعل من هم فوقي جاهاً وعظمة ولست أعتذر عن مدحي لنفسي اذا كنت مستحقة له ولا احاول الدفاع عن لوم استوجبه لكني ابذل جهدي في وضع الارقام صحيحة وادع غيري يعنى بجمعها

« اظنني حاصلة على قوة التصور الناشئة لا عن الوهم بل عن الشعور . وقادرة على ادراك الجمال لا في الشعر والموسيقى والتصوير ومظاهر الطبيعة فقط بل في بني البشر أيضاً . ولي في ماهية الله نظر جلي صاف لكنه بعيد يخترق مسافات قاتمة الجو طويلة المدى ومتشعبة الطرق . واني انتهز هذه الفرصة لاعلن

ان ديني حقيقة ملازمة لي وغير منفصلة عني . وهذا كل ماروم ان اقوله عن هذا الموضوع

« ومن الصعب تعريف قوة التصوُّر . ولكنني اظنها اعم من الوهم والتخيل . كتب اليَّ هنري مرة في احدى رسائله الحبية يقول : « ان لك في التصور نظراً خارقاً وفراسة فائقة قل من يدانيك فيهما » . ومما ينقصني في التصور بشهادة هنري نفسه اني شديدة الاهتمام بمساعدة من احبهم الى حد يعرضني للوم والانتقاد . واني كثيراً ما اقصر في مراعاة ما يجرح شعور الآخرين . وما أظنُّ انه يحق لي الاهتمام بان يقال لي ما كنتُ قد سبقتُ وقلته لغيري . وقد تجرعت في حياتي كؤوس الانتقاد مترعة وجرعتُ غيري مثلها . ولكنني لامر ما — لنقص لم استطع سده او لخلل لم اتمكن من اصلاحه — عجزت عن حمل اصدقائي على قبولها مثلي بضمير صالح ونية حسنة. لستُ مغرورة ولا نزقة ولا انا من يطير الذباب فيغضب . ولكن متى أُسيء اليَّ فاثر الاساءة يبقى فيَّ . ويكون شعوري نحو من يسيئون اليَّ مختلفاً وعلى وجوه متباينة. فان ثقتي بهم تتزعزع . ومع اتصافي بكرم النفس اخاف ان يكون لصفحي حد لا استطيع مجاوزته . يقول أهل العلم ان الاعتذار او التفاهم او جلاء ما يقع من سوء الفهم بين الاصدقاء والاصحاب — يقولون ان هذا كله خطأ أو من باب لزوم ما لا يلزم . لكنني اراه السبيل الوحيد لمن يروم

الاحتفاظ بمحبتي. والذين ليس عندهم من حسن النية وكرم النفس والتواضع ما يحملهم على الاعتراف بخطإِهم لا يستحقون ان يحبهم أحد . ومما اشكوه من قصر الحياة انه ليس لي فيها وقت كاف لابدي ما عندي من عواطف الشفقة والمحبة نحو الآخرين . ان رأفتي أعظم من ان توصف وجميع جوارحي تمتلىء شعوراً بشقاء غيري

« وكما سبقتُ وقلتُ في وصفي الاجمالي لنفسي سنة ١٨٨٨ اقول الآن اني بالجهد أعدّ الصدق فضيلة . لكنني لا استطيع الفرق بين الصدق الذي يجب ان يقال والصدق الذي ينبغي ان نسكت عنه . فكثيرون يكذبون لانهم لا يجرأون ان يقولوا الصدق ويصعب عليّ ان اقول ما اخاف من قوله . اني جسدياً واجتماعياً قليلة الخوف ولكنني ادبياً اخاف من اشياء كثيرة من توبيخ الخدم ومساومة الباعة في المخازن والدكاكين بل مما هو أهم — من فقد صحتي او صحة زوجي أو صحة أولادي ولاجل درء هذه المخاوف الاخيرة أواصل صلواتي وابتهالاتي كلما خلوت بنفسي

« وها أنا قد قلتُ عن نفسي بكل احتشام اني قوية التصور سريعة الخاطر ومحبة وجريئة. اذاً ما هي عيوبي ؟

« اني عصبية المزاج سريعة الهياج قلقة كثيرة الحركة . وهذه الامور قد يراها القارىء عيوباً صغيرة ليست بذات اهمية .

ولكنها متأصلة فيّ حتى انها كثيراً ما تشل حركات نشاطي وتضعف قوة نفوذي وتحول دون قيامي بعمل خطير ذي شأن. أرهق نفسي واستنفد قواي على وجوه مختلفة وبطرق متنوعة واندم متحسرة على عدم انجازي للاعمال الطفيفة التافهة واستعدُّ مرة بعد مرة منسقة متدبرة ما اروم الشروع فيه أو ما يروم غيري الاقدام عليه من الاعمال حتى يأخذ مني العناء كل مأخذ ويوشك ان يحرمني شهية الطعام والميل الى المنام . اني شديدة العزم كثيرة النشاط وافرة الاجتهاد . ولكني عجول قليلا . فأساق مندفعة بحدة مزاجي حتى ارهق نفسي وانهك قوى غيري

« لم اتزوج الا بعد ماصرت ابنة ثلثين سنة . وهذا لحسن الحظ وسع لي مجال التفرُّغ للدرس والمطالعة . ولو كنتُ ممن يعرفون كيف ينتفعون من المطالعة لبلغتُ شأواً بعيداً في التضلع من العلوم والمعارف . ولكن هذا الانتفاع فاتني. لست خاملة ولا بليدة . ولكن يخيل اليّ اني غير قادرة على ادراك الامور المتناقضة ولي ذاكرة قوية على استيعاب ما اطالعه في الكتب وحفظ ما اسمعه من الاحاديث ولكنها ضعيفة في حفظ الاشعار وتذكر التواريخ وعجيبة جداً في تذكر الوجوه واعجب منه في نسيان الاسماء

« وقد استوفيت قسطي من الرياضة الجسدية . فبلغت من البراعة في ركوب الخيل مبلغاً قل من يدانيني فيه . وقضيت فيه

من الوقت اكثر جداً مما وجب . وفي سبيله تعرضت لهشم انفي وكسر ترقوتي واضلاعي وعظام ركبتي وخلع فكي وشجّ جمجمتي وأصبت من جراه خمس مرات بارتجاج الدماغ. ولكنني مع هذا كله — ومع ان افراسي ستباع في الاسبوع القادم(١) — بقيت كما أنا شديدة العزم والثبات . وقد زاولت الزلج والرقص . فالممت بالاول الماماً كافياً ولكنني اتقنتُ الثاني اتقاناً تاماً . ولي في التصوير معرفة حسنة وقريحة جيدة ولكنني موسيقية مطبوعة وبارعة جداً في الضرب على البيانو . وقد اهملت الآن هذين الفنين كليهما . ودفاعاً عن اهمالي هذا اقول انه نشأ من جهة عن اشتغالي بشؤون أولادي وأولاد زوجي وامور بيتي . ومن جهة اخرى — وهي أشد تأثيراً من تلك — عن قلقي وكثرة حركتي

وكانت الكتابة اعظم شيء ولعت به بعد ركوب الخيل فقد كتبت كثيراً ولكنني لم ارتح الى نشر شيء منه . وكنت دائماً شديدة العناية بتدوين يومية في كتاب مبوّب حسب ترتيب الحروف الهجائية . وبقيت سنين طويلة اكتب مايبدو لي من الانتقاد في ما اطالعه من الكتب . وقد يصعب علي ان أبدي رأيي في ما يخطه قلمي . قال لي ارثر بلفور يوماً اني بارعة في كتابة الرسائل . ويشهد لي هنري باني كاتبة مجيدة اما

(١) بيعت في ١١ يونيو سنة ١٩٠٦

الكتابه من الطرز الذي أميل الي مطالعته فلستُ بقادرة عليها لانها تحتاج الى تدرب طويل لم يتح لي . فلو تدربت عليها منذ الصغر لكان اتقاني لها أشد منه لغيرها . ولي عناية خاصة بانتقاد كل ما اقرأه ولست استمد آرائي في الكتب من أفكار غيري ، ولما طالعت كتب ارثر بلفور ومباحثاته راعني في الحال جمال اساوبه الكتابي قبلما أقف على رأي أحد آخر فيه . ثم وافقني عليه هنري وأيده ابنه ريموند وهو لا يقل عن ابيه مقدرة على معرفة أمر كهذا وقال فيما كتبه مرة ان ارثر بلفور اجمل الكتّاب اسلوباً واحسنهم ديباجة

« وقد ولعت منذ حداثتي بجمع استات العاديات والآثار ولم تنحصر عنايتي هذه في الطرائف الغالية النفيسة بل كانت شاملة الرسائل والصور والرسوم لاسرتي ومشاهير الناس وغير ذلك. فلم اضع شيئاً مما وقع في حيازتي . فعندي خزف صيني وكتب واسواط وسكاكين وعلب نقاب وساعات وغيرها مما كان يهدى اليّ في صغري . هذا واني شديدة التدقيق في المحافظة على الوقت وحريصة جداً على النظافة والاتقان والترتيب. وفيّ قسوة قليلة الا في معاملة الاولاد فان لي عليهم ما لا يوصف من الصبر وطول الاناة

« والآن قد انتهيت . لاني أشرتُ الى صفاتي واخلاقي وآدابي ومواهبي وعيوبي وتجاربي بما استطعتُ من الامانة والاخلاص . فلم يبق شيء خليق بالذكر . واذا كان لا بد لي من وصف نفسي بشيء يميزني قليلا من غيري قلت انه قوتي على المحبة والانتقاد . اما ما ينقصني من ثبات الجأش والاعتدال وامتلاك النفس والسلطة الصادرة عن الشعور التام بحقيقة التناسب فهذه كلها مما يحوزه هنري ويفوق به على غيره . وغاية ما اتمناه اني لا اكون قد بلغت من السن والجمود مايحول دون سد هذا النقصان

» م . ا .

« شهر يونيو ١٩٠٦

« حاشية : هذه هي المرة الثانية التي حاولت فيها اذا كتب عن نفسي واخاف ان يكون ما كتبته في الاولى سنة ١٨٨٧ افضل مما كتبته الآن . لانه كان اكثر تناولا لشؤوني الخارجية ولكن ماذا عسى المرء ان يستطيع قوله عن شؤونه الداخلية مما يطابق الواقع أو يجيء موافقاً لرأي اصدقائه فيه ؟ . اني قادمة بعد بضعة اسابيع على الولادة وفيَّ عامل يدفعني الى التطير والتشاؤم ويستميلني الى تلخيص حياتي على الوجه الآتي : —

« طفولية مطلقة من كل قيد . وصبوة مقرونة بالفوز ، ومغازلة كثيرة بقليل من الامتهان والابتذال . وشهرة قليلة معرضة لكثير من الانتقاد وزوج صالح من كل وجه . ورغد عيش لا مزيد عليه . ومحبة الاولاد . وغبطة في الاوج . وموت قبل الاوان وحفلة تذكارية

«ولكني آمل ان يمتد بي أجلي لاكتب من هذه اليومية مجلداً آخر يحتوي وصفاً شائقاً لسيدة صالحة ».

مرغو اسكويث

